عبد الرحمن الرافعي

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة

من فجر التاريخ إلى الفتح العربي



عبد الرحمن الرافعى

ولد فى ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفى فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى من كتاب تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة سنة ١٩٦٣ ، وها هى ذى دار المعارف تخرج الكتاب فى طبعته الثانية مطابقة تمامًا للطبعة الأولى . وبعد فوات أكثر من ربع قرن ، ندعو الله أن ينفع به من يريد أن يرجع إلى تاريخ مصر قبل الميلاد بآلاف السنين . والله ولى التوفيق .

سنة ١٩٨٩م

كريمات المؤلف

تقديم الكتاب

قبل أن أعرض لكتاب « تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة . من فجر التاريخ إلى الفتح العربى » . أحب أن أشير إلى الدوافع التى دفعت أستاذنا عبد الرحمن الرافعى إلى إخراج هذا الكتاب ، وبحكم التصاقى به ، وقُربى منه منذ أن كنت طالبًا بكلية الحقوق فى السنة الثانية سنة ١٩٣٧م ، وكنت عضوًا بلجنة شباب الحزب الوطنى ، ثم بعد تخرجى سنة ١٩٤٠م من كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) والتحاقى بمكتبه محاميًا تحت التمرين ، ثم إلى خطوات حياتى العائلية معه ، والعملية والحزبية باللجنة الإدارية للحزب الوطنى ، وفى غير ذلك من المجالات الأخرى . فإن ما دفع الرافعى إلى إخراج هذا الكتاب هو توقفه عن كتابة تاريخ مصر الحديث بعد سنة ١٩٥٩م .

وبعد أن أخرج كتاب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ فى سبع سنوات ، الذى أنهى هذه المؤلفات بدءًا بالحملة الفرنسية وعصر المماليك وهى منشورة كلها فى نهاية هذا الكتاب ، وكل كتاب أعادت طبعه دار المعارف .

وأفضى إلىّ الرافعى بأن ثورة ٢٣ يوليو بدأت تغير من اتجاهاتها ومبادئها . وأن سلبيات كثيرة ظهرت فى خطوات رجالها ، وأنه يحسن التريث فى تسجيل تاريخها بعد ١٩٥٩ ، حتى تتكشف الأمور أمامه واضحة فيسجل التاريخ – كعادته – سليمًا وفى حياد تام دون أى هوى أو غرض ، وتلك سمته الظاهرة فى مؤلفاته كلها . ولكن شأنه شأن الباحث الكاتب المدقق يصعب على نفسه أن يقف كلمة عن الكتابة ، فرجع إلى الوراء البعيد يسجل تاريخ مصر القديم ، منذ أن بزغ نور الشمس على أرضها ، فكان هذا الكتاب الذى أخرجه برغم معارضة أقرب الناس إليه من عائلته اللصيقة به ، ونصحته حرمه – وكانت على جانب كبير من الثقافة تشاركه أحيانًا كثيرة فى الرأى ، ومراجعة مؤلفاته معه – أن ابتعد عن تاريخ الفراعنة حتى لا تصيبك لعنتهم ، وهل يا ترى تحقق هذا التفكير فكان أنه أُصيب بالشلل فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، وأدى هذا المرض به إلى الوفاة فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ ، ولكل أجل كتاب موقوت .

إن الرافعى بإخراجه هذا الكتاب برغم أنه يُعد فى نظرى كتابًا مختصرًا . إذا قيس بآلاف السنين التى جمعها ، ولكنه غطى هذه الحقبة الطويلة من تاريخ مصر حتى الفتح العربى .

ثم كان أن بدأ قبل مرضه وفى أثناء مرضه أن يكمل حلقات التاريخ كلها ، منذ الفتح العربى حتى عصر المماليك والحملة الفرنسية على مصر فى كتابيه « تاريخ الحركة القومية » الجزء الأول والجزء الثانى نهاية بدء عصر محمد على . فكان تفكيره إلى كتاب تاريخ مصر القومى من الفتح

العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية ؛ وخرج هذا الكتاب بعد وفاة الرافعى بمعاونة الأستاذ الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ولولا جهده وما بذله لتكملته بل صياغة أجزاء من الكتاب لما خرج إلى النور .

وبإخراج هذا الكتاب يكون الرافعى قد أرخ لمصر تاريخها كله ، قديمه وعصوره الوسطى والحديثة ، خلال تلك الآلاف من عمر مصر ، وهو ما لم يستطع مؤرخ فى العالم أن يؤرخ لبلده فى كافة العصور والأزمان ، وأكتفى هنا ببعض هذه الدوافع التى دفعت الرافعى إلى قطع سلسلة مؤلفاته فى تاريخ مصر الحديث من سنة ١٩٥٩ ، لأنها كثيرة ، ولا مجال هنا لذكر تفصيلاتها . ونشير إلى تقديم الكتاب بإبراز الناحية الشعبية ، وجهاد المصريين ، وظهور الحركة القومية لمصر ، وفى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ، وإظهار الثورات التى ظهرت دفاعًا من الشعب عن كيانه ، ويكفى أنه يرجع القارئ إلى هذه المقدمة الممتعة التى خطها الرافعى بقلمه فى صدر الطبعة الأولى من الكتاب ، والتى نعيد تسجيلها هنا .

ويجمع الكتاب فى فصله الأول الوحدة القومية ، والدولة القديمة ، وحضارة المصريين خلال عصر هذه الدولة ، حيث اكتشفوا التقويم السنوى ، والقراءة والكتابة ، وفن الطب وعلمه . وإقامة الأهرام ، ثم الفصل الثانى تحدث الرافعى عن الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، والحملة فى فلسطين وسوريا ، وظهور رجل من صفوف الشعب يتولى حكم البلاد . هو امنحات — هذا يدلك على اتجاه الرافعى نحو اعتناقه الحرية وجهاد الشعب ، وأثره فى الكفاح والنضال لا كفاح الملوك والحكام !!

والفصل الثالث عن الدولة الوسطى ، وما ظهر فيها من إنشاء جامعة عين شمس مدينة النور والعلم والمعرفة ، وشق قناة تصل النيل بالبحر الأحمر ، وما ظهر من أعمال جليلة فى شئون الرى والعمران ، وإنشاء خزان بحيرة موريس ، ويجمع الفصل الرابع ثورة الشعب على الهكسوس ، وتحرير مصر منهم ، وهذا يؤكد اتجاه الرافعى فى إبراز جهاد الشعب وكفاحه ، ثم الفصل الخامس عن الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين . والفصل السادس أبرز الرافعى أوج مجد مصر فى عهد تحتمس الثالث ، ثم الفصل السابع عن إخناتون وثورته الدينية ، والفصل الثامن عن رمسيس الثانى وحروبه الدفاعية ، والتاسع عن الدفاع عن كيان مصر فى عهد خلفاء رمسيس الثانى ، والفصل العاشر عن تحرير مصر من الاحتلال الآشورى على يد شعب مصر ، والفصل الحادى عشر عن ثورات الشعب على الغزو الفارسى ، والفصل الثانى عشر عن الإسكندر الأكبر وجلاء الفرس عن مصر ، ثم ثورات الشعب المصرى على البطالمة ، جمعها الرافعى فى الفصل الثالث عشر . ثم تكلم فى الفصل الرابع عشر عن مقاومة مصر للاستعمار الرومانى وعصر الشهداء ، وانتهى إلى الفصل الخامس عشر عن الفتح العربى لمصر .

هكذا يبين صدق الرافعى فيما سجله فى هذا الكتاب من وقائع وأحداث شرح أسبابها ووقائعها

ونتائجها ورأيه فى كل ذلك معتنقًا أفكار الحرية وكفاح الشعب المصرى على مدى هذا العصر القديم من حياته .

وقد لقى هذا الكتاب رواجًا كبيرًا لأنه جمع تاريخ الشعب المصرى وحكامه خلال هذه الآلاف الطويلة من السنين ، وكان مرجعًا هامًا للباحثين فى هذا التاريخ ، وسيلقى الرافعى فى جنات الخلد جزاء ما قدمه لمصر وشعبها ، فى أمانة وصدق ، وأسلوب هادئ بسيط . والله المستعان .

المستشار حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس هيئة قضايا الدولة الأسبق

مقدمة الكتاب

عندما كنت أؤرخ للحركة القومية فى العصر الحديث ، رأيت أن عظمة مصر القديمة — مصر الفرعونية — تستهوى الباحث لاستقصاء تاريخها ، وبخاصة حين طالعت ما نشره علماء الحملة الفرنسية منذ أوائل القرن التاسع عشر عن أمجادها ومفاخرها ، وما رسموه فى مجموعاتهم ومصوراتهم ، من آثارها الخالدة ، ولقد كان هؤلاء العلماء أول من كشفوا عن هذه الآثار كشفا علميًا ، وكنت وأنا أطالع هذه الكشوف أتساءل : ألم تكن فى مصر القديمة حركة قومية يصح أن تكون أساسًا لتاريخها ، على غرار الحركة القومية فى تاريخها الحديث ؟

* * *

لقد كنت موقنا بأن ما بلغته مصر القديمة من التقدم والحضارة والعظمة ، لابد أن يكون له أساس قومى هو عماد الحركة القومية ، وهذا ما يقتضى البحث عنه وتدوينه ، ولكنى أرجأت هذا البحث حتى أستوفى تاريخ الحركة القومية فى العصر الحديث ، فلما أتممته بعون الله ، عاودتنى فكرة التأريخ للحركة القومية فى مصر الفرعونية ، فأخذت أعيد النظر فيما كنت أقرؤه عنها ، وأتعمق فى دراسة المسائل التى تتصل بها ، وأرجع إلى المصادر التى طالعتنى بها قراءاتى السابقة وأزيد عليها مشاهداتى اللاحقة ، وخلصت لى من ذلك كله صورة واضحة المعالم لهذا التاريخ ، أود أن أعرضها فى هذا الكتاب ، وإذا شاءت عناية الله فسأتبعها بصور أخرى للحركات القومية التى تعاقبت على البلاد حتى قبيل العصر الحديث .

* * *

والحركة القومية كما قصدتها وعنيتها ، هى الجهود التى بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة ، والذود عن كيانها ، والدفاع عن استقلالها ، والثورة على كل من يعتدى على هذا الاستقلال ، ومقاومته بكل ما أوتيت من حول وقوة .

والتاريخ القومى للأمة لا يستكمل مداه إلا إذا كان مدروسًا ومعروضًا على ضوء الحركة القومية ، فهى أساس وجودها ، ومبعث نهوضها وتطورها .

وإذ كان هذا هو جوهر الحركة القومية ، فأجدر بمصر القديمة أن يكون لها النصيب الأوفى والأول فى هذا التاريخ .

* * *

فلقد كانت أسبق الأمم إلى تحقيق استقلالها ، وتأسيس حكومة نظامية ترعى هذا الاستقلال وتضطلع بمقومات الحضارة منذ عصور متناهية فى القدم ولا غرو فتاريخها هو تاريخ الإنسانية .

ولقد حققت وحدتها القومية سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، حين استطاع الملك (مينا) أن يضم الوجهين البحرى والقبلى ، ويجعل منهما دولة موحدة كانت أعرق الوحدات القومية ظهورًا فى التاريخ .

ومن يومئذ تتابعت الأسرات الملكية فى ظل الوحدة ، وسارت بالبلاد قدما إلى الأمام ، ولم يسكت الشعب عن ضيم أصابه ، وظل طوال القرون يناضل عن استقلاله ، ويرد عنه كيد المعتدين والغاصبين ، وهذا أول ما عنيت بإبرازه فى صحائف هذا الكتاب .

يحصى المؤرخون الأسرات الملكية المصرية بثلاثين أسرة ، يقسمونها إلى ثلاثة عهود هى : الدولة القديمة ، تليها الدولة الوسطى ، ثم الدولة الحديثة ، وقد سرت على هذه التسمية فى إبراز الحوادث الهامة التى لها علاقة بالحركة القومية .

* * *

ففى أواخر عهد الأسرة السادسة من الدولة القديمة قامت ثورة اجتماعية شعبية ظهرت لها نتائجها وآثارها على تعاقب السنين .

وبسقوط الأسرة العاشرة بدأت الدولة الوسطى ، من الأسرة الحادية عشرة إلى السابعة عشرة ، ثم تلتها الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين .

وفى عهد الأسرة الثالثة عشرة رزئت البلاد بالغزو الهكسوسى الذى عصف باستقلالها ، واستمر يعبث به ردحًا من الزمن ، ثم لم تلبث مصر أن نهضت من كبوتها ، وخاضت معركة الحرية وطردت الهكسوس سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد على يد (أحمس) الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة .

* * *

وكان تحرير البلاد من الهكسوس قد غرس فى النفوس روح القومية ، وحفزها إلى غزو معاقلهم فى فلسطين وسورية ولبنان ، فشنت مصر عليهم وعلى حلفائهم فى عهد الدولة الحديثة حروبا دفاعية بقيادة (تحوتمس الثالث) بطل معركة « مجدو » سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد ، واستمرت هذه الحروب عدة سنين حتى اطمأنت مصر على كيانها ، ومن ثم اتسعت رقعتها ، فامتدت حدودها من أعالى الفرات شمالا إلى الشلال الرابع على النيل جنوبًا .

ثم ظهرت أطماع الدول المعادية لها ، وأخذوا ينتقصونها من أطرافها وينالون من وحدتها .. حين آنسوا منها ضعفا وانقساما فى جبهتها الداخلية ، فثبتت لهذه المحاولات ، وامتاز عهد رمسيس الثانى بحروبه الدفاعية فى سبيل حفظ كيان الدولة المصرية ، وسار على نهجه خلفاؤه .

وتجددت الأطماع . واستطاع الآشوريون أن يغيروا على مصر ويحتلوها .

ثم لم يلبث الشعب أن أجلاهم عنها فى عهد (أبسماتيك الأول) . وعادت لها حريتها واستقلالها .

* * *

وظلت على ذلك إلى أن نكبت سنة ٥٢٥ ق .م . بالغزو الفارسى . ولم يكن هذا الغزو الذى قاده قمبيز بمضيع كيان مصر ، أو مضعضع لمكانتها التى نالتها على تعاقب القرون ، فإذا قارنا هذا الغزو بما أصاب الإمبراطورية الرومانية حين استهدفت فى القرن الخامس بعد الميلاد لغزوات أقوام من الهمج انقضوا عليها فدمروها ودكوا معالمها ومزقوا أوصالها ، نجد أن مصر على العكس قد صمدت للغزو الفارسى واحتفظت بكيانها وطابعها القديم ، ولم تستسلم للمحتل المغير ، بل ثارت عليه المرة بعد المرة ، إلى أن جاء الإسكندر المقدونى يحارب الفرس ويصادق المصريين ، فهزم دولة الفرس وقوض أركانها واستولى على عاصمتها .

* * *

وهناك احتلالان ، قرأت فى بعض كتب المؤرخين أن مصر القديمة استهدفت لهما ، فقالوا عنها إنها خضعت يوما للحكم الليبى ، ويوما آخر للحكم الأثيوبى ، ولم يكن قولهم هذا قرين الحق والصواب ، فقد زعموا أن الأسرة الثانية والعشرين التى أسسها (شيشنق) فى القرن العاشر قبل الميلاد هى أسرة ليبية أجنبية حكمت البلاد زمنًا طويلاً ، والصحيح أن (شيشنق) هذا وإن كان من أصل ليبى ، ولكنه تمصر ومن قبله تمصر أسلافه منذ عدة قرون ، ومضت عليهم بعد أن تمصروا أجيال وأجيال ، فصاروا من صميم المصريين ، وقد كان حكم (شيشنق) مصريًا خالصًا لمصر أعاد إليها بعض ما كان لها من عز وسؤدد ، واحتل فلسطين واستولى على أورشليم (بيت المقدس) ، واستخلصها من اليهود ، واستردت البلاد بفضل حملاته الموفقة نفوذها فى آسيا ، وورد اسمه فى التوراة لمناسبة حروبه مع الإسرائيليين .

وقال بعض المؤرخين أن (بيعنخى) أسس فى القرن الثامن قبل الميلاد الأسرة الخامسة والعشرين ، ووصفوه ووصفوا أسرته بالإثيوبيين وزعموا إن إثيوبيا حكمت مصر فى عهدهم .

والحق أن (بيعنخى) هو من النوبة لا من أثيوبيا وأصل أسرته من كهنة طيبة الذين هاجروا إلى الجنوب ، والنوبة جزء لا يتجزأ من مصر ، وفيها الآثار الخالدة للفراعنة ، التى يتحدث عنها العالم المتحضر كل حين ، فهم إذن من صميم المصريين ، فلا هم إثيوبيون ، ولا النوبة من إثيوبيا ، وأسرتهم مصرية لا شك فى مصريتها ، والقول بأن إثيوبيا حكمت مصر يومًا يتعارض مع الحقائق التاريخية والجغرافية ، وإطلاق اسم إثيوبيا على النوبة هو خطأ انساق إليه بعض الرحالة الإغريق .

* * *

ولئن كان الحديث عن مصر القديمة أو مصر الفرعونية ينتهى على أرجح الآراء بالغزو الفارسى . فتاريخ مصر الخالدة يقتضى أن استطرد إلى ذكر الثورات المصرية التى شبت فى وجه الفرس ، ثم استمرار هذه الثورات فى عهد البطالمة ، ثم فى عهد الرومان ، إلى أن حررها الفتح العربى من الاحتلال الرومانى سنة ٦٤١م . (١٨هـ) وبه ينتهى هذا الكتاب .

وأرى من واجبى أن أنوه بفضل العلماء المصريين والأجانب الذين سبقونى إلى الكتابة فى تاريخ مصر القديمة ، وقد ذكرت بعض مؤلفاتهم فى مراجع البحث اعترافًا بفضلهم وتقديرًا

للجهود التى بذلوها لإنارة السبيل لمن يجيئون بعدهم ، وإذا كان الموضوع الذى عالجته مقصورا على تاريخ الحركة القومية ، فإن ما كتبوه واستقصوه كان شاملا لكل نواحى التاريخ ، فلهم الفضل أولا وآخرا .

هذه نظرة عامة على الكتاب ، قصدت منها التعريف به إجمالا ، وسيجد القارئ فى فصوله توضيحا لما أجملت ، وتفصيلا لما أوجزت .

والله ولى الهداية والتوفيق .

مايو سنة ١٩٦٣م

عبد الرحمن الرافعى

سلسلة تاريخ الحركة القومية فى العصر الحديث

نذكر هنا خلاصة مباحث المجلدات الستة عشرة التى ظهرت فى تاريخ الحركة القومية

تاريخ الحركة القومية
الجزء الأول

ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث والمقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد

الجزء الثانى

من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ومن جلاء الفرنسيين إلى ولاية محمد على

عصر محمد على

تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على

عصر إسماعيل

تاريخ مصر القومى فى عهد خلفاء محمد على

الجزء الأول

الجزء الثانى

الفصل الخامس عشر : الحالة المالية والاقتصادية
الفصل السادس عشر : الحالة الاجتماعية
الفصل السابع عشر : شخصية الخديو إسماعيل

الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى

الفصل الأول : حالة مصر فى أوائل حكم الخديو توفيق
الفصل الثانى : مقدمات الثورة العرابية وأسبابها
الفصل الثالث : بدء الثورة : واقعة قصر النيل
الفصل الرابع : أوج الثورة : واقعة عابدين
الفصل الخامس : وزارة شريف باشا
الفصل السادس : إنشاء مجلس النواب
الفصل السابع : أزمة يناير سنة ١٨٨٢
الفصل الثامن : وزارة البارودى
الفصل التاسع : دستور سنة ١٨٨٢
الفصل العاشر : أعمال مجلس النواب
الفصل الحادى عشر : ظهور الفتن بعد انفضاض مجلس النواب
الفصل الثانى عشر : مذبحة الإسكندرية
الفصل الثالث عشر : مؤتمر الآستانة
الفصل الرابع عشر : ضرب الإسكندرية
الفصل الخامس عشر : القتال والمعارك فى الحرب العرابية
الفصل السادس عشر : التسليم
الفصل السابع عشر : محاكمة العرابيين
الفصل الثامن عشر : شخصيات زعماء الثورة
الفصل التاسع عشر : لماذا أخفقت الثورة العرابية ؟

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢)

الفصل الأول : سياسة انجلترا فى السنوات الأولى للاحتلال
الفصل الثانى : إلغاء الرقابة الثنائية وتعيين مستشار مالى بريطانى
الفصل الثالث : إلغاء مجلس النواب
الفصل الرابع : إنشاء المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣

الفصل الخامس : اتفاق لندن لتسوية شئون مصر المالية سنة ١٨٨٥
الفصل السادس : مفاوضات درومند ولف بشأن الجلاء سنة ١٨٨٥ – ١٨٨٧
الفصل السابع : مسألة قناة السويس ومعاهدة الآستانة سنة ١٨٨٨
الفصل الثامن : مسألة السودان واستقالة شريف باشا
الفصل التاسع : إخلاء السودان ووزارة نوبار
الفصل العاشر : اقتسام أملاك مصر فى السودان
الفصل الحادى عشر : مصر والاحتلال إلى انتهاء حكم الخديو توفيق
الفصل الثانى عشر : النتائج العامة للاحتلال الأجنبى
الفصل الثالث عشر : وثائق تاريخية

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨)

الفصل الأول : نشأة الفقيد والعصر الذى ظهر فيه
الفصل الثانى : المرحلة الأولى من الجهاد
الفصل الثالث : المرحلة الثانية من الجهاد
الفصل الرابع : جهاده سنة ١٨٩٥
الفصل الخامس : جهاده سنة ١٨٩٦
الفصل السادس : جهاده سنة ١٨٩٧
الفصل السابع : حادثة فاشودة وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨
الفصل الثامن : جهاده سنة ١٨٩٩
الفصل التاسع : ظهور اللواء سنة ١٩٠٠ والجهاد الأكبر
الفصل العاشر : الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤
الفصل الحادى عشر : نادى المدارس العليا وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦
الفصل الثانى عشر : حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦
الفصل الثالث عشر : جهاد الفقيد عام سنة ١٩٠٧
الفصل الرابع عشر : تأسيس الحزب الوطنى – حزب الجلاء
الفصل الخامس عشر : القضاء المحتوم سنة ١٩٠٨
الفصل السادس عشر : الخديو عباس حلمى الثانى
الفصل السابع عشر : مصطفى كامل والخديو عباس الثانى
الفصل الثامن عشر : مصطفى كامل وتركيا
الفصل التاسع عشر : مجلس شورى القوانين

الفصل العشرون : مصطفى كامل ومعاصروه
الفصل الحادى والعشرون : شخصية الزعيم
الفصل الثانى والعشرون : نماذج من خطب الفقيد

محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩)

الفصل الأول : نشأة الفقيد العائلية الوطنية
الفصل الثانى : المرحلة الأولى من الجهاد
الفصل الثالث : المرحلة الثانية من جهاده
الفصل الرابع : جهاد الفقيد سنة ١٩٠٩
الفصل الخامس : جهاد الفقيد سنة ١٩١٠
الفصل السادس : مؤتمر بروكسل سنة ١٩١٠
الفصل السابع : محاكمة الزعيم وجهاده سنة ١٩١١
الفصل الثامن : جهاد الزعيم عام سنة ١٩١٢
الفصل التاسع : الزعيم فى منفاه
الفصل العاشر : نادى المدارس العليا والحركة التعاونية
الفصل الحادى عشر : جهاد الفقيد سنة ١٩١٣ وتطور الحياة النيابية
الفصل الثانى عشر : جهاد الفقيد سنة ١٩١٤
الفصل الثالث عشر : جهاد الفقيد اثناء الحرب العظمى الأولى
الفصل الرابع عشر : مرضه ووفاته
الفصل الخامس عشر : رثاء الزعيم وحفلات التأبين
الفصل السادس عشر : صلتى بالفقيد
الفصل السابع عشر : شخصية الزعيم

ثورة سنة ١٩١٩

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١)

الجزء الأول

الفصل الأول : مصر فى أثناء الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨
الفصل الثانى : أسباب الثورة
الفصل الثالث : تأليف الوفد المصرى وتطور الحوادث

الفصل الرابع : مقدمات الثورة
الفصل الخامس : الثورة
الفصل السادس : الثورة فى الأقاليم
الفصل السابع : ذكرياتى عن الثورة
الفصل الثامن : مواجهة الثورة

الجزء الثانى

الفصل التاسع : مهادنة الثورة
الفصل العاشر : استمرار الثورة
الفصل الحادى عشر : محاكمات الثورة
الفصل الثانى عشر : لجنة ملنر والحوادث التى لابستها
الفصل الثالث عشر : مفاوضات ملنر
الفصل الرابع عشر : استشارة الأمة فى مشروع ملنر
الفصل الخامس عشر : التبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية
الفصل السادس عشر : هل نجحت الثورة ؟ وفيم نجحت ؟

فى أعقاب الثورة

الجزء الأول

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٧)

الفصل الأول : الانقسام الداخلى سنة ١٩٢١
الفصل الثانى : الموقف السياسى بعد قطع مفاوضات عدلى
الفصل الثالث : تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢
الفصل الرابع : وزارة ثروت سنة ١٩٢٢
الفصل الخامس : مصر فى مؤتمر لوزان ١٩٢٢ - ١٩٢٣
الفصل السادس : وزارة محمد توفيق نسيم
الفصل السابع : دستور سنة ١٩٢٣
الفصل الثامن : الانتخابات العامة والبرلمان الأول سنة ١٩٢٤
الفصل التاسع : وزارة سعد زغلول
الفصل العاشر : وزارة زيور والانقلاب الأول
الفصل الحادى عشر : اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه وعودة الحياة الدستورية

الجزء الثانى

(تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك أحمد فؤاد سنة ١٩٣٦)

الجزء الثالث

(تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١)

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

الفصل الأول

الوحدة القومية والدولة القديمة

تم على يد الملك (مينا) توحيد الوجه القبلى والوجه البحرى وجعلهما دولة واحدة ، وهذا العمل الجليل هو أساس الحركة القومية ونواتها ؛ والغرض منه هو وحدة الوطن .

حدث هذا التوحيد حوالى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، فتأسست بذلك الدولة المصرية الموحدة . وكان (مينا) أول من حكم أرض مصر مجتمعة . وهو أول ملوك الأسرة الأولى[١] .

كانت مصر قبل الوحدة مؤلفة من عدة ولايات أو أقاليم صغيرة ،يحكم كلاً منها أمير مستقل ، ثم تكونت منها مملكتان إحداهما تشمل الوجه البحرى (أو مصر السفلى) ؛ والثانية تشمل الوجه القبلى (أو مصر العليا) .

وكان (مينا) من ملوك الوجه القبلى ؛ نشأ فى مدينة (طينة) – تينيس – بالقرب من العرابة المدفونة[٢] بجوار جرجا .

وكان رجلا عظيما ، يجمع بين الكفاية الحربية والمقدرة السياسية فاستطاع أن يخضع الوجه القبلى لحكمه ، ثم تمكن من غزو الوجه البحرى ، وضمه إلى ملكه ، وألف من الوجهين القبلى والبحرى دولة مصرية عظيمة ، كان هو أول الفراعنة الجالسين على عرشها . واتخذ (طينة) عاصمة لها ، وكانت القوة سندًا له فى هذا العمل القومى المجيد .

ولا يغض من الوحدة أن القوة كانت سبيلها . فإن معظم الوحدات الهامة فى التاريخ كان عمادها القوة ، وكان الإرغام سبيلها إلى التقدم والعظمة ، ولولا تأليف هذه الوحدات لظلت الأمم التى اتحدت فريسة الطامعين والمستعمرين .

فالوحدة الألمانية قد تألفت بقوة بروسيا ، والوحدة الإيطالية تمت أولا بقوة البيمونت ، ووحدة الولايات المتحدة الأمريكية قد تدخلت فيها القوة لدوامها واستقرارها ، إذ نشب القتال فعلا بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فى القرن التاسع عشر بعد الميلاد ، وأرادت الولايات الجنوبية أن تنفصل عن الشمالية ، فلم تقبل الولايات الشمالية هذا الانفصال ، وفى سبيل الوحدة حاربت الولايات الجنوبية حربا استمرت أربع سنوات ، من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥ ميلادية ،

---

(١) كانت هناك وحدة سابقة لم تدم طويلا . والوحدة التى تألفت سنة ٣٢٠٠ ق . م . هى التى استقرت واستمرت .

(٢) الآن بمركز البلينا مديرية جرجا . والعرابة المدفونة هى ما يسميه المؤرخون اليونانيون (أبيدوس) .

وانتهت بانتصار الولايات الشمالية على الجنوبية ، وبذلك استقرت وحدة الولايات المتحدة الأمريكية ، فالقوة كان لها الفضل الأكبر فى بقاء هذه الوحدة .

ولقد أحرز (مينا) شرف توحيد الدولة وتشييد دعائم القومية المصرية ، ولولا هذا التوحيد لظلت مصر مفككة الأجزاء ، يحارب بعضها بعضًا ، ويطمع فيها الأقوياء .

كان هذا الحادث عملا قوميًا رائعًا ، جعل من مصر دولة موحدة متماسكة مرهوبة الجانب ، تسير بالبلاد فى سبيل التقدم والحضارة والمتعة .

ولا يقلّ هذا التوحيد شأنًا عن الوحدات التى تمت فى التاريخ الحديث . كالوحدة الألمانية ، أو الوحدة الإيطالية ، أو الوحدة الأمريكية (الولايات المتحدة) .

كانت هذه الوحدة هى البداية الحقيقية للأسرات الملكية التى صارت عنوانا لمصر القديمة وتاريخها المجيد .

وقد أحصى المؤرخ المصرى مانيتون[1] هذه الأسرات بثلاثين أسرة .

والأسرة الأولى - أسرة (مينا) وخلفائه - هى أول أسرة حكمت مصر مجتمعة موحدة .

تأسيس مدينة منف

تولى (مينا) شئون الدولة الموحدة ، وأدارها إدارة حكيمة حازمة وظلت تينيس (طينة) عاصمة الدولة الموحدة .

على أنه أراد أن يقترب من الوجه البحرى ليكفل الإشراف عليه وحسن إدارته ، فأنشأ مدينة منف[2] أو منفيس كما يسميها اليونانيون .

وبدأ بإقامة قلعة اشتهرت باسم (القلعة البيضاء) ، التى صارت نواة للمدينة التاريخية العظيمة التى عرفت باسم (منف) ، واتخذها مركزًا لإدارة الدلتا ، وموقعًا حربيًا هامًا .

وفى سبيل إنشائها أقام جسورًا لتجفيف بعض المناطق التى كان يغمرها الفيضان شرقى موقعها ، وكان النيل يجرى لجهة الصحراء الغربية ، وتخلف عن هذا العمل فضاء واسع ، أنشأ به المدينة الجديدة ، وأقام حولها جسرًا هو المعروف الآن بجسر « قشيشه » .

(١) مانيتون Manethon كاهن مصرى وعالم مؤرخ من سمنود . وقد كلفه بطليموس الثانى بكتابة تاريخ مصر القديمة ، فكتبه باللغة اليونانية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد فقد هذا المرجع الهام ضمن حريق مكتبة الإسكندرية سنة ٤٨ ق . م . ولم يبق منه إلا شذرات اقتطفها بعض المؤرخين القدماء من اليونانيين واليهود . هذا ، ويجب استبعاد الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من إحصاء مانيتون ، لأنهما من الهكسوس ، أى إنهما أسرتان غاصبتان تمثلان الاستعمار البغيض (انظر الفصل الرابع) .
ويجب أيضًا استبعاد الأسرة الحادية والثلاثين (قمبيز وخلفائه) لأنها تمثل الاحتلال الفارسى .

(٢) البدرشين وميت رهينة .

ولا ريب أن إقامة الجسور على مجرى النيل يدل على مبلغ تقدم المصريين فى العلوم الهندسية .

يقول المؤرخ برستد Breasted : إن الفضل فى رقى القطر المصرى فى عهد الأسرات الأولى ، الذى يقدر بحوالى أربعة قرون ، يرجع إلى ضم سائر جهاته تحت حكم الملك (مينا) وسلالته ، الذين اتخذوا مركزهم فى بادئ الأمر بمدينة (طينة) ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى منف - منفيس - وارتقت فى هذه المدة حضارة البلاد ، وزاد عمرانها ، وقوى نفوذها ، فسمى الأثريون هذا العهد (الدولة القديمة) . وصارت مدينة (منف) عاصمة البلاد فى عهد ملوك الأسرات الثالثة إلى السادسة الذين تربعوا فى دست الحكم قرابة خمسة قرون سنة ٢٩٨٠ إلى سنة ٢٤٧٥ قبل الميلاد تقريبًا[1] .

ويقول الدكتور أحمد بدوى عن تطور حياة مصر وسياستها بعد الوحدة : أخذت النظم السياسية تتطور منذ أيام الاتحاد ، فهى قد كانت مقبولة على التطور مدفوعة إليه دفعًا قويًا ، وأخذت قوة السلطان الجديد التى أقامت راية الاتحاد ورفعتها تجمع فى يدى صاحبها عنصرين أساسيين من عناصر النظام والسياسة والإدارة التى كانت تتبع فى قطرى الوادى ، (الوجه البحرى والوجه القبلى) قبل أيام الاتحاد ، وماندرى ماذا قدّر (مينا) وأصحابه من تطور لأنظمة هذه المملكة المتحدة ، فهم كانوا أصحاب الغلبة وأرباب النصر والسلطان ، ومن حق الغالب أن يأخذ المغلوب بنظامه وأن يفرض سلطانه عليه فرضًا ، ولكن (مينا) وأصحابه فيما يظهر ، قد رأوا عند أهل الشمال (الوجه البحرى) من مظاهر الحضارة ومن النظم السياسية المستقرّة ماأعجبهم فأبقوا عليه وأخذوا بها وأقروها ، ولعلهم قدروا أيضًا ماقد يكون لعملهم هذا من أثر فى إرضاء خواطر المغلوبين ، وتطييب نفوسهم مماينسيهم مرارة الهزيمة وذلّ الانكسار ، فجمعت راية الاتحاد دولتين عظيمتين إحداهما فى الجنوب والأخرى فى الشمال ، وأخذت الأمور تجرى بكل من الدولتين على سنتها الخاصة ومنهاجها القديم ، فنظام للجنوب ، ونظام للشمال ، وإدارة للجنوب وإدارة للشمال ، ووزير للجنوب ، ووزير للشمال ، وسلطان واحد فوق هذا كله يدبر الأمر من القصر فيشقى بذلك كله ، ويعالج مشاكله ويعانى متاعبه وربما يلقى من ذلك ألوانا من العنت والمشقة »[2] .

الحضارة المصرية قبل الوحدة

إن الحضارة المصرية أسبق من الوحدة ، وكانت ولا ريب من أسبابها الممهدة لها ، وجاءت الوحدة تثبيتًا لها ، وتوسيقًا لآفاقها .

(١) برستد - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الغزو الفارسى ص ٨ .
Breasted - A history of Egypt from the earlist times to the persian conquest.
تعريب الدكتور حسن كمال . ورقم الصفحة يشير إلى التعريب .

(٢) أحمد بدوى : فى موكب الشمس (فى تاريخ مصر الفرعونية) جـ ١ ص ١٢٣ .

بدأت الحضارة الإنسانية فى وادى النيل ، نشأت على ضفافه منذ عصور متناهية فى القدم ، ولا سبيل إلى تحقيق الزمن الذى بدأت فيه .

وأقرب الآراء إلى التقدير الوسط أنها ترجع إلى حوالى سبعة آلاف سنة قبل الميلاد .

وهى على أى تقدير سابقة على الوحدة ، وسابقة على عهد الأسرات الملكية الذى جاء نتيجة مباشرة لرقى وتقدم تدريجى فى حضارة الزمن السابق .

دخلت الحضارة مصر بجريان النيل فيها ، فهى وليدة النيل ، وهو مصدر الحياة والخير لها ، والماء الذى يتدفق منه كل عام فى أوقات معلومة يجلب معه الرخاء والرفاهية ، ويغرس فيها أصول الحضارة ، وما يحويه من الطمى يهب الأرض خصوبة وإنتاجا ، ولقد استشعر المصريون من قديم الأزل أن لابد لهم من حكومة ونظام للرى والأمن ، يسهران على الاستفادة من مياه النيل بشق الترع والقنوات ، وتقوية جسور النيل وإنشاء السدود ، وحفظ الأمن ، وتوزيع الماء بين الناس بالعدل والقسطاس ، وابتكار هندسة الرى من أقدم العصور ، وخاصة لأن مصر لا تعيش على الأمطار ولا تعتمد فى حياتها المعاشية والاقتصادية إلا على النيل ، فشعور المصريين بأنهم فى حاجة إلى حياة متقدمة منظمة جعلهم أسبق الأمم إلى إيجاد مقومات الحضارة فى بلادهم ، هذا إلى ما طبعوا عليه من المواهب الفطرية ، والاعتدال فى المزاج ، وحب الوطن ، والدفاع عنه ، والميل إلى التقدم فى أسباب المعيشة ، والبعد عن حياة الهمجية والضراوة . ولذلك مارس المصريون القدماء قبل عهد الأسرات الملكية مبادئ الحضارة ، كالزراعة والصناعة واستخراج المعادن وقطع الأحجار ، والملاحة والتجارة ، وبناء السفن ، والآداب والفنون ، وما إلى ذلك .

ومن ناحية أخرى فإن طبيعة مصر الجغرافية ، وانحصار الوادى المسكون بين صحراوين كبيرتين جعل أهلها أقرب إلى التعاون والتضامن على تنظيم شئونهم .

وهذه النواحى كلها كان لها أثرها فى سبقها الأمم الأخرى إلى الحضارة والتنظيم .

المصريون أول من اكتشفوا التقويم السنوى

يقول العلامة برستد Breasted فى عرض الحديث عن العصر السابق للوحدة : إن مملكة الوجه البحرى امتازت على الوجه القبلى بسرعة تقدمها فى الحضارة ؛ وقد اهتدت فى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد أن السنة الشمسية تتكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما ، وهذا التاريخ – أى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد – هو أقدم تاريخ ثابت معروف للآن على ظهر البسيطة(١) .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٧ – وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى أنى سأنقل كثيرًا عن برستد وغيره من المؤرخين الأجانب ما نقله عن المؤرخين المصريين ، مما يبرز فضل مصر ، لأن آراءهم أبعد عن مظنة الميل أو الانحياز وأقرب إلى الحيدة فى الحكم . وهى بالتالى أدعى إلى تأييد المؤرخين المصريين فى آرائهم وأحكامهم .

ويقول توضيحًا لذلك : إن سكان الوجه البحرى تنبهوا فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد(١) إلى أن السنة الشمسية تتكون من ثلثمائة وخمسة وستين يوما ، وأرّخوا مبتدئين بالسنة التى ظهر فيها نجم الشعرى اليمانية مع شروق الشمس ، ودلت المباحث الفلكية على أن هذا الحادث حصل حوالى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد ، ويعتبر هذا الكشف الميقاتى واستعماله فى الشئون الدنيوية خطوة كبيرة نحو الرقى ، وشرفًا عظيما للوطن الذى كشف فيه ، ولم تستكشف دولة من دول العالم منذ أقدم الأزمنة حتى مبدأ العصر الأوربى المتوسط توقيتًا سنويًا مثله ، وأن يوليوس قيصر عاهل الرومان هو أول من أدخل التوقيت المصرى امبراطوريته ، ثم عم استعماله العالم ، ومن ذلك يتضح أن استعمال التوقيت المصرى عمر مدة ستة آلاف سنة تقريبًا ، وأن الفضل فى ذلك يرجع إلى سكان الوجه البحرى الذين عاشوا فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد(٢) .

ويقول عن الحضارة المصرية عامة : لا يخفى أن العالم الغربى مدين بكثير من علومه وآدابه إلى أهالى وادى النيل ، كيف لا وهم الذين زودوا أوروبا الجنوبية بالمدنية والمعارف ، فأخذت هذه تنتشر شمالا متبعة سير النيل إلى أقاليم البحر الأبيض المتوسط(٣) .

وأول من اكتشفوا القراءة والكتابة

ويقول برستد أيضًا : « وزيادة على ما بلغه هؤلاء القدماء من مبادئ المدنية والرقى فإنهم نجحوا فى اختراع الكتابة والقراءة ، واستدل من المباحث التى عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية على أن قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، وأن كتّاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحرى ، وبعض ملوك الوجه القبلى ، من الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل حكم الأسرات ، ودليلنا على ذلك أن الخط الهيراطيقى كان مستعملا فى مبدأ الأسرة الأولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيروغليفى » .

وقال فى موضع آخر : « والفضل فى كشف حروف الهجاء يرجع إلى قدماء المصريين الذين توصلوا إلى معرفتها منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة قبل سائر الأمم »(٤) .

ويقول جون ويلسن John Wilson : إن الكتابة قد ظهرت فى مصر فى فترة الانتقال بين عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخى ، وأن الكتابة الهيروغليفية فى مصر ظهرت على الحجر وعلى

(١) أى قبل قيام الأسرة الأولى بنحو ألف سنة .

(٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٢١ .

(٣) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٧ .

(٤) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٨ .

الطين ، وقد استكملت نظام جمع الكلمتين لاستعمال نطقها فى كلمة واحدة ، ولكن جمع الصور التى وجدت طريقها إلى الكتابة الهيروغليفية كانت كلها صورًا مصرية بحتة[1] .

الأسرتان الأولى والثانية

(سنة ٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ قبل الميلاد)

قلنا إن الملك (مينا) وحد الوجه البحرى ، والوجه القبلى سنة ٣٢٠٠ ق . م . فهو أول من أسس الوحدة القومية ، وأسس الأولى ، وقد استمر ملوك الأسرة الأولى نحو ٢٠٠ سنة (من ٣٢٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق . م .) .

والأسرة الثانية حكمت نحو ٢٠٠ سنة أيضًا (من ٣٠٠٠ إلى ٢٧٨٠ ق . م) وكانت طينة (تينيس) عاصمة الدولة فى عهد هاتين الأسرتين .

وليس معروفًا على وجه التحقيق لماذا خلفت الأسرة الثانية الأسرة الأولى .

وليس معروفًا أيضًا إذا كانت هناك صلة بين الأسرتين .

وقد اقتصر المؤرخون على إيراد أسماء الملوك كما ذكرها مانيتون ، وما ورد فى الآثار المصرية .

واقترنت مدة حكم هاتين الأسرتين بنمو مطرد فى قوة الدولة وحضارة مصر .

ونظم ملوك الأسرتين الحكم ورتبوا السلطات المركزية ، ونشطوا الزراعة والتجارة والملاحة والمراعى ، ورقوا فن الكتابة ، ونهضوا بالصناعة وبالنحت ، وعمارة البناء والهندسة والعلوم عامة .

وظلت الوحدة القومية رائدهم فى سياسة المواطنين .

يقول برستد فى هذا الصدد : « أسس الفراعنة الطينيون (نسبة إلى طينة) بناء المملكة المصرية ، ورقوا أخلاقها ومدنيتها ، ورغما عن قلة آثارهم فإن أعمال ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة كافية لإثبات ما بلغته حالة البلاد الاقتصادية من العظم والقوة مدة حكمهم »[2] .

الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠ - ٢٦٨٠ قبل الميلاد)

إتخذ الملوك فى عهد الأسرة الثالثة مدينة « منف » عاصمة لهم .

وفى مدة خمسة قرون تقريبًا من الأسرة الثالثة إلى الثامنة كانت (منف) عاصمة المملكة .

---

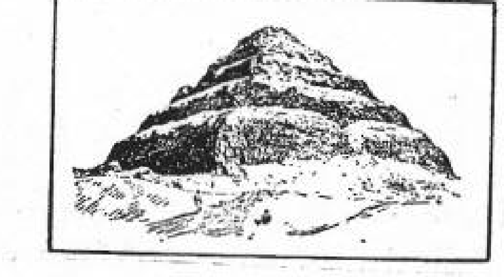
(١) تاريخ الحضارة المصرية لجون ويلسن John Wilson The burden of Egypt.
تعريف د أحمد فخرى ص٨٦ .

(٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور المرجع السابق ص ٣٢ .

زوسر

ومؤسس الأسرة الثالثة هو (زوسر) .

وقد بنى هرم صقارة المدرّج ومساحته مع ملحقاته ٤٥٠ مترًا × ٣٧٠ مترًا ويقول عنه الدكتور أحمد بدوى : ولو لم يكن لمصر يومئذ من مظاهر الحضارة غير عمارة الهرم المدرج وما أخرجت يد البناء فيها من روائع الفن لكفى ، فهى أكبر بناء حجرى عرفه تاريخ الإنسانية فى ذلك الوقت »[1] وقد صحب انتقال الحكم من (طينة) إلى منف تقدم تدريجى فى الحضارة ، وتحسين مطرد فى أحوال البلاد طوال حكم الأسرات المنفية الذى دام حوالى خمسمائة عام .



هرم زوسر المدرج بسقارة

بذل الملك (زوسر) جهودًا موفقة لحماية البلاد من غارات البدو ممن حدثتهم أنفسهم بالتسلل من الحدود الشرقية والجنوبية لمصر ؛ وأنشأ لمصر قوة حربية يعتمد عليها فى صد الغارات الخارجية .

وضم إليها جزءًا من النوبة .

وعنى باستخراج النحاس والفيروز من سيناء .

إيمحوتب IMHOTEP

أبو الطب فى مصر والعالم

وكان لزوسر وزير حكيم يدعى (إيمحوتب) عاونه على نهضة البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، وكان إيمحوتب هذا مهندسًا معماريا من الطراز الأول ، ونبغ فى الطب وألف فيه ، كما ألف فى الحكمة .

وقد عرف (زوسر) قدر وزيره فكرمه ، بأن نقش اسمه على تماثيله ، وهو تكريم ، لم يسبق

---

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس جـ ١ ص ١٣٥ .

للك أن كرم أحدا بمثله ، وكرمه المصريون بأن خلدوا اسمه ، وهو أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر يشيد قبرًا يشبه الهرم فى شكله العام[1] ، وهو الذى بنى لزوسر هرمه المدرج .

وقد ذكره المؤرخ المصرى مانيتون وقال عنه إنه عاش فى عهد زوسر وإن الإغريق يعتقدون أنه شبيه باسكليبيسوس إله الطب عندهم لمهارته فى الطب ، وأنه كان يقبل إقبالا كبيرًا على التأليف .

وكان إيمحوتب فردًا من أفراد الشعب ، ولم تكن له صلة عائلية بالأسرات المالكة ، بل ميزه نبوغه وعبقريته ونشأته الشعبية ، فتبوأ مكانًا رفيعًا فى التاريخ المصرى ، وهو جدير بأن يلقب بأبى الطب فى مصر والعالم ، لأنه سبق أبقراط بعدة قرون[2] .

ومما قاله عنه برستد : إن الفضل فى نجاح سياسة زوسر يرجع إلى حكمة ودهاء وزيره (إيمحوتب) الذى برع فى الدين ، وفى الطب والعمارة ، حتى ترك له اسمًا خالدًا فى التاريخ المصرى على مدى العصور ، ثم اتخذه الكتاب المصريون مثالا يحتذونه فى حياتهم العلمية ، فصبوا مداد محابرهم تيمنًا بذكره قبل البدء بأعمالهم الكتابية ، وترنم الناس بأمثاله فى مدى قرون عدة ، وعلت منزلته وعظمت ، فاعتبر فى آخر التاريخ القديم إله الطب[3] .

وقد ثبت فى بردية إدوين سميث التى تعد أقدم رسالة علمية فى الجراحة ، مدى اهتمام المصريين القدماء بالطب فى عصر بُناة الأهرام ، وكذلك علمهم بالتشريح[4] .

الأسرة الرابعة – بُناة الأهرام
(٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ قبل الميلاد)

من الحق أن ندرج (زوسر) ضمن بُناة الأهرام ، فقد بنى هرمه المدرّج كما أسلفنا .

ثم جاءت الأسرة الرابعة وكانت مدة حكمها نحو مائة سنة ، تذكر هنا أهم ملوكها وهم :

سنفرو SENEFROU

هو مؤسس الأسرة الرابعة وأول ملوكها .

كان ملكًا كبير الهمة ، وله أعمال عمرانية عظيمة ، فقد واصل استخراج النحاس والفيروز من شبه جزيرة سيناء ، ووطد سلطة مصر فى تلك الناحية حتى اعتبر فى العصور التالية المؤسس الأكبر للنفوذ المصرى بسيناء . وسمى باسمه أحد مناجم تلك الجهة .

---

(١) أحمد فخرى – مصر الفرعونية – ص ٩٢ .

(٢) عاش أبقراط فى القرن الخامس ق .م .

(٣) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٧٤ .

(٤) متنوعات :للدكتور محمد كامل حسين .

وبعد أن مضى على وفاته ما ينيف على ألف سنة افتخر الملوك المصريون بأن مشروعاتهم بسيناء ، فاقت كل مشروعات عملت هناك منذ عهد الملك سنفرو ، قام بتحصين حدود مصر الشرقية ، وعمل على توسيع المعاملات التجارية بين مصر وشواطئ سورية ولبنان ، وسار بحملة منظمة إلى بلاد النوبة وعاد منها بمغانم كثيرة ، وبدأت العلاقات بين القطرين (مصر والنوبة) تأخذ مظهرًا جديدًا ، إذ بدأ المصريون يرسلون منتجاتهم دون عائق إلى النوبة ، كما أخذ ملوك مصر يستغلون المحاجر فيها .

عُنى بإنشاء أسطول بحرى لمصر .

وأرسل بعثة من أربعين سفينة إلى سواحل لبنان لاستيراد أخشاب الأرز من هناك ، وبنى من هذه الأخشاب سفنًا كثيرةً استعمل بعضها فى النيل وبعضها الآخر فى البحر ، واستخدمت هذه الأخشاب أيضًا فى مبانى المعابد والقصور وصنع الأثاث الفاخر والتوابيت .

وفى عهد أسرة (سنفرو) أنشئت إدارة لبناء السفن كانت تشرف على تشييدها .

وقد بنى (سنفرو) هرمين له فى دهشور ، وهما من أقدم الأهرام المعروفة حتى الآن .

وكان ملكا عادلا محبوبا من الأهلين ، ودام حكمه أربعا وعشرين سنة .

خوفـو

هو أحد أبناء سنفرو[1] (خلافا لما جاء فى برستد) .

وقد خلد ذكره بالهرم والأكبر الذى يعرف باسمه (هرم خوفو) والذى شيّده على هضبة الجيزة .

وهو أكبر وأضخم الأهرام الموجودة فى مصر ، يبلغ ارتفاعه ١٤٦ مترا ونصف متر ، أما قاعدته فمربعة الشكل ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها نحو ٢٣٠ مترا ، وعدد أحجاره نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ حجر ، وزن كل منها فى المتوسط ٢,٥ طن ، أى أن مقدار وزن الهرم يبلغ نحو ستة ملايين طن .

وكان العدد الكبير من المصريين يعملون فى بناء الهرم ، ويشتغلون فى بنائه طول مدة الفيضان ، أى حين خلوهم من أعمال الزراعة فى فترة فيضان النيل .

وقد كتب علماء الآثار كثيرًا عن هذا الهرم وعن الأهرام الأخرى .

والهرم الأكبر هو موضع إعجاب الدنيا وحديث الناس فى شتى الأقطار ، يقصدونه كل حين لمشاهدة ضخامته وعظمته الباقية على الزمن ،رغم انقضاء نحو خمسة آلاف سنة على تشييده .

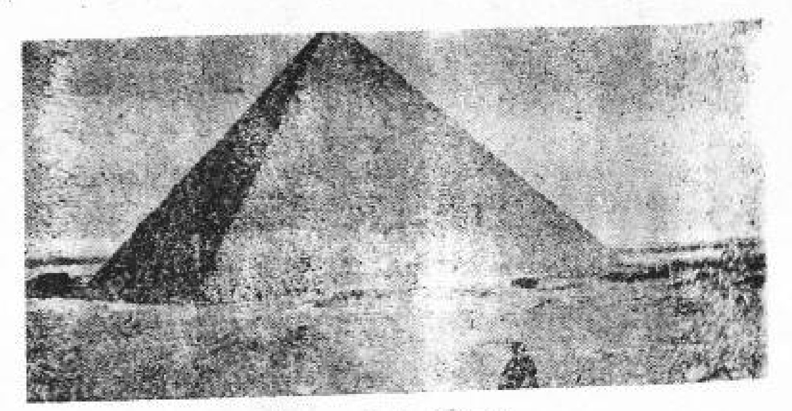
وكل من يأتون إلى مصر من الأجانب سواء من العلماء ، أومن الأشخاص العاديين ، يقصدون الهرم الأكبر والأهرام الأخرى لمشاهدتها ، ويتملكهم الإعجاب بها وتروعهم عظمة من شيدوها .

---

(١) أحمد فخرى – مصر الفرعونية ص ١٠٧ .



خوفو – بانى الهرم الأكبر



الهرم الأكبر بالجيزة (هرم خوفو)

وحسبك أن هذه الأهرام – أهرام الجيزة – اعتبرت منذ العهد الإغريقى ضمن عجائب الدنيا السبع ، أما الآن فهى البقية الباقية من هذه العجائب ، وهى أعظم مجموعة أثرية ، وأقدم المبانى العظيمة فى العالم ، ومفخرة خالدة لمصر مدى التاريخ .

ومهما قيل عن الأهرام من أنها تدل على أنانية الملوك الذين شيدوها لتكون مقابر لهم ، واستبدادهم بالأهلين فى إقامتها ، فإنها ولا ريب رمز لتقدم الحضارة فى ذلك العصر ،ودليل خالد على ما وصل إليه المصريون من المكانة الرفيعة فى العلوم والفنون ، وخاصة العلوم الهندسية والرياضيات ، وضبط الزوايا والأبعاد ، والنحت ، والنقش والتصوير ، وفن العمارة وضخامة البناء وروعته .

وقد ذكر المؤرخ اليونانى (هيرودوت) حين زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أن بناء الأجزاء السفلى من الهرم الأكبر ، والممرات الصاعدة قد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه قد استغرق عشرين عامًا ، ومعنى ذلك أن تشييد الهرم بجميع أجزائه قد استغرق ثلاثين عاما . وأن عدد العمال الذين ساهموا فى بنائه بلغ مائة ألف عامل كانوا يعملون فى جماعات تتناوب العمل كل ثلاثة أشهر .

وقد سمع (هيرودوت) هذه الرواية من صغار الكهنة بعد مرور أكثر من ألفى سنة على الهرم .

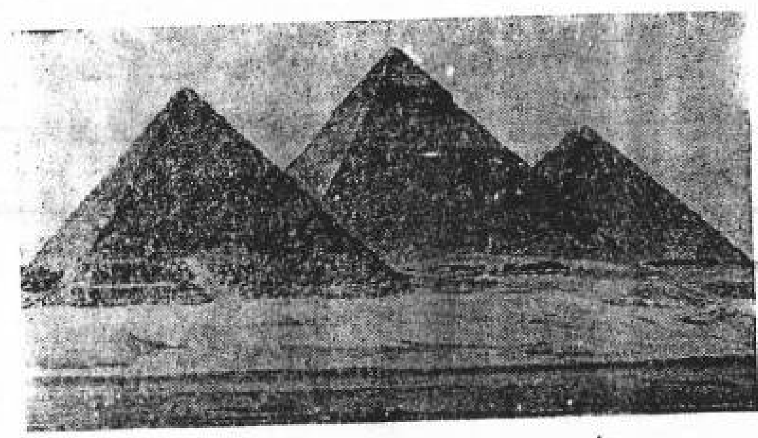
وهى روايات يجب أن تقابل بالتحفظ والحذر ، وأساسها ما تلقاه من الرواة من أن الأحجار التى بنى بها خوفو الهرم الأكبر كانت تجلب من محاجر الجهة الشرقية للنيل (محاجر طرة) ، فكان العمال ينقلونها عبر النيل إلى الجيزة ، فتحتاج إلى جهود مضنية لنقلها .

وقد نفى الأستاذ « سليم حسن » هذه الرواية إذا أثبت أن أحجار هرم خوفو هى من أحجار الهضبة التى أقيم عليها ، وقال إن هذا يثبت خطأ (هيرودوت) فى زعمه إنها كانت تجلب من محاجر الجهة الشرقية من النيل وقال أيضًا إنه عثر فى منطقة الأهرام على مساكن للعمال الذين كانوا يقومون بالبناء[1] . وهذا يدل على أنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية .

وقال عن طريقة رفع الأحجار لبناء الهرم إن العالم ظل إلى زمن قريب جدًا يعتقد أن المصريين القدماء كانوا يبنون المزالق لجر الأحجار عليها ، ولكن الكشوف الحديثة برهنت على أن المصريين كانوا قد وصلوا فى ذلك العصر إلى استعمال « البكر » لرفع الأحجار ، وأنه قد عثر فى حفائر الجامعة المصرية على بكرتين ،إحداهما وجدت بجوار الهرم الثانى ، والأخرى عثر عليها فى أحد بيوت مدينة الأهرام التى كشف عن جزء منها ، وأنه يتضح من كل ذلك « أن أجدادنا المصريين كانوا قد وصلوا إلى مدى عظيم فى فن البناء واستخدام قوى الطبيعة »[2] .

---

(١) سليم حسن – مصر القديمة – جـ ١ ص ٢٨٧ و ٢٩٢ وجـ ٢ ص ٢٠٨ و ٢١٤ .
(٢) سليم حسن – مصر القديمة جـ ١ ص ٢٨٨ .



الأهرام الثلاثة بالجيزة كما تشاهد من الجهة الجوية الغربية
هرم خوفو (الهرم الأكبر) ثم هرم خفرع ثم هرم منكاورع

هذا ، ويجب ألا ننسى أن بناء الأهرام يرجع إلى العقيدة الدينية التى كان يدين بها المصريون الأقدمون فى أن حياة الإنسان لا تنتهى بموته . بل إنه سيبعث بعد رحيله عن الدنيا ويحاسب على أعماله فى الآخرة .

هذه العقيدة هى التى أوحت إلى الفراعنة بناء الأهرام لتخلد فيها أرواحهم .

وهى فى جملتها عقيدة صحيحة وإذا كان الفراعنة قد خرجوا بها عن بساطتها إلى ذلك التعقيد فى الفهم والتكييف ، فيلزمنا ألا نحكم عليها بأفكارنا الحالية ، بل علينا أن نزنها بتفكير العهود القديمة التى نشأت فيها .

وعقيدة الحياة بعد الموت هى فى جوهرها دليل على تقدم فى الحضارة والتفكير ، ولولا العقيدة فى خلود الروح لما شيد أسلافنا الأقدمون هذه الآثار الضخمة التى صارت مع الزمن من مفاخر مصر الخالدة .

ومما ينفى الأنانية عن الفراعنة ، ويدل على أنها لم تكن الملهمة لهم ببناء الأهرام ، أننا لو فتشنا عن القصور التى بنوها لتكون سكنًا لهم وموطنًا لمسراتهم وعزهم ، لما وجدناها تحاكى الأهرام فى ضخامتها وروعتها ، فلقد درست هذه القصور وعفت آثارها ، ولم تخلد على الزمن مثلما خلدت الأهرام .

وهذا يدلنا على أن الأثرة والأنانية لم يكن لهما دخل فى بناء الأهرام . بل إن قوة العقيدة الدينية والإيمان بالحياة الأخرى كانا الباعثين لبنائها وخلودها .

خفرع KHEFHREN

بانى الهرم الثانى

ولما توفى خوفو خلفه على العرش ابنه ددف رع ، وقد بنى له هرما فى أبى رواش . وبعد وفاته خلفه أخوه خفرع وهو ابن آخر لخوفو .



خفرع – بانى الهرم الثانى بالجيزة
وخلف رأسه المعبود حوروس فى شكل الصقر المقدس حاميًا بجناحيه رأس الملك

وخفرع هو بانى الهرم الثانى بالجيزة فى الجنوب الغربى من هرم خوفو وقد بناه على غراره وإن كان لا يدانيه فى الضخامة والارتفاع . وحافظت الدولة المصرية فى عهده على تقدمها وعزها كما كانت فى عهد خوفو .

منكاورع MYCERINOS
بانى الهرم الثالث

وبعد وفاة خفرع أعقبه ابنه منكاورع بانى الهرم الثالث .

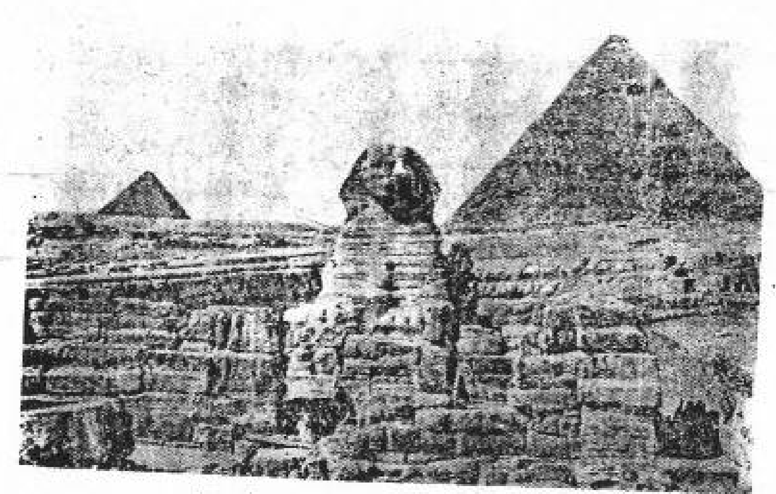


أبو الهـول

وإلى جوار الأهرام الثلاثة ، يربض أبو الهول العجيب وهو التمثال الهائل الرائع المشيد على هيئة أسد ضخم له رأس إنسان ، ويرمز إلى اجتماع القوة والعقل معًا .

وهو تمثال للملك خفرع بانى الهرم الثانى ، وفى قول آخر إنه تمثال لإله الشمس عند الغروب (آتوم)[1] ، ويبلغ ارتفاعه من مسطح قاعدته حتى قمة رأسه عشرين مترًا ، وطوله

(١) سليم حسن – مصر القديمة – ج ١ ص ٣٠٢ .



الهرمان الثاني والثالث بالجيزة . . وتمثال أبي الهول

ثلاثة وسبعون مترًا ونصف ، وعرض وجهه أربعة أمتار ونصف فهو حقًا سر أو لغز من الألغاز فى تاريخ مصر القديمة .

يقول برستد عن حكم الأسرة الرابعة : « ومدة حكم الأسرة الرابعة المقدرة بمائة وخمسين سنة تمتاز بالنظام ، وتوطيد الحكم ، واطراد التقدم والرقى ، مما لم يسبق لأبناء وادى النيل أن يتمتعوا بمثله ، وقد قاومت آثار ذلك العصر بمتانتها وعظمتها القرون العديدة حتى وقتنا هذا ، ولا يبعد أن عهد خوفو كان أرقى عصر فى عهد الأسرة الرابعة لأن القطر أخذ يضمحل تدريجا فى عهد خفرع ، ثم فى عهد منكاورع حتى عجز هذا الأخير عن القبض بقوة على ناصية الحل كما فعل سلفاه ، ولم يحفظ لنا الزمن من آثار هؤلاء الملوك إلا التسعة الأهرام المشيدة بالجيزة ولا تزال تحفظ ذكراهم إلى الآن[1] .

(١) برستد – تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٧٩ .

الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ قبل الميلاد)

أسقط الكهنة الأسرة الرابعة وأسسوا الأسرة الخامسة . وكان لحكام الأقاليم الذين حرصوا على سلطانهم دخل فى هذا التغيير ، وقد عظم نفوذ الكهنة فى عهد هذه الأسرة .

وكان أول ملوكها (أوسركاف Ouserkaf) وتلاه ملوك عديدون لم تقع فى عهدهم حوادث حاسمة .

البحرية فى عهد ساحورع

على أن خلفه (ساحورع) شيد لمصر أسطولاً بحرياً جعلها أول دولة بحرية معروفة فى التاريخ .

ويقول برستد : إنه عثر حديثاً على لوح حجرى بهرم هذا الملك ببوصير وجدت عليه رسوم لأربع سفن عظيمة محملة بالأسرى الفينيقيين حولهم بحارة مصريون ، وتعتبر هذه النقوش أقدم رسوم بحرية وجدت حتى الآن (حوالى سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد) وأن ساحورع أوفد أسطولاً آخر إلى بلاد الصومال (بونت) وخليج عدن[١] فى طلب البخور والروائح العطرة ، والأدهنة الجميلة الكثيرة الاستعمال عند الشرقيين[٢] .

والمعروف أن ساحورع هذا أول ملك أثبتت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال رأساً .

(١) برستد : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٢) كانت بلاد بونت تشمل الشاطئين الآسيوى والإفريقى معا حول بوغاز باب المندب .

الفصل الثانى

الثورة الاجتماعية
فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد

تولت الأسرة السادسة الحكم سنة ٢٤٢٠ واستمرت حتى سنة ٢٢٨٠ قبل الميلاد .

بيبى الأول

وهو من الملوك النابهين الذين تولوا الحكم ، وقضى فيه نحو ربع قرن .

الحملة فى فلسطين وسورية

وفى عهده سارت فى أوائل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد حملة برية وبحرية إلى فلسطين وسورية .

وقاد هذه الحملة قائد قدير هو (أونى Uni) قائد الجيش فى عهد بيبى الأول .

حارب (أونى) البدو على حدود مصر الشرقية ، ثم حارب فى جهة الكرمل بفلسطين الأعداء القادمين من بلاد الرافدين (دجلة والفرات) .

واشترك فى هذه الحرب الجيش والأسطول ، فقد سار الجيش براً . وسارت الحملة البحرية محاذية سواحل فلسطين الجنوبية ، وأنزلت جنودها هناك ، فهزموا أعداءهم وتعقبوهم حتى جبال فلسطين الشمالية .

ويعتبر هذا المكان أقصى ما وصل إليه النفوذ المصرى فى عهد الدولة القديمة وامتد هذا النفوذ على الساحل الفينيقى .

ولعل هذه الحملة كانت الأولى من نوعها فى العالم ، اشترك فيها الجيش والأسطول معا ، ودلت على كفاية المصريين من قديم الأزل فى خوض الحملات فوق ظهر البحار .



ببى الأول

مرن رع MERENRA

وقد خلف بيبى الأول ابنه مرن رع وكان صبيًا ، ولم يطل حكمه أكثر من سبع سنوات .

بيبى الثانى
أطول حكم فى التاريخ

بعد وفاة (مرن رع) تولى الحكم أخوه (بيبى الثانى) وكان لم يزل صبيًا مثله وتولت أمه الوصاية عليه ، وحكم حوالى أربعة وتسعين عاما .

فعهده يعد أطول حكم فى التاريخ .

واستمر القائد (أونى) صاحب النفوذ فى الحكومة على عهد مرن رع وجزء من عهد بيبى الثانى .

ومن ملوك هذه الأسرة مرن رع الثانى ، ثم الملكة نيتوكريس .

الرحالة حرخوف

اهتمت مصر القديمة بكشف المناطق الجنوبية فى عهد الأسرة الخامسة والأسرة السادسة .

وامتاز الرحالة (حرخوف) بالكشف عن المناطق الجنوبية فى النوبة والسودان فى عهد الملك مرن رع ثم فى عهد بيبى الثانى .

وكان حرخوف هذا حاكمًا لإلفنتين (أسوان) ، وقد قام بثلاث رحلات فى عهد مرن رع ، أما رحلته الرابعة ففى عهد الملك بيبى الثانى ، وقد وصل إلى مناطق لم يكتشفها أحد من قبل واستمر فى رحلاته نحو سبع سنوات .

يقول الأستاذ سليم حسن عن حرخوف إنه كان كاشفًا عظيمًا فى عصره ، ويعد أول من فتح الطريق للكاشفين والرواد العظام فى عصرنا ، للتوغل فى مجاهل إفريقية ، وإنه جلب الخيرات منها لمليكه (مرن رع) وسهل سبيل التجارة بين مصر وتلك الأقطار[1] .

ويقول الدكتور أحمد فخرى : « قام المصريون بتلك الرحلات فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، ليكشفوا قلب القارة الإفريقية ، قبل أن يولد ستانلى ولفنجستون وغيرهما من الرحالة الحديثين بأكثر من أربعة آلاف ومائتى عام »[2] .

الأسرات السابعة إلى العاشرة

اضطربت الأحوال الداخلية منذ أواخر عهد بيبى اول لضعفه واستفحال سلطة الكهنة وحكام الأقاليم ، واستمر الاضطراب فى عهد خلفائه ، وتعاقب على العرش ملوك ضعفاء حكموا مددا وجيزة .

وزادت الحالة سوءا والجبهة الداخلية تفككًا ، فى عهد الأسرات السابعة إلى العاشرة ، وانتهت الدولة القديمة بسقوط الأسرة العاشرة .

الثورة الاجتماعية الأولى

أخذت الأحوال تسوء منذ أواخر عهد الأسرة السادسة ، فإن حكام الأقاليم والكهنة أنشئوا نظامًا إقطاعيًا ، واقتطعوا كثيرًا من سلطة الملك ، واستفحل طغيانهم ، وضعفت رقابة الملك عليهم ، فانحرفوا عن الحق والعدل فى سيرتهم ، واستبدوا بالأمر ، واستغلوا السلطة لمصلحتهم أو مصالح ذويهم ، وكثرت المظالم ، وتضاءل العدل ، وانتشرت الفوضى .

(١) سليم حسن : مصر القديمة جـ ١ ص ٣٨٤ .
(٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ١٥٨

فلم يقبل الشعب الهادئ الوديع الصبر على هذه المظالم طويلاً، وقام منذ عدة آلاف من السنين بأول ثورة شعبية، واستمرت حالة الثورة أكثر من قرنين من الزمان.

كان هدف الثورة تحقيق العدل بين الناس ومحاربة نظام الإقطاع وفساد الحكام، وإقرار العدالة الاجتماعية. ورفع مستوى موظفى الدولة عامة إلى المكان اللائق، بحيث ينظرون إلى المواطنين نظرة عدل وإنصاف ورعاية لمصالحهم.

فالظلم وانتشار الفوضى، وفساد الحكم، كل ذلك أهم أسباب هذه الثورة.

قامت الثورة ضد الهيئة الحاكمة وضد الاقطاعيين معًا، إذ تعاون الفريقان على إهدار مصالح الشعب.

وفى ذلك يقول الدكتور أحمد بدوى: « كان لابد للأمور من نتيجتها الطبيعية وهى الثورة والانحلال السياسى، فالدولة المصرية كانت قد شاخت وشاخ من حولها الزمان، وسياسة البلاد كانت تسير على نهج أعوج لا يكاد يستقيم، لأن الحكومة كانت تأخذ من الفقراء لتملأ خزائن الأغنياء، وتشبع الأغنياء من قوت الجائعين والفقراء، وتسعد المترفين على حساب المعوزين، وتحول بين خطوة المظلوم وصوته، وسمع السلطان وبصره، وليس أصعب من وصول كلمة الحق إلى ساحة الملوك والأمراء، البطانة تتلقاها فتحجبها، والمكر يتحداها فيطمسها، ونفاق البلاط يبتلعها ويقتلها، وقليل من ملوك الدهر من يستطيع أن يصل ببصره إلى ما وراء البطانة أو يمد سمعه إلى ما وراء أستار العرش، بل قليل من ملوك الدهر من يستطيع أن يلتوى على نفاق رجال القصر، أو يغلب مكر البطانة، أخذت بواكير الثورة تتراءى من كل حدب وصوب، بينما انطوى شيخ القصر على نفسه لا يكاد يعرف من أمر ذلك شيئًا، وانصرف حكام الأقاليم إلى مصالحهم الذاتية، وباتوا يرقبون بعين الحذر ما تطالعهم به الأيام، وأخذ كل منهم يتربص بصاحبه الدوائر، وأخذ الدهر يدس لهم قضاءه بين ثنايا الأيام وطيات الليالى، حتى دهمهم بخيله ورجاله، فحيل بينهم وبين القصر، وحيل بين القصر وبين كل سلطان، وهبّ الشعب بثورته الاجتماعية الطاحنة، التى اندلعت نارها فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها وغادرت الأيام (منف)، وأضحى القصر عاريًا من ثياب الملك، عطلاً من زينة السلطان، وزال نفوذه وتعطلت حقوقه، وتعطلت معها الحقوق المدنية والدينية جميعًا، وتحللت الدنيا من كل قيد، وانطلق الناس من عقالهم، وقد أخذ بعضهم يومئذ يموج فى بعض، واختفى الضمير الإنسانى الحى، وارتفع عن الناس برقع الحشمة، فتجردوا من ثياب الوقار، وساد فى البلاد قانون الفوضى — إن صح أن يكون للفوضى قانون — فنادى داعى الفوضى فى الناس يغريهم بكل شىء ويبشر فيهم بدستور الثورة ومنطقها، إن صح أن يكون للثورة دستور ومنطق »[1].

(١) أحمد بدوى . فى موكب الشمس جـ ١ ص ٢٠٤ .

وقال الدكتور أحمد فخرى فى هذا الصدد: « كانت هذه الثورة الاجتماعية ثورة الشعب على من ظلموه، ومهما كانت نتائجها المخربة وقت حدوثها، فإننا نحمد لها ما بعثته فى الشعب المصرى من آراء جديدة، أهمها الإعلاء من شأن الفرد، وأن كل إنسان مسئول عما قدمت يداه من خير أو شر، بل عن حسن نيته أو سوئها، وأنه سيحاسب وسيجازى أمام الإله الأعظم على ذلك، دون نظر إلى فقره أو غناه، ودون نظر إلى قبر يشيده أو أوقاف يتركها ليستغلها الكهنة عندما يتلون الصلوات، أو يقدمون لروحه قرابين صورية يستفيدون منها دون غيرهم، عرفت مصر قيمة الفرد وعمله فى هذا الوقت المبكر من تاريخ البشرية قبل أن يصل إليه غيرها بقرون كثيرة »[1].

تمثلت هذه الثورة فى الانتفاض على الهيئة الحاكمة، والخروج على تقاليد الخضوع لها، والهجوم على مخازن الحكومة ومكاتبها، وعلى قصور الإقطاعيين الذين استغلوا السلطة فتقاسموا والحكام خيرات البلاد.

ولم يعالج هذه الثورة حاكم حازم يوقف الحكام والإقطاعيين عند حدهم ويعيد الأمن ويقر النظام، ويرفع منار العدل والقانون بين الناس، وتعاقبت على البلاد الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، والبلاد تتردى فى هوة الانحدار والتفكك والفوضى، حتى انقرضت الدولة القديمة، واستمرت البلاد نحو ثلاثة قرون فى ظلام حالك.

سبعون ملكا فى سبعين يوما

ويقول مانيتون عن الأسرة السابعة إن عدد ملوكها سبعون ملكًا وإنهم حكموا البلاد مدى سبعين يومًا.

ومعنى هذا أن الملك كان يحكم يومًا واحدًا، وهذا أفظع مظهر للفوضى التى عمت البلاد وقتئذ.

وقد تحقق أخيرًا هدف الثورة على يد رجل برز من صفوف الشعب، واعتلى عرش الملك، وهو (امنمحات) الأول الذى أسس الأسرة الثانية عشرة.

وجاءت أسرة (امنمحات) من خير الأسرات التى تولت الحكم، فأنقذت البلاد من الفوضى، وضربت على أيدى حكام الأقاليم الظلمة المستبدين والإقطاعيين، وأشاعت العدل بين المواطنين، وسنت قوانين عادلة لمصلحتهم، ورفعت من مستوى الموظفين، وجعلتهم خدامًا للشعب، هذا إلى ما قامت به من المشروعات العمرانية التى عادت على البلاد وأهلها بالخير والرفاهية.

(١) أحمد فخرى . تاريخ الحضارة المصرية . العصر الفرعونى ص ٢٠٣ .

فانتهاء الدولة القديمة ، وتأسيس الأسرة الثانية عشرة فى أوائل عهد الدولة الوسطى هو من نتائج تلك الثورة الشعبية .

ولم تعد مقاطعات الدولة ملكا لأحكام الأقاليم السابقين ، وتضاءلت العائلات الكبيرة التى كانت تتصل بالملوك بروابط القرابة أو المصاهرة ، وصار حكام الأقاليم موظفين لدى الملك ؛ فأصبحت المقاطعات قومية بعد أن كانت ملكية[1] ، وفى عهد (سنوسرت الثالث) خضعت ارستقراطية الحكام والكهنة للنظام ، ولم يعد هناك فارق كبير بين أبناء النبلاء وأبناء الطبقات المتواضعة ، وسادت المساواة الجميع أمام القانون ، وتطلعت الطبقات الشعبية إلى المناصب الرفيعة ، وكان هذا من نتائج الثورة الاجتماعية ، وانتقلت إلى الشعب حقوق الطبقة الأرستقراطية ، حتى الحقوق الدينية التى كانت وقفا على الكهنة الوراثيين .

ومن نتائج هذه الثورة ظهور الطبقة المتوسطة من الصناع والتجار وأرباب الحرف فى المدائن والقرى ، واقتداء أفرادها بالطبقة العليا ، ومعظمهم من غير موظفى الحكومة ، ولذلك سموا أنفسهم (أهل البلد) وتغيرت معالم الحياة عما كانت عليه فى عهد الدولة القديمة ، وارتقت الطبقة المتوسطة من الشعب ، وبعد الطبقة المتوسطة أتت طبقة العمال ، وجرت العادة وقتئذ أن يرسل هؤلاء العمال إلى معاهد خاصة ليتعلموا الصناعات المتنوعة .

وقد أعترف المؤرخون الأجانب بهذه الثورة فيما كتبوه عنها ، فقال عنها (موريه) Moret : إنها ثورة اجتماعية وسياسية وإنها استهدفت محاربة الأوضاع القائمة فى أواخر عهد الأسرة السادسة[2] .

وقال (جون ويلسن) John Wilson : إن منزلة الملك نزلت إلى مستوى البشر العاديين ، وكانت الفكرة المميزة للدولة الوسطى إن الملك راع يقظ يسهر ضميره للمحافظة على الأمة ، وكان الاتجاه الثقافى الحديث يدعو إلى حقوق الأفراد[3] .

انتهاء الدولة القديمة

انقضى عهد الدولة القديمة فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد .

ومن الحق أن نذكر أنها فى الجملة قد نهضت بمصر وحضارتها واحتفظت بمكانتها فى العالم ، ويكفينا أن نذكر ما قاله عنها مؤرخ منصف وهو العلامة برستد Breasted إذ يقول عنها : « وقبل الفراغ من الكلام على تاريخ الدولة القديمة ، يجدر بنا أن نشيد بأعمال ملوكها العظام ،

(١) موريه Moret مصر الفرعونية L'Egypte Pharaonique ص ٢٤٤ . وكان موريه مديرا لمدرسة الدراسات العليا بباريس وهو من علماء الآثار المصرية المعدودين .

(٢) موريه Moret مصر الفرعونية المرجع السابق ص ١٩٥ وما بعدها .

(٣) تاريخ الحضارة المصرية لجون ويلسن تعريب الدكتور أحمد فخرى ص ٢٠٢ و٢١٢ و٢٢٦ .

الذين حكموا القطر مدة ألف سنة تقريبًا ، والذين يرجع إليهم فضل توطيد المملكة ، وجمع قوتها وتوجيه مجهوداتها نحو النافع المثمر العائد بالخير والرفاهية ، ولا تزال آثار هؤلاء القوم كالمعابد والأهرام المنتشرة على طول القطر لعدة أميال تلقى فى نفس من يراها الإعجاب والدهشة ، وقد شيدت معظم هذه الآثار على سلسلة جبال ليبيا بحافة الصحراء الغربية ، وهذه الآثار تشهد لأصحابها إلى الآن بتوقد الذهن ، وعظم الجهد ، والبراعة فى الأعمال الآلية (الميكانيكية) ، والأنظمة الداخلية ، وبناء السفن لعبور البحار ، وارتياد البلاد للكشف ، والحق يقال : إن هؤلاء القوم هم الذين ربطوا التجارة المصرية مع البلاد الأجنبية السحيقة حتى أواسط إفريقية ، وحسّنوا فنى الحفر والنقش ، ونهضوا بفن العمارة فشيدوا العمد العظيمة الشاهقة ، والمبانى الضخمة ذات العمد ، وبرعوا فى سياسة البلاد داخليًا وخارجيًا فسنوا قانونًا متينًا عادلاً وأنجبوا رجالاً متضلعين فى القضاء . وقد اعتنى أهل الدولة القديمة بدياناتهم كثيرًا لشدة اعتقادهم أنهم فى الحياة الأخرى محاسبون على أعمالهم ، وهم للآن أقدم أناس معروفين اعتقدوا بالبعث بعد الموت ، وأن الثواب فى الآخرة على قدر الحسنات فى الدنيا . وجملة القول إن أعمال هؤلاء القوم ومدنيتهم انتشرت فى العالم فأعجب بها الخلق أكثر من إعجابهم بأى شعب آخر[1] » .

(١) برستد – تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق – ص ٩٣ .

الفصل الثالث

الدولة الوسطى

إن الدولة الوسطى وخاصة من عهد الأسرة الثانية عشرة قد سارت بالبلاد قدمًا إلى الأمام ، وفي عهدها خطت الحركة القومية والحضارة المصرية خطوات واسعة نحو الكمال ، وفي ذلك يقول مؤرخ (برستد) : « بقى علينا الآن أن نتفقد الحوادث ، لنعرف إذا كان اضمحلال الدولة القديمة وانفراط عقدها استمر حتى أفسد النخوة القومية ، أو أن هذا الانقلاب كان حادثًا عرضيًا فقط ، عالجته أذهان وأيدى رجال مصر العاملين فأرجعوا المياه إلى مجاريها ، وساعدوا بلدهم على التقدم والرقيّ حتى أدهشوا العالم »[1] .

الأسرة الحادية عشرة

(سنة ٢١٣٤ – ١٩٩١ قبل الميلاد)

بداية الدولة الوسطى

هى أسرة من طيبة ، وقد اتخذتها عاصمة للدولة .

ومؤسس هذه الأسرة هو « أنتف » Antef وكان ملكًا حازمًا عاملاً على إنهاض البلاد ، ثم خلفه ابنه « انتف الثانى » ثم الثالث .

منتوحتب الثانى وإعادة الوحدة القومية

[illegible] ابنه منتوحتب الأول Mentoheteb فمنتوحتب الثانى .

ويعد من أهم ملوك هذه الأسرة ، وقد بقى فى الحكم نحو نصف قرن ، وعمل على رأب الصدع تحت سلطة العرش ، وقد نجح فى إعادة الوحدة القومية بعدما اعتراها من التفكك والتخاذل [illegible] موحد الأرضين ، وكان انتصاره على معارضيه وتوحيد مصر جميعها تحت سلطانه بداية جديدة فى تاريخ مصر القديم ، وكانت مدة ملكه عهد استقرار وطمأنينة ونهضة .

[illegible] منتوحتب الثالث ثم منتوحتب الرابع فالخامس[2] وهو آخر ملوك هذه الأسرة ، وكان [illegible] منمحات) الذى أسس الأسرة الثانية عشرة .

---

(١) [illegible] – المرجع السابق – ص ٩٣ .

(٢) [illegible] – مصر الفرعونية المرجع السابق – ص ٦٢٧ .

وأهم عمل للأسرة الحادية عشرة أنها عملت على توحيد البلاد ثانية بعد أن كانت مفككة الأوصال .

ولكنها لم تصل إلى هذا التوحيد كاملا ، إذ كان حكام الأقاليم ينازعونها السلطة ، وظلت الأمور غير مستقرة ، ولعل عهدها كان تمهيدًا للأسرة الثانية عشرة التى استقرت فى عهدها إعادة الوحدة القومية .

الأسرة الثانية عشرة

أسرة أمنمحات

(سنة ١٩٩١ – ١٧٧٨ قبل الميلاد)

أسرة أمنمحات هى من أعظم الأسرات فى تاريخ مصر القديمة ، ومن أجلها شأنًا .

أسسها أمنمحات الأول، وكان كما أسلفنا رجلاً عصاميًا برز من صفوف الشعب ، وأوصلته مواهبه وحكمته إلى منصب الوزارة فى عهد منتوحتب الخامس، وتولى العرش بعد وفاة هذا الأخير .

وتمتاز أسرة أمنمحات عامة بأنها نزلت قليلا عن السلطة القدسية التى كانت لملوك الدولة القديمة .

وتقربت إلى الشعب بإقامتها منار العدل ، وبالعديد من الإصلاحات والأعمال الاقتصادية والعمرانية التى زادت من رخاء الشعب ، وتجلت هذه الناحية فى تاريخ أمنمحات الأول والثانى والثالث .

وميزة أخرى لهذه الأسرة ، وهى أنها قضت على حكم الإقطاع فى الأقاليم وجعلت ولاتها عمالاً خاضعين لسلطة الملك بعد أن كانوا منذ أواخر عهد الدولة القديمة شبه ملوك مستقلين .

وفى عهد أسرة أمنمحات – أى فى مدى مائتى عام تقريبًا – تقدمت البلاد تقدمًا عظيمًا فى شتى النواحى .

ويعرف هذا العصر عند الاثريين بعصر (الآداب) ، لأنها بلغت فيه أعظم شأوه ، فالشعر والنثر بلغا الذروة من حيث المتانة والجودة ، وارتقى فن الحفر والعمارة بدرجة تسترعى النظر ، وفاقت المصنوعات الفنية مثيلاتها فى العصور الغابرة .

وزادت خيرات البلاد كثيرًا لعناية الحكومة بشئون ضبط النيل وإقامتها مشروعات الرى فى الفيوم واستصلاحها أقاليم شاسعة من الأراضى الزراعية مما عاد على البلاد بالخير العميم . وكانت مصر فى عهدها أقوى دولة فى الشرق الأدنى .

أمنمحات الأول

كانت أمه من أصل نوبي ، وكان ملكًا عادلاً خيّرًا ، حكيمًا حازمًا ، أعاد الأمن والنظام والطمأنينة إلى البلاد ، ونظم أمورها الداخلية ، وتحبب إلى الشعب بأعماله العمرانية ، فاهتم بإقليم الفيوم لتنظيم الرى والاستفادة من بحيرة موريس (بحيرة قارون) ، وإن كان الفضل فى تنفيذ مشروعات الرى فى الفيوم يرجع إلى أمنمحات الثالث .

وبذل همته فى استغلال المناجم والمحاجر ، وتسهيل وسائل التجارة ، ووضع حد لغارات البدو على الحدود الشرقية والحدود الغربية .

وبنى سلسلة من التحصينات فى كلتيهما ، ونقل عاصمة البلاد إلى مقربة من منف ، ووجه عنايته إلى بلاد النوبة ، وعمل على ضمها إلى مصر ، وأخضع حكام الأقاليم ، وأخذهم بالحزم والحكمة ، فأبقى منهم أكثرهم ولاء له واتباعًا لأوامره ، فتمكن بهذه السياسة الرشيدة من جعلهم معاونين له ومساعدين ، ولما تقدمت به السن أشرك معه فى إدارة شئون الدولة ابنه (سنوسرت) ،وظل يحكم البلاد نحو ثلاثين عاما .

قال الدكتور أحمد بدوى فى صدد سيرته : « ولما تقدمت السن بالرجل ، وكان قد أمضى على عرش البلاد قرابة عشرين عامًا ، بدأ يحس بحاجته الملحة إلى مُعين ، فأشرك معه فى إدارة البلاد بكر أولاده الأمير سنوسرت (سنوسرت الأول فيما بعد) وأسند إليه إمارة الجيش ، واستطاع بذلك أن يؤمّن سلطان القصر ، وأن يصل ماضيه بحاضره ،ثم وفق فى استئناف جهاده فى سبيل تطهير البلاد وإضعاف شوكة الحكام من أمراء الأقاليم الذين كانوا يبذلون غاية الجهد فى الدفاع عن استقلال أقاليمهم ، والمحافظة على سلطانهم ، والواقع أن تلك الخطوة قد أعانت الرجل على التدخل فى شئون أولئك الأمراء كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وكان من نتيجة ذلك كله أن آل إلى القصر حق تولية الموظفين الذين يديرون شئون الأقاليم وحق عزلهم ، ولم يكن ذلك قبل أيامه من حق الملوك ، وبذلك استطاع أمنمحات أن يسترد ما كان للقصر من سلطان مفقود ، ولم يكتف أمنمحات بتلك الخطوة فى سبيل تأييد العرش وتنظيم شئون الحكم ، وإنما جعل على رأس الإدارة وزيرًا شدّ به أزره ، وأشركه فى أمره ، كى يسهل عليه تسيير الأمور فى سبيل سهلة لا عسر فيها ولا توقف ، وليس من شك فى أن ذلك النظام قد أراح البلاد من تلك الفوضى التى غمرتها أيام الإقطاع ، فأتبعت حكامها ، ودفعتهم إلى الخصام والحرب ، وأتعبت من ورائهم ذلك الشعب المسكين ، فأشقته وأضنته وكلفته الشطط ، وأرهقته من أمره عسرا ، بمثل هذه الخطوات الحازمة التى قدمنا ، وضع أمنمحات حجر الأساس فى بناء تلك النهضة الجديدة ، فمهد لخلفائه من بعده سبيل السير بها إلى أبعد غايات السمو ، وسجلها لتاريخ مصرفى صحائف من ذهب ، على أن أعمال الرجل لم تقف عند حد ما ذكرنا من إصلاح زراعى وإدارى ، وإنما الراجح أنها أكثر من ذلك ، فقد نظر الرجل إلى واحة الفيوم من وراء قصره

وأخذ يفكر فى استغلالها ، وإلى أيامه يعزو بعض المؤرخين أول تفكير فى إصلاح تلك البقعة من الأرض إذ كان هو أول من فكر فى إنشاء ذلك الخزان الذى تم على عهد أمنمحات الثالث ، وسماه المؤرخون فى عصر اليونان « بحيرة موريس »[1] .

وقد توفى أمنمحات الأول سنة ١٩٦١ ق.م .

خلفاء أمنمحات الأول

سنوسرت الأول SENOUSRET

هو ابن أمنمحات الأول ، وفى عهده توسعت مصر فى بلاد النوبة .



سنوسرت الأول – من أسرة أمنمحات (الأسرة الثانية عشرة) ومشيد مسلة عين شمس

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس جـ ٢ ص ١٠٠ .

وعنى عناية كبيرة باستغلال المناجم فى الصحراء يستخرجون منها الذهب والنحاس ، ويستخرجون من محاجر النوبة الأحجار الممتازة .

وكان ملكًا حازمًا يحب العدل ، وإداريًا يقظًا ، يراقب رجاله مراقبة شديدة يضمن بها استقامتهم ورعايتهم للصالح العام .

كتب (أمينى) أحد رجاله يصف مسلكه فى حكم مقاطعة الغزال ، ويمتدح العدالة الاجتماعية التى كان ينشدها الناس ، وعلى رأسهم سنوسرت الأول قائلاً : إنى لم أسيء معاملة بنت أى رجل ولم أظلم أية أرملة ، ولا يوجد فلاح احتقرته ولا راع أقصيته ، ولا رئيس عمال قد سخرت عماله ، ولا يوجد بائس فى بلدى ولا جائع فى عهدى ، وعند حلول سنى القحط كنت أحرث كل حقول مقاطعة الغزال إلى حدودها الجنوبية والشمالية ، وبذلك حافظت على حياة أهلها ، مقدمًا لهم الطعام حتى لم يبق فيها جائع ، وأغدقت على الأرملة والمتزوجة الخيرات على السواء ، ولم أميز العظيم على الصغير فى كل ما أعطيت ، وبعد ذلك كان يأتى نيل يحمل الحبوب وكل الأشياء ومع ذلك فإنى لم أحصل المتأخر على الحقول[1] .

ولا شك أن هذه التصريحات تعبر عن المثل الأعلى فى الحكم والاستمساك بالعدالة الاجتماعية ورعاية الفقراء والحدب عليهم ، ومهما قيل عنها من المبالغة فى الوصف والإطناب فى محامد أمينى ، فإنها تدل على أن مثل هذا التقرير يقيد فى السجلات العامة ويطلع عليه الملك ، فواضعه وكاتبه قد اختار الصفات التى ترتاح إليها نفس الملك العادل ، وتطمئن إليها نفوس المواطنين .

جامعة عين شمس

كانت مدينة (أون) – عين شمس – وقتًا ما مدينة العلم والنور ، كانت عاصمة البلاد الفكرية والدينية .

جاءها أفلاطون لينهل من علومها وفلسفتها وينقل من علومها .

ويقول المؤرخ بتلر : إن استرابون لما زار مصر دله الناس على المواضع التى كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل[2] .

وقد سماها الدكتور عبد المنعم أبو بكر (جامعة هليوبوليس)[3] .

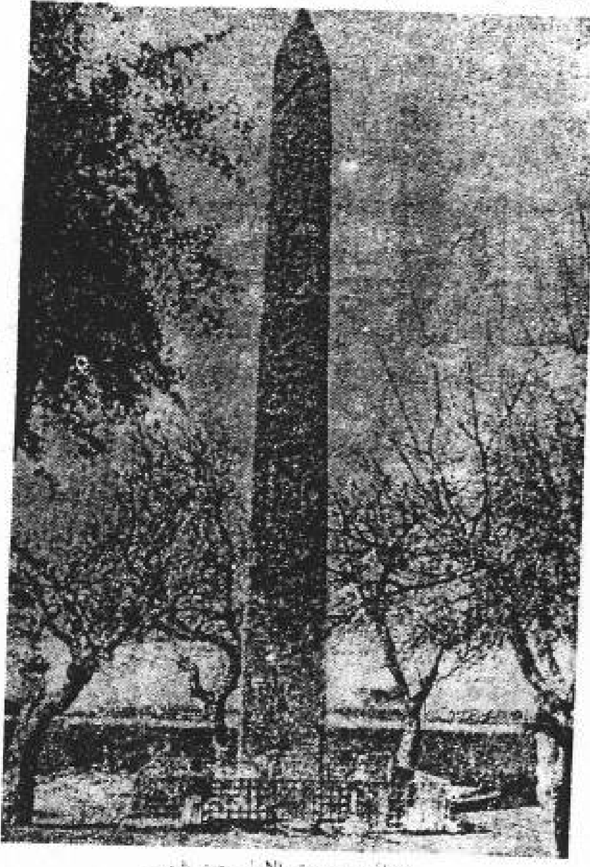
وكانت هذه المدرسة الجامعة أشهر مدارس مصر القديمة كمدرسة منف ومدرسة طيبة .

(١) سليم حسن : مصر القديمة جـ ٣ ص ٢٨٥ و جـ ١٠ ص ١٤٤ .
(٢) بتلر : فتح العرب لمصر ص ٥٠١ .
(٣) عبد المنعم أبو بكر : أخناتون ص ٦٣ .

مسلة عين شمس

ومن أعمال هذا الملك عدا إنشاء جامعة عين شمس إقامته مسلة عين شمس المشهورة (بالمطرية) والباقية إلى الآن ، ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدمًا ، وهى قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر ، وقد أقامها فى مدخل المعبد والمدرسة الجامعة اللذين بناهما فى عين شمس (التى يسميها اليونانيون هليوبوليس) ، وهى أقدم مسلة قائمة فى مكانها الأصلى[1] .

وقضى سنوسرت فى الحكم نحو أربعة وأربعين عاما ، وهو من أعظم ملوك مصر .



مسلة سنوسرت الأول بعين شمس

(١) يقول الدكتور أحمد بدوى فى كتابه (موكب الشمس جـ ٢ ص ١٣٠) إن مسلة عين شمس إحدى خمس مسلات مازالت فى مكانها الأصلى وأما باقى مسلات الفراعنة فقد نقلها الضعف والهوى السياسى إلى ما وراء البحار إلى لندن وباريس ونيويورك وروما واستانبول وفى روما وحدها مسلات تسع .

أمنمحات الثانى

هو ابن سنوسرت الأول ، وكانت أيامه أيام هدوء وطمأنينة ، وقد أرسل البعوث الاقتصادية إلى سيناء والنوبة في مناطق التعدين وإلى الصومال (بلاد بونت) للتجارة ، وكان الوصول إلى هذه البلاد أمرًا شاقًا عسيرًا فى ذلك العصر ، لبعد المسافات بينها وبين مصر ، وهذا يدلنا على الهمة ومضاء العزيمة فى النهوض باقتصاديات البلاد .

سنوسرت الثانى

لم يزد حكمه على تسعة أعوام ، وامتاز عهده بحسن العلاقات بين مصر والأقاليم الآسيوية .

سنوسرت الثالث[1]

هو الفاتح الكبير ، زادت مدة حكمه على ثمانية وثلاثين عاما ، وامتاز عهده بقضائه التام على نفوذ حكام الأقاليم وعلى نظام الإقطاع ، ثم بأعماله الحربية فى النوبة وفى فلسطين وسورية .

وقد عمل منذ توليه الملك على ضم النوبة نهائيًا إلى مصر ، فشق لأسطوله طريقًا بين صخور الشلال الأول ، وأنشأ مهندسوه هذا الطريق المائى فى أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدمًا بعرض أربعة وثلاثين قدما وعمق ستة وعشرين قدما ، وحمل على النوبة عدة حملات وطدت فيها السلطة المصرية .

وشيد حصنين متقابلين فى آخر الحدود الجنوبية للدولة على شاطئ النيل ، أحدهما فى (سمنة) والآخر فى (قمة) ، (انظر موقعهما على الخريطة المنشورة بالفصل السادس) .

يقول المؤرخ برستد : « ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية للآن تشهد لمصر فى تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاية فى اختيار مواقع الدفاع الحصينة ، والمقدرة على تشييد الحصون المنيعة »[2] .

وعلى الحدود الجنوبية (فى سمنة) نصب سنوسرت الثالث لوحته المشهورة التى يتحدث فيها إلى المصريين عن الكفاح الوطنى ويحثهم عليه ، قال فى هذا الصدد : « ولقد جعلت تخوم [illegible] أبعد مما وصل إليه أجدادى ، وزدت فى مساحتها على ما ورثته ، وإنى ملك يقول وينفذ ، [illegible] يختلج فى فؤادى تفعله يدى ، وإنى طموح إلى السيطرة ، وقوى لأحرز الفوز ، ولست بالرجل [illegible] يرضى بالتقاعس عندما يُعتدى عليه ، أهاجم من يهاجمنى حسبما تقتضيه الأحوال فإن

(١) يسميه هيرودوت سيزوستريس .
(٢) برستد تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق ص ١٩٩ .

الرجل الذى يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوى قلب العدو ، والشجاعة هى مضاء العزيمة ، والجبن هو التخاذل ، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقًا »[1] .



سنوسرت الثالث

قناة سنوسرت الثالث
التى تصل النيل بالبحر الأحمر

يرجع إلى سنوسرت الثالث عمل من أجل الأعمال العمرانية ، وهو وصل النيل بالبحر الأحمر بواسطة قناة مائية تيسر المواصلات التجارية .

وهذه القناة قد أعاد حفرها الملك (نيخاو) الثانى ، ثم الإمبراطور الرومانى تراجان .

وردمت بعد ذلك إلى أن أعاد حفرها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وسميت (خليج أمير المؤمنين) .

ففى عهد سنوسرت الثالث اتصل النيل لأول مرة فى التاريخ بالبحر الأحمر وعُرفت هذه القناة

(١) سليم حسن : مصر القديمة جـ ٣ ص ٢٨ و جـ ١٠ ص ١٤٤ .

في التاريخ بترعة سيزوستريس ، وهو الاسم الذى أطلقه الإغريق على سنوسرت ، أو ترعة الفراعنة .

وكانت هذه القناة تبدأ عند ضواحى بوبسطة وتأخذ مياهها من فرع النيل التانيسى (نسبة إلى مدينة تانيس وهى صان الحجر الحالية) ، وتصل إلى البحيرات المرة ثم إلى خليج السويس .

ويقول موريه[1] : إن هذه القناة أنشئت فى عهد سنوسرت الثالث ، وقد حفرها فى شرق الدلتا ، واتصل النيل بواسطتها بخليج السويس عن طريق وادى الطميلات والبحيرات المرة ، وتعد أقدم طريق مائى يصل النيل بالبحر الأحمر ، وإن هذه أول تجربة لوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر بواسطة النيل .

مصر والبلاد الآسيوية

وفى عهد سنوسرت الثالث غزا المصريون الشام ، وقد اصطحب قائده (سبك خو Sebek Khu) فى هذا الغزو حيث هزم الآسيويين ، ومن يومئذ وصلت سلطة مصر إلى هذه الأصقاع ومارست السيادة على الساحل الفينيقى وعلى فلسطين وقسم كبير من سورية .

وسنوسرت الثالث يشبه فى مواهبه الحربية (تحوتمس الثالث) الذى سيرد الكلام عنه فى الفصل السادس .

أمنمحات الثالث

هو ابن سنوسرت الثالث وأعظم ملوك الأسرة ، ومن أعظم الملوك فى تاريخ مصر القديمة .
ومن أعماله الهامة مشروعات الرى العظيمة التى نفذها والتى عادت على البلاد بالرخاء والرفاهية .

كان محبا لصالح الشعب بمختلف طبقاته ، ولما تولى الملك وسع نطاق المناجم فى سيناء لاستخراج كنوزها ، وذلل عقبات كئودًا كان يشكو منها العمال هناك ، وأهمها أمور سكناهم ، فقد أسس لهم بيوتًا ثابتة بدل المساكن المؤقتة التى كانوا يأوون إليها بحيث لا تبقى أكثر من بضعة أشهر .

وانصرفت جهوده إلى مختلف نواحى الإنشاء والتعمير ، فأرسل عدة بعثات إلى سيناء لاستخراج المعادن منها .



(١) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٢٥٩ .



أمنمحات الثالث
صاحب مشروعات العمران الجليلة

أعمال الرى والعمران

كان أمنمحات الثالث أكثر ملوك مصر اهتمامًا بشئون الرى وضبط مياه النيل ، وخاصة مشروعات الفيوم .

وقد بدأ التفكير فى هذه المشروعات فى عهد أمنمحات الأول ، ولكن تنفيذها كان على يد أمنمحات الثالث .

وأنشأ مقياسًا للنيل فى (سمنة) بالنوبة عند الشلال الثانى ، لتسجيل ارتفاع النيل وليطمئن على حالة الفيضان ، وكانت أنباء مقاسات هذا المقياس ترسل لموظفى مكتب الوزير بالوجه البحرى ، وكانوا يقدرون كمية الحبوب التى يمكن إنتاجها على ضوء هذه البيانات فى السنة المقبلة .

خزان بحيرة موريس

وأنشأ سدًّا للمياه ذا فتحات على بحيرة موريس الكائنة بالجزء الشمالى الغربى لإقليم الفيوم ، لينتفع بالبحيرة كخزان لحماية البلاد من الفيضانات العالية ، ولتؤخذ منها المياه لتحسين الملاحة ، ولرى أراضى الوجه البحرى ، والاستفادة منها وقت التحاريق (انظر الخريطتين ص ٦٦ و ص ٦٧) .

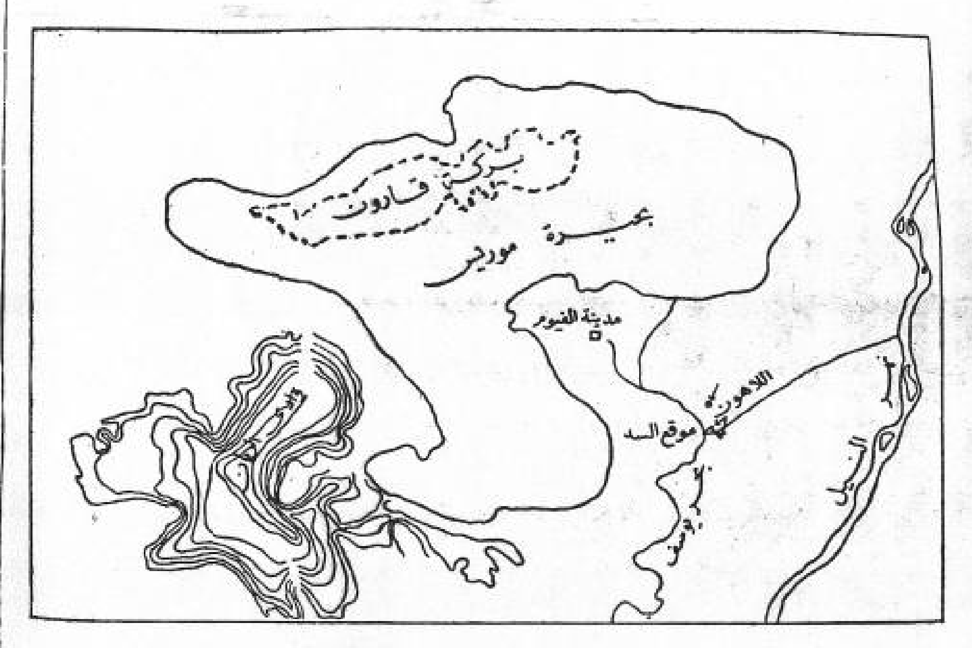
وهذه الفكرة شبيهة بالفكرة التى أدت إلى إنشاء خزان أسوان فى العصر الحديث .

وتفصيل ذلك أن مياه النيل كانت تتدفق فى بحيرة (موريس) قرابة ستة أشهر فى العام .

وكان بحر يوسف كفرع من فروع النيل القديمة يصب فيها .

وكانت توجد فتحة بسلسلة جبال ليبيا بجهة الفيوم ، تصل النيل بإقليم الفيوم المنخفض عن سطح البحر ، وتسمى هذه الفتحة (ممر اللاهون) .

وقبل حكم الأسرات الملكية كان فيضان النيل يغمر إقليم الفيوم محولًا إياه إلى بحيرة كبيرة .

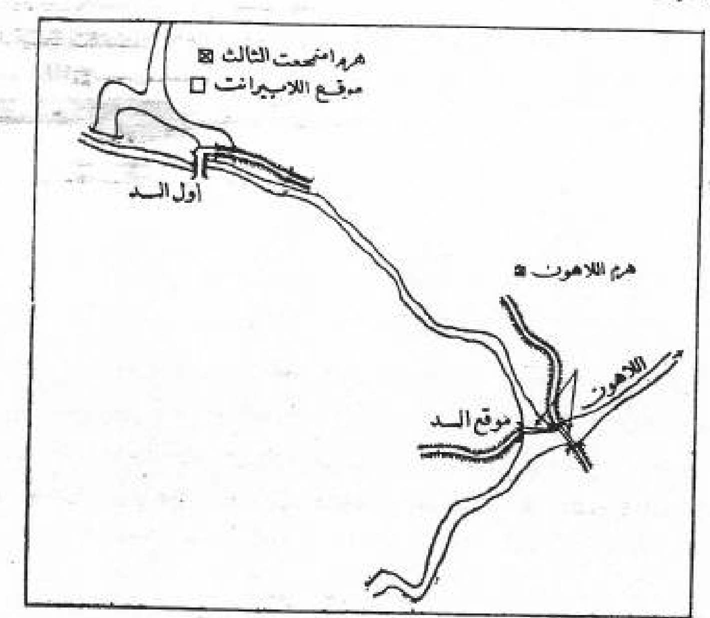


بحيرة موريس القديمة
مقتبسة من كتاب (بحيرة موريس واللاهون)
للعالم المهندس على شافعى مفتش عام رى الصحارى سابقا

فلما جاء ملوك الأسرة الثانية عشرة فطنوا إلى تخزين كمية عظيمة من المياه فى تلك البحيرة وتصريفها وقت التحاريق .

فشيدوا على الفتحة سالفة الذكر سدًا عظيمًا مزودًا بفتحات لخزن المياه فى بحيرة موريس ، تاركين فى الوقت نفسه مساحة كبيرة من الأرض للزراعة .

وقد بدأ الملوك الأول من الأسرة الثانية عشرة فى تصميم هذا المشروع ، ولكن الفضل الأكبر فى تنفيذه يرجع إلى أمنمحات الثالث الذى نظم السدّ العظيم ووفر مياه الرى لأراضى الوجه البحرى .



موقع خزان بحيرة موريس
كما رسمه العالم المهندس على شافعى فى كتابه (بحيرة موريس واللاهون)
وترى فى الرسم هرم أمنمحات الثالث وقصر اللابيرنت

يقول السير (وليم ويلككس) الذى كان وقتا ما مديرًا عاما للخزانات بمصر فى محاضرة له ألقاها سنة ١٩٠٤ عن بحيرة موريس : « إنه كان يوجد فى زمن الملك (مينا) اتصال بين النيل والمكان الذى فيه هذه البحيرة ، إلا أنه لم يوسع الترعة الموصلة بين النيل والبحيرة إلا الملك أمنمحات الثالث الذى جعل البحيرة التى كانت لا قيمة لها فى عصر الملك مينا بحرًا خضمًا واقعًا فى وسط الأرض يحفظها من غوائل الفيضانات العالية ، ولعمرى لقد كان أولئك الفراعنة القدماء جبابرة فى علم الرى ، كما كانوا حكماء وذوى جراءة وإقدام »[1] .

وقال : « إنه كانت هناك قناطر موازنة قائمة عند مدخل ومخرج بحيرة موريس فى الممر الذى

(١) عن محاضرة ألقاها السير وليم ويلككس عن « خزان أسوان وبحيرة موريس » ص ٣ .

يوصل البحيرة بنهر النيل ، فالقنطرة الأولى واقعة عن جسر اللاهون الحالى ، والثانية عبارة عن ترعة متسعة منحدرة من الصخر المنحوت بمنسوب موافق لمرور مياه الفيضانات العالية ، حيث يوجد الآن بحر يوسف الحالى ، وكان فى نهايتها سد ضخم قائم على رأس وادى (البطس) الضيق ، وكان هذا السد يزال فى أيام الفيضانات العالية الخطيرة ، وبجوار قنطرة الموازنة الثانية قرية (هوارة المقطع) الحالية أو (هابوار) القديمة[1] .

وقال فى موضع آخر : « ولعمر الحق إن الأسرات الملكية الفرعونية التى جاهدت فى سبيل حماية البلاد من عدويها اللدودين (الشّرق والفيضان) وكفلت سعادة رعاياها فى تلك الأزمان لجديرة بالثناء العاطر والذكر المجيد » .

ويقول المؤرخ برستد : « إن الزائر لمنطقة هذا السد العظيم يقدر جلال المجهود الإنسانى الذى رفع من شأن الأراضى المنخفضة التى غمرتها المياه قديمًا »[2] .

ويقول (هيرودوت) الذى زار مصر حوالى سنة ٤٤٥ قبل الميلاد ، فى عهد الاحتلال الفارسى : إن فيضان النيل كان يغمر تلك البحيرة العظيمة عن طريق الفتحة الموجودة بجبال ليبيا ، وإن المصريين كانوا يروون أرضهم زمن التحاريق من مياه هذه البحيرة الواسعة .

وشاهد (استرابون) محال مراقبة المياه الداخلة والخارجة من إقليم البحيرة المذكورة .

قصر اللابيرنت

وأنشأ أمنمحات الثالث فى الجهة البحرية للفتحة الموصلة لأرض الفيوم قصرًا ضخمًا يبلغ طوله حوالى ألف قدم ، وعرضه ثمانمائة قدم ، اتخذه معبدًا دينيًا ، ومقرًا إداريًا للحكومة ، وحوى نحو ثلاثة آلاف غرفة ، وفى هذا القصر كانت تجتمع هيئة الحكومة أحيانًا ، وقد بقيت آثاره واضحة حتى وصفه (استرابون) الذى شاهده وأطلق على هذا القصر فى العهد الرومانى اسم (لابيرنثا) Labyrinth أى (التيه) لكثرة ما حواه من غرف وأبهاء وممرات .

وقد شاهد (هيرودوت) هذا القصر ، وقال عنه : إنه يفوق الوصف وإن عمارته منقطعة النظير ، ولا يفضل عليه عمارة الهرم الأكبر .

وظل أمنمحات الثالث على العرش قرابة خمسين عاما كانت من خير السنين فى تاريخ مصر القديمة .

(١) عن حاضرة ألقاها السير وليم ويلككس « خزان أسوان وبحيرة موريس » ص ٣ و١٤ .
(٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق – ص ١٣٤ .

أمنمحات الرابع

وقد خلفه على العرش ابنه أمنمحات الرابع . ولم يكن على غرار أسلافه فى الهمة والكفاية ، وحكم نحو تسع سنوات .

الملكة سبك نفرو

وكان آخر ملوك هذه الأسرة الملكة (سبك نفرو) ابنة أمنمحات الثالث . وقد حكمت نحو ثلاثة أعوام ، ثم انقطع نسل هذه الأسرة ، وهوى نجمها .

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

بعد أن انتهى حكم الأسرة الثانية عشرة خلفتها الأسرة الثالثة عشرة وكانت عاصمة ملكها (منف) .

وفى عهدها ضعفت الجبهة الداخلية لتنازع الطامعين فى الحكم .

وتدهورت الحالة الاقتصادية فى البلاد .

فبعد أن كان نظام الرى ينفذ فى أنحائها تحت إشراف الملك ، انعدم نظامه واضطربت شئونه ، فقلت الحاصلات ، والمصنوعات ، ثم عمد حكام الأقاليم إلى استعمال الشدة والظلم مع المواطنين . ففرضوا عليهم الضرائب والأتاوات الباهظة ، وأثقلوا كاهلهم ، وجاءت هذه الأحداث هادمة لنهضة البلاد ورخائها اللذين كانا مبعث عناية أسرة أمنمحات فى مدى مائتى سنى تقريبًا .

وليس معروفا على وجه التحقيق كيف تبوأت الأسرة الثالثة عشرة عرش مصر ، وقد يكون للضعف الذى أصاب جبهتها الداخلية دخل فى قيامها .

الأسرة الرابعة عشرة

وأعقبتها الأسرة الرابعة عشرة . وكلتا الأسرتين تخاذلت أمام الغزو الهكسوسى فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

الفصل الرابع

ثورة الشعب على الهكسوس
وإجلاؤهم عن مصر سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد

رزئت البلاد فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد بالغزو الهكسوسى .

وقع هذا الغزو حوالى سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد ، فى عهد الأسرة الثالثة عشرة[1] .

والهكسوس – أو الرعاة – قوم من قبائل مختلفة ، لا تربطهم رابطة ، يرجع أصلهم إلى أواسط آسيا ، وقد انحدروا غربًا ، يقصدون النهب والسلب ، أو الاستعمار والخصب ، فنزحوا إلى بلاد الرافدين ، ثم استقروا وقتًا ما فى سورية ولبنان وفلسطين ، وحكموها دون أن يكونوا من أهلها ، ثم حدثتهم أنفسهم بأن يضموا إلى البلاد التى غزوها بلادًا أخرى طمعًا فى خيراتها ، وهى مصر .

ولقد كانت حالة مصر الداخلية فى عهد الأسرة الثالثة عشرة مغرية للهكسوس بأن يهاجموها ويغزوها ، فالاضطراب كان يسودها فى عهد هذه الأسرة ، والجبهة الداخلية مفككة متخاذلة ، والنزاع على السلطة يفرق بين أبناء الوطن الواحد ، والحالة الاقتصادية والاجتماعية فى تدهور .

فمصر كانت تمر بفترة انحلال وضعف قومى يسهّل على الأجنبى المغير أن ينال منها .

أضف إلى ذلك أن الهكسوس كانوا يستخدمون فى هجومهم سلاحًا جديدًا بالنسبة لذلك العصر ، وهو سلاح العربات التى تجرها الخيل فى ساحة الوغى ، ولم يكن هذا السلاح مألوفًا ولا معروفًا وقتئذ لدى المصريين القدماء ، فكان تميزًا للهكسوس فى نضالهم ضد مصر .

وليس فى المراجع القديمة ما يدل على وقوع معارك حاسمة بين المصريين والهكسوس ، بل يبدو مما كتبه المؤرخ المصرى (مانيتون) أن الغزو كان مفاجأة لمصر ، فهو يقول فى الحديث عنه : « وفى عهد الملك توتيمايوس Toutimaius لا أدرى لماذا أرسل الله فى عهده ريحا عاكستنا ، فقدم بلادنا أناس من الشرق ، محتقرون مهينون ، فأغاروا عليها ، وأخضعوها بسهولة ومن غير قتال ، وهذا أمر بعيد الاحتمال ولم يكن فى الحسبان ، فإن الأغراب انقضّوا على الدلتا وانتشروا فى أنحائها انتشار الجراد ، وما لبث أولئك الرعاة أن اختاروا سلاطيس Slatis أحد رؤسائهم فولوه ملكا عليهم ، وألزموا الأمراء الوطنيين الاعتراف به والخضوع لسلطانه » .

(١) أحمد بدوى : فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٢٩٠ . وأحمد فخرى – مصر الفرعونية ص ٢٤٣ . وتاريخ العالم لناشره السير جون هامرتون جـ ١ ص ٤٦٠ .

فهذا الوصف يدل على أنه لم يكن هناك معارك جدية أدت إلى غلبة الهكسوس ، بل كان غزوًا فجائيًا نكبت به البلاد على حين غرة ، وكان تخاذل الجبهة الداخلية أول الأسباب لوقوعه .

تخاذلت الأسرة الثالثة عشرة ، ثم الرابعة عشرة ، أمام الهكسوس ، فحكموا شرق الدلتا حكمًا مباشرًا وعاثوا فيها فسادًا ، وكانوا قومًا مخرّبين . فعصفوا بكل مظاهر الحضارة المصرية ، واضطهدوا الأهلين .

يقول موريه Moret إن هذه أول مرة منذ عهد الملك مينا استهدفت فيها مصر لغزوة أجنبية طويلة المدى .

وبقيت الأسرة الرابعة عشرة تحكم غربى الدلتا موالية للاستعمار ، أما أمراء الوجه القبلى فقد احتفظوا بشبه استقلال ذاتى ، مع دفع الجزية للهكسوس ، وهذا معناه أن الهكسوس كانوا يحكمون شرقى الدلتا حكمًا مباشرًا ، وكانت لهم السيادة على غربيها ، وجزء من مصر الوسطى ، أما الوجه القبلى فكان له شبه استقلال ذاتى ، ولم يستطع الهكسوس إخضاعه لحكمهم المباشر .

ولم يطمئن الهكسوس يوما على سيطرتهم ونفوذهم فى مصر ، ولذلك اتخذوا عاصمتهم فى (أواريس) ، وهى بلدة تقع فى الشمال الشرقى من الدلتا ، اختاروها لكى لا يُحاط بهم إذا تغلغلوا فى الدلتا أو الوجه القبلى ، وليكونوا على اتصال بمعاقلهم فى فلسطين .

وليس معروفًا على وجه اليقين موقع (أواريس) هذه ، واختلف الأثريون فى تحديدها ، فبعضهم كان يظن أنها (هوارة) بالفيوم ، ولكن هذا الرأى قد استبعد استبعادًا تامًا لوضوح خطئه ، وقال البعض إنها (صان الحجر) – تانيس – فى الشمال الشرقى من الدلتا ، وقال آخرون إنها فى المكان الذى أنشئت فيه (بر رعمسيس) أى جنوبى بيلوز (الفرما)[1] .

وقع الغزو الهكسوكى حوالى سنة ١٧٣٠ قبل الميلاد كما أسلفناه ، وتحررت منه البلاد حوالى سنة ١٥٧٠ ق .م .

وهذان التاريخان هما أرجح الآراء عن مدة بقاء الهكسوس فى مصر إلى طردهم منها ، أى أن احتلالهم دام قرابة قرن ونصف قرن من الزمان .

الغزو الهكسوسى والاحتلال الإنجليزى ومدة كليهما

ولا تهولنّك هذه المدة ، ولا تجعلها موضع الدهشة والاستغراب لطولها ، فإذا عقدنا مقارنة بين احتلال الهكسوس فى العصر القديم ، واحتلال الإنجليز مصر فى العصر الحديث ، نجد

(١) فى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية للمرحوم محمد رمزى (جـ ١ البلاد المندرسة ص ١٣٤) إنها فى الشمال الشرقى لبلدة القنطرة .
ويقول موريه Moret فى كتابه (مصر الفرعونية) ص ٢٨٧ إنها تقريبا فى مكان بيلوز والرأى الراجح أنها (قنتره) الحالية مركز فاقوس الآن .

أن الاحتلال الإنجليزى بدأ سنة ١٨٨٢ ميلادية ، ولم ينته إلا سنة ١٩٥٦ ، أى أنه بقى أربعًا وسبعين عاما جاثمًا على صدر البلاد ، فى الوقت الذى ارتقى الشعور الوطنى والوعى القومى فى مصر الحديثة ، فلا تُلام مصر القديمة على بقاء الاحتلال الهكسوسى فيها ضعف هذه المدة ، فالأمر كما ترى قريب من قريب .

على أنه فى كلا الاحتلالين ، كان ولاء الأسرة الحاكمة للاحتلال والاستعمار الأجنبى هو السبب الجوهرى لوقوعه ولبقائه ردحًا طويلاً من الزمن والناس على دين ملوكهم أو زعمائهم .

ويبدو حسن استعداد المصريين لكفاح الاستعمار أنه لم تكد حرب التحرير تبدأ فى (طيبة) حتى لبى الشعب نداء (سقنن رع) ملك طيبة المجاهد .

وتملكت المواطنين الروح القومية الوثابة وانضووا تحت علم الثورة ، حتى جلا المستعمر عن البلاد سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد .

تعاقبت على البلاد الأسرات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة . ولم تبدأ حرب الاستقلال إلا على يد الأسرة السابعة عشرة .

ومن المحقق أن ملوك الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة كانوا من صنيعة الهكسوس .

فلا يصح إحصاؤهم ضمن الأسرات المصرية . ومن أهم ملوكهم (خيّان) . وآخر ملوكهم (أبو فيس) .

وبقى الأمراء الوطنيون فى مناطقهم شبه مستقلين — يدفعون الجزية للهكسوس ، ثم تزعمت طيبة حركة التحرير .

بدأت حرب التحرير على يد (سقنن رع) ملك طيبة ، من ملوك الأسرة السابعة عشرة وكان أبو فيس الملك الهكسوسى يتحرش بسقنن رع ويتحداه ويريد إزلاله ، ولكن سقنن رع سارع إلى إعداد العدة لمحاربة المحتل الغاصب ، وأعلن الحرب على الهكسوس ، فحاربهم بمعاونة الشعب فى كفاحه .

وما زال (سقنن رع) يحارب الهكسوس ، حتى سقط شهيدًا فى ميدان الجهاد .

وبعد مقتله حمل الراية من بعده ابنه (كامس) Kames فحاربهم واستولى على المدن الواقعة بين الأشمونين وأطفيح .

على أنه مات هو أيضًا فى ميدان الكفاح ، فخلفه أخوه (أحمس) Ahmes الذى ثابر على حرب الهكسوس ، واستمر يحاربهم فى الصعيد وفى الدلتا حربًا لا هوادة فيها .

واستخدم المصريون السلاح الذى حاربهم به الهكسوس من قبل ، سلاح العربات التى تجرها الخيل ، كما تذرعوا بالشجاعة والصبر والإيمان .

فما زالوا يجاهدون الهكسوس حتى ارتدوا إلى (أواريس) ، التى اتخذوها من قبل عاصمة لهم كما أسلفنا ، فحاصرهم فيها المصريون وحملوا عليهم فيها ثلاث حملات حتى استسلمت سنة ١٥٧٠ قبل الميلاد .

كانت حرب التحرير ضد الهكسوس حربًا ضروسًا . تجلت فيها بطولات كتائب التحرير المصرية ، سجل أحد الضباط الشبان (أحمس بن ابانا) على جدران مقبرته نصوصًا قال فيها : « أمضيت صدر شبابى فى مدينة الكاب ، وكان أبى ضابطا فى جيش الملك سقنن رع ، ولما توفى أبى دخلت الجندية ، وأصبحت ضابطا على سفينة من سفن الملك فى عهد أحمس ، وكنت شابا لم أتزوج بعد ، فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت إلى أسطول الشمال تقديرًا لشجاعتى وإقدامى » ، ثم يقول إنه نقل من البحرية إلى الجيش وأنه تولى قيادة الحرس الملكى وأنه كان يتبع الملك (أحمس) فى سيره حينما أقلته عربته ، وأشار إلى أنه أظهر بسالة رائعة فى القتال ، وقد كافأه الملك أكثر من مرة بالذهب ورقاه إلى قيادة سفينة كبيرة اسمها (ضوء منف) يبدو أنها ساهمت فى حصار مائى على أواريس ، وتحدث عن سقوط المدينة ورحيل الهكسوس عنها .

ولم يكتف بطرد الهكسوس من مصر ، بل تعقبهم فى فلسطين ، لكى يأمن عودتهم ، فاعتصموا فى (شاروهين) Sharuhen جنوبى غزة ، فحاصرهم فيها واستمر الحصار ثلاث سنوات حتى استسلمت وسلمت ، وفرّ فلول الهكسوس إلى الشمال .

أبطال الاستقلال من الرجال والنساء

أودّ أن أذكر فى هذا الثبت أسماء أبطال الاستقلال البارزين من الرجال والنساء الذين امتازوا ببطولتهم فى الثورة على الهكسوس وتحرير مصر من احتلالهم ، لأن أقل ما يجب علينا نحوهم أن نخلد ذكراهم المجيدة .

سقنن رع

هو أول ملوك طيبة الذين أثاروا الشعب على الهكسوس ، وحملوا علم الجهاد ضدهم ، فهو بطل من أبطال الجهاد القومى ، وقد قُتل فى ساحة الوغى ، ولم يتجاوز الثلاثين من عمره .

وموميآؤه محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وفيها آثار الجراح القاتلة التى أصابته فى صدره ورأسه .

وطيبة هى المدينة التى بدأت فيها حرب الاستقلال ، وانبعثت منها الشرارة الأولى للثورة على الهكسوس .

الملكة تتى شرى Tetisheri

وهى أم سقنن رع ، وكانت من صميم الشعب ، أى لم تكن من سلالة ملكية ، وقد غرست ولا ريب فى ابنها روح البطولة والتضحية ، وكانت بطلة ، أم بطل ، وجدة بطل (الملك أحمس) .

الملكة إياح حوتب

هى زوجة سقنن رع ، وأم الملك أحمس ، وهى التى بثت فى ابنها روح الاستمرار فى الجهاد بعد مقتل أبيه سقنن رع ، وهى من الملكات الخالدات ، جاهدت مع زوجها ، وجاهدت مع ولديه : كامس ، وأحمس .

وقد أقام الملك (أحمس) لوحة فى معبد الكرنك خلد فيها أعماله وأعمال والدته (إياح حوتب) ، ومما قاله عنها فى هذه اللوحة : « اسمها رفيع الشأن فى كل بلد أجنبى ، فهى التى تضع الخطة للجماهير ، زوجة ملك ، وأخت ملك ، وأم ملك ، العظيمة الحاذقة ، التى تهتم وتضطلع بكل شئون مصر ، وهى التى جمعت جيشها ، وحمت أولئك الناس ، وأعادت الهاربين ، وجمعت شتات الذين هاجروا ، وهدأت روع مصر العليا (أى مملكة طيبة) وأخضعت عُصاته ، الزوجة الملكية إياح حوتب العائشة »[1] .

كامس

ابن سقنن رع ، حمل لواء الثورة بعد أبيه ، واستمر يجاهد ويتم رسالته ، وقتل هو أيضًا فى حرب التحرير .

أحمس

هو ابن سقنن رع وأخو كامس ، وقد خلفه فى قيادة حرب التحرير ، واستمر يحارب الهكسوس حتى قضى عليهم واستولى على عاصمتهم (أواريس) ، وتعقبهم فى فلسطين ، وقضى على فلولهم فى (شاروهين) وفروا إلى سورية .

نفرتارى

بنت إياح حوتب من سقنن رع ، كانت أختا لكامس وأحمس ، وتزوجتهما واحدًا بعد الآخر[2] وظل لها النفوذ الكبير فى عهد ابنها امنحوتب الأول .

---

(١) سليم حسن : مصر القديمة جـ ٤ ص ٤٠٥ .

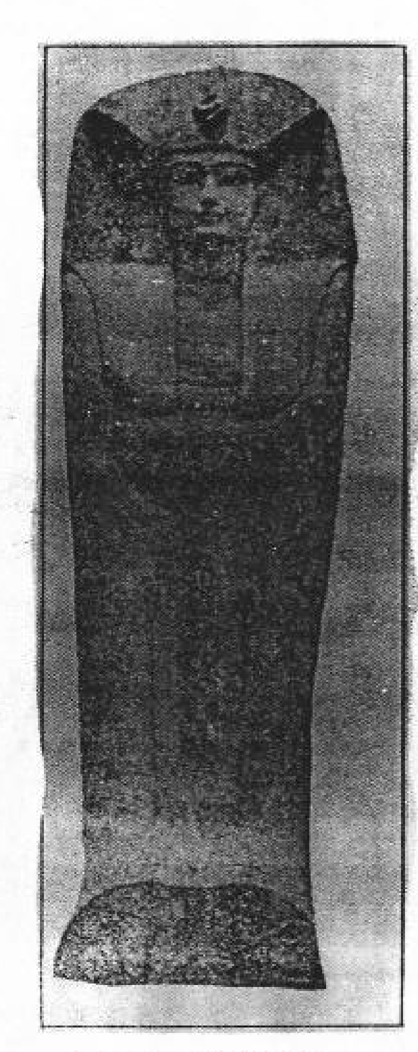
(٢) كان زواج الأخ بأخته مألوفا فى الأسرات المالكة فى ذلك العصر .

أبطال الثورة على الهكسوس




الملك سقنن رع
بطل حرب الاستقلال
ضد الهكسوس

الملكة تتى شرى أم سقنن رع
كانت بطلة ، أم بطل
وجدة بطل (أحمس)



الملكة البطلة إياح حوتب زوجة
سقنن رع أم أحمس



الملكة نفرتارى بنت إياح
حوتب وأخت كامس وأحمس



أحمس الأول
محرر مصر من الهكسوس

تمجيد البطولة وتخليدها

إن بطولة المصريين فى حرب التحرير من الهكسوس ، جديرة بأن تكون مخلدة فى ملاحم من الشعر ، تحوى وقائع هذه البطولة وأسبابها ، ومراحلها وأطوارها ، والشعر أول ما يعنى بتخليد هذه البطولات .

ولعمرى إن بطولات المصريين فى هذه الحرب أولى بالتخليد من بطولة اليونانيين فى حرب طروادة ، تلك البطولة التى خلدها شاعر اليونان الكبير هومير Homere فى ملحمة الإليادة Iliadeوملحمة الأوديسه Odysseé .

ما هى الإلياذة ؟ وما هى الأوديسة ؟

الملاحم أقدم قصائد الأدب اليونانى ، وأعظم شاعر نظمها هو هومير ، وطروادة مدينة ذات أسوار منيعة كانت تقع قرب بوغاز الدردنيل بالشمال الغربى لآسيا الصغرى .

وأشهر الملاحم التى نظمها هومير هو الإلياذة والأوديسة ، وهما صورة واضحة المعالم للمجتمع اليونانى فى عصر الأبطال .

عاش هومير فى النصف الثانى من القرن التاسع قبل الميلاد ، وأشهر أشعاره الإلياذة والأوديسة .

وصف فى ملحمة الإلياذة حوادث حرب اليونان ضد طروادة حوالى القرن الثانى عشر ق.م فى مرحلتها الأخيرة .

فبينما كان (باريس Paris بن بريام Briam) ملك طروادة ، يسير فى الجبل إذ قابل أفروديتا وأثينا وهيرا وطلبن منه أن يحكم على جمالهن .

فحكم بأن (أفروديتا) أعظمهن جمالاً .

وقد ساء أثينا وهيرا هذا الحكم ، « وعولتا على الانتقام من مدينة طروادة بالانضمام إلى اليونان فى حربهم ضدها .

وأوحت أفروديتا إلى باريس بالذهاب إلى اليونان ليخطف هيلينا زوجة الملك منيلاوس شقيق اجاممنون ، وقد أغرتها الآلهة بالرحيل معه إلى طروادة .

فغضبت المدن اليونانية ، وصمم أهلها على غسل هذه الإهانة .

فأجمعوا أمرهم على حرب طروادة وتدميرها ، وأعدوا جيشًا أبحر تحت قيادة أجاممنون سيد الإغريق عامة ، ليستردوا هيلينا رمز الجمال ويدمروا طروادة .

واستمرت الحرب بين الفريقين عشرة أعوام ، وصف الشاعرهومير حوادث الأسابيع الأخيرة منها .

وقد انتهت الحرب بانتصار اليونانيين .

وكان (أخيل) أعظم بطل فى المعسكر الإغريقى .

وتقع الإلياذة فى خمسة عشر ألف وخمسمائة وثلاثين بيتًا .

ويُعد (أخيل) بطل الإلياذة الأول .

ونظم هومير فى الإلياذة ما وقع بين اليونانيين وأهل طروادة من الحروب وما ظهر من اليونانيين من السياسة والشجاعة فى هذه الحروب .

ويجمع النقاد على أن هذه الملحمة حوت أحسن ما يمكن فى ذلك العصر أن يأتى به خيال شاعر ، فى تمجيد الأبطال ووصف عواطف النفس وخطرات الأفئدة .

أما الأوديسة فتتألف من اثنى عشر ألف بيت ، وهى تروى قصة بطلها الأول (أوديسيوس)[١] ومغامراته ، وزوجته الجميلة (بنيلوبى) .

لقد ذهب (أوديسيوس) مع غيره من أبطال اليونان ، واشترك فى حرب طروادة ، وأثناء عودته ضلت سفينته طريقها وحاصرتها الأمواج ، فألقت به على شواطئ محفوفة بالمهالك ، ولكن (أويسيوس) صارع الأهوال عدة أعوام و(بنيلونى) تنتظره وفية له إلى أن عاد إليها زوجها وحبيبها .

وأجمع النقاد القدماء والمحدثون على أن الإلياذة والأوديسة هما أجمل مانظم فى شعر الملاحم ، وأن بعض أجزائها تعد من أجمل ماظهر فى عالم الشعر .

والإلياذة والأوديسة فيهما تمجيد للبطولة ، وتصوير لها فى أشعار خالدة ، تغرس فى النفوس حب البطولة والفداء .

ومن طريف ما يذكر عن تأثير الإلياذة أنها أثرت تأثيرًا بالغًا فى نفس الإسكندر الأكبر ، فقد كان يتلوها المرة بعد المرة ، واتخذ بطلها أخيل مثالاً يحتذيه ، ولعل إعجاب الإسكندر الأكبر بشعر هومير فى الإلياذة كان نتيجة لإعجاب أستاذه الفيلسوف (أرسطو) بها ، فقد كتب شرحًا وافيًا لها وأشاد بها فى كتاب (فن الشعر) .

هل لنا فى هومير الثورة على الهكسوس ؟

فهل لنا أن نأمل فى تخليد بطولة المصريين فى حرب التحرير ضد الهكسوس ، وأن تمجد هذه البطولة فى ملحمة من نظم شاعر عربى يشيد بالروح الوثابة التى انبعثت فى الشعب المصرى القديم وجعلته يكافح الهكسوس من أجل حرية الوادى واستقلاله ؟ .

هل نجد فى شعرائنا هومير الثورة على الهكسوس ؟

إننا نأمل ونرجو .

(١) أو عوليس كما تسميه المراجع العربية .

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة الثلاثين

يعتبر المؤرخون بداية الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة
ومؤسس هذه الأسرة هو أحمس الأول محرر مصر من الهكسوس
وللأسرة الثامنة عشرة شأن عظيم فى تاريخ مصر
وقد امتدت حدودها فى عهدها إلى أقصى ما وصلت إليه فى ذلك العصر

الأسرة الثامنة عشرة
(١٥٧٠ - ١٣٠٤ قبل الميلاد)

أحمس الأول

هو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة

ومع أنه يعتبر من الأسرة السابعة عشرة لأنه ابن (سقنن رع) من ملوك هذه الأسرة ، وقد سبق الحديث عنه ، ولكن المؤرخ المصرى (مانيتون) وضعه على رأس الأسرة الثامنة عشرة . لأنه وقد حرر مصر من الهكسوس جدير بأن يكون على رأس أسرة جديدة .

وحسناً فعل مانيتون . لأن تحرير البلاد من الهكسوس حادث تاريخى هام يحق أن يكون بداية لأسرة جديدة ، بل لعصر جديد .

وفى الحق أن الأسرات الأولى للدولة الحديثة تمثل مصر الكبرى ، وقد بلغت البلاد فى عهدها أرفع درجات الحضارة والمتعة .

حروب قومية دفاعية

ولا غرو فإن غزو الهكسوس قد استثار فى نفوس المصريين الشعور القومى والتعلق بالحرية ، وحفزهم وملوكهم إلى الجهاد فى سبيل الذود عن الاستقلال ، وتم لهم ما أرادوا .

ثم إنهم فطنوا إلى أن تأمين الاستقلال لمصر ، لا يكون بتحصين حدودها فحسب ، بل لابد لها من بسط نفوذها على البلاد المجاورة التى جاء منها الغزو الأجنبى .

ولقد كان (أحمس) أول من طبّق هذه السياسة الحكيمة ، فإنه بعد أن حرر البلاد من الهكسوس ، تعقبهم فى جنوب فلسطين وحاربهم وحاصرهم فى شاروهين حتى استسلمت .

ولكنه لم يقض عليهم القضاء التام ، فإن معظم الهكسوس قد فرّ منها قبل أن تستسلم ، وظل قومه يدبرون المكايد فى فلسطين ، وفينيقية (لبنان) وسورية .

فكانت سياسة مصر فى الدولة الحديثة أن تحارب بقايا الهكسوس فى تلك البلاد .

ولم تكن فى سياستها معتدية أو باغية . ولم تكن هذه الحرب هجومية هدفها الفتح والغزو والاستعمار ، بل كانت حربا دفاعية اقتضاها الدفاع عن النفس ، وتأمين حرية مصر واستقلالها .

قال (ستانلى كوك) تأييدًا لهذه الفكرة : « قد قاومت شاروهين الحصار ثلاث سنوات قبل أن تسقط ، وهذا دليل على أن حملة أحمس لم تكن مجرد غارة كالتى شنها سنوسرت (انظر ص ٦٣) ، بل كانت تستهدف غرضا خطيرًا وتقصد محاربة عدو لم يزل قويًا ، أضف إلى هذا أننا نعود فنجد جيوشه تحارب ظافرة فى شمال فلسطين وفى بلاد فينيقية ، وأكبر الظن أن الغرض من هذه الحروب فيما يرجح لم يكن هو التوسع الإمبراطورى بل كان يقصد منها تأمين مملكة مصر وتوطيدها بعد تحريرها ، فلم تكن حروب أحمس فى سورية سوى تكملة لحرب التحرير »[1] .

هذا ، ولم تكن مصر تحارب أهل هذه البلاد ، بل حاربت الهكسوس الذين استبعدوها واتخذوا منها قواعد لمهاجمة مصر كلما سنحت لهم الفرصة ، ولقد نفذ هذه السياسة الدفاعية القومية ملوك مصر وخاصة (تحوتمس الثالث) و (رمسيس الثانى) كما سيجىء بيان ذلك فيما يلى :

ووجَّه ملوك مصر عنايتهم إلى تقوية الجيش المصرى ، وإذكاء الروح الحربية فى نفوس المصريين ليطمئنوا على سلامة الوطن وحريته .

وفى ذلك يقول برستد Breasted: كان حكم الهكسوس وطردهم من مصر عظة كبيرة للمصريين ، أفهمتهم لأول مرة حقيقة الاستعمار وسياسة البطش ، فأنشئوا جيشًا عظيمًا منظمًا ، استعملوا فيه المركبات الحربية التى تجرها الخيل ، فتحولت مصر بذلك إلى دولة حربية ، وتعتبر الإمبراطورية المصرية فى عهد الأسرة الثامنة عشرة من أكبر إمبراطوريات العالم ، لأنها امتدت شمالاً من سورية وأعالى الفرات إلى شلال النيل الرابع جنوبا ، وكان تشييد هذه الأمبراطورية المعتبرة الأولى فى العالم مصحوبا بثروة باذخة ، وعز عظيم ، فى جهاتها الشاسعة بدرجة لم تبلغها مصر فى عصر آخر ، حتى صارت (طيبة) مركز التمدن العالمى ، وصاحبة الآثار الشامخة ، وخيمت الروح الحربية على القطر المصرى مدة قرن ونصف بعد طرد الهكسوس ، فصار أبناء الفراعنة يعينون قوادًا للجيش ، ثم زيد عدده وزوّد بالسلاح والعتاد ، ودرّبت

(١) تاريخ العالم - إخراج السير جون هامرتن - جـ ١ ص ٦٨٩ .

الحروب المصرين على الأساليب الحربية الحديثة (وقتئذ) ، ويعتبر هذا التقدم الحربى أقدم
ما عرف من نوعه فى التاريخ ، وقد قسم الجيش المصرى إلى فرق وفيالق ، وقسمت قواته إلى
قلب وجناحين ، واستكمل بذلك نظام المعارك الحربية ، وتمكن المصريون من القيام بحركات
التفاف حول أعدائهم[1] .

كان عهد (أحمس) دور اليقظة من سبات عميق ، وتقوية للمواهب القومية الدفينة فى الأمة
المصرية ، ولا غرو فقد كان هو مثال الشجاعة والجد والحكمة والدهاء ، قوىّ الإرادة ، ماضى
العزيمة ، فهابه الجميع واحترموه ، وحكم البلاد اثنتين وعشرين سنة ، وكانت وفاته حوالى سنة
١٥٥٧ ق .م . وهو واضع اللبنة الأولى فى صرح الإمبراطورية المصرية فى مصر القديمة .

خلفاء أحمس الأول

أمنحوتب الأول Amenhotep

هو ابن أحمس الأول ، وقد حافظ على عهد أبيه ، وكانت النوبة قد انتقضت على مصر ،
فغزاها أمنحوتب ووصل إلى حد الدولة الوسطى بجهة الشلال الثانى .
وحارب الليبيين حين حدثتهم أنفسهم بالعدوان على غرب الدلتا . فصدهم وهزمهم ،
وحكم البلاد نحو عشرين عاما .

تحوتمس الأول

وخلفه تحوتمس الأول ، وفى عهده وصلت مصر إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا ، إذ
كان على رأس حملة وطدت سلطة مصر فى بلاد النوبة .
وحارب بقايا الهكسوس فى فلسطين وسورية ، فإنهم ما فتئوا يلوذون بهذه النواحى بعد
هزيمتهم فى شاروهين .
وفى عهده خضعت لحكم مصر الأقاليم الآسيوية فى تلك الأصقاع . ووصل إلى نهر
الفرات شمالاً ، وأقام على ضفته لوحة تذكارًا لهذا الحادث التاريخى .
وبلغت مدة حكمه ثلاثين سنة ، وهو من أعظم ملوك مصر .

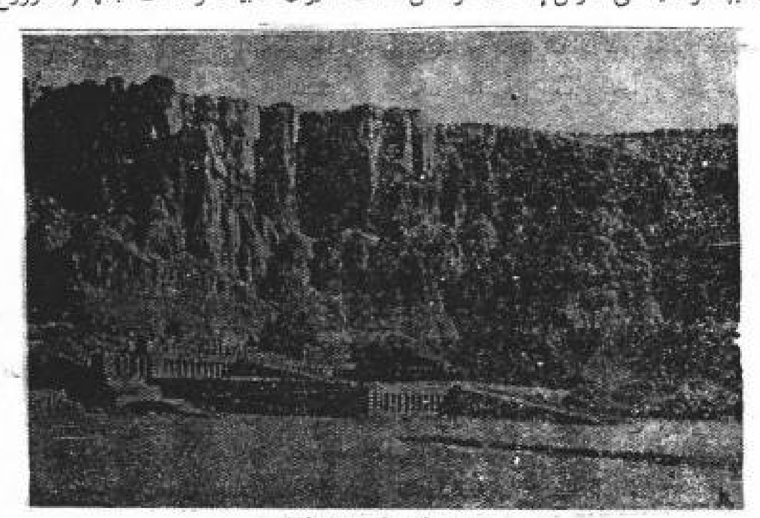
تحوتمس الثانى

هو ابن تحوتمس الأول وقد تزوج من أخته لأبيه (حتشبسوت) . وكانت سيدة طموحًا
إلى الملك ، فانفردت به ، واستسلم لها زوجها .
وبقى على العرش نحو عشرين عامًا .

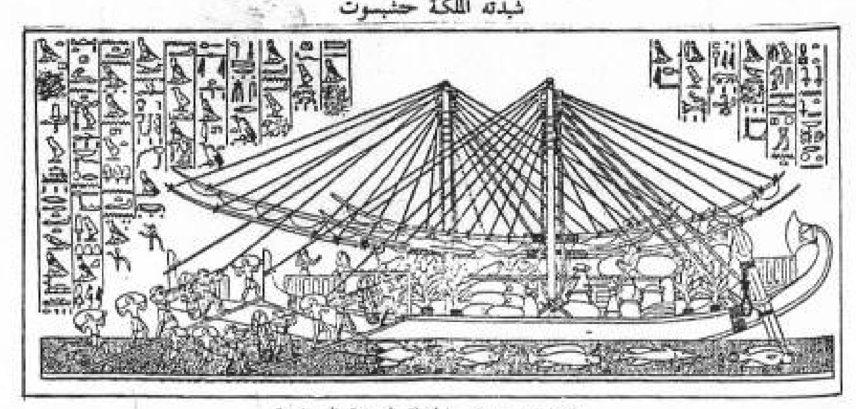
(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق – ص ١٠ و ١٥٣ .

الملكة حتشبسوت Hatshepsout

ولما مات تحوتمس الثانى آل الملك إلى (حتشبسوت) ابنة تحوتمس الأول بالاشتراك مع
تحوتمس الثالث (ابن أخيها) ، وتجدد النزاع على من ينفرد بالحكم .
واستطاعت (حتشبسوت) بتأييد أنصارها فى الدولة أن تنفرد به نحو سبعة عشر عاما ،
ولت فيها الوصاية على العرش إذ كان تحوتمس الثالث لا يزال صبيًا ، وكذلك ابنتها (نفرورع) .



معبد الدير البحرى بطيبة
شيدته الملكة حتشبسوت



سفينتان من سفن الحملة البحرية التجارية
التى أنفذتها حتشبسوت إلى الصومال (بلاد بونت)

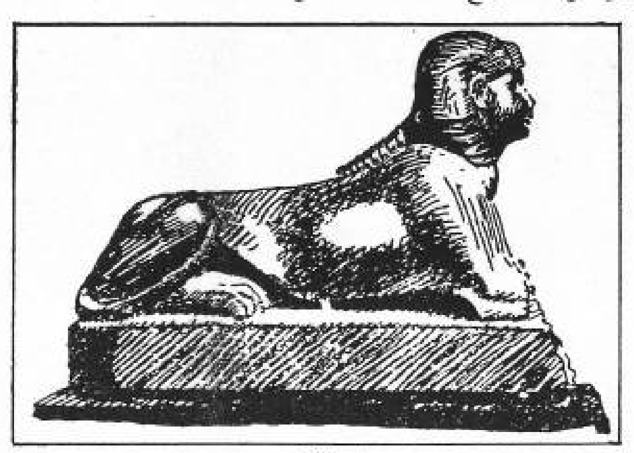
وسكت (تحوتمس الثالث) على هذا الوضع ، ولم يثر أى شقاق أو نزاع حرصًا على وحدة الصف ، وبرهن منذ الساعة الأولى على بعد نظره وما تفرع به من الحكمة والأناة .

وكانت (حتشبسوت) سيدة عظيمة ، وملكة عظيمة . وقد صورت على بعض آثارها مرتدية زى الرجال ، وكان لها من النشاط ما يفوق نشاط كثير من الرجال ، على أنها لم تكن محاربة ، ولم تكن تميل إلى امتشاق الحسام .

فصرفت همتها فى الإصلاح والتعمير بعد التخريب الذى أصاب البلاد أثناء حكم الهكسوس .
وهى بانية معبد « الدير البحرى » المشهور فى طيبة ، القائم فى حضن الجبل (انظر ص٨٩) والذى يقصده الناس من كل فج حتى اليوم ليشاهدوا فيه جمال الفن وروعة التصميم والبناء .

وكان لمهندسها القدير (سنموت) Senmout فضل كبير فى هذا البناء الضخم وتصميم كثير من الآثار التى خلدت اسم حتشبسوت ، وكان سنموت هذا أهم شخصية فى عهدها ، وكان أثيرا عندها والمربى الأول لابنتها (نفرورع) . وصاحب الكلمة النافذة فى الدولة ، إلى أن تغيرت عليه فى أواخر عهدها وأقصته عن النفوذ والسلطان .

وقد أقامت مسلتين كبيرتين بساحة الكرنك ، وتعتبران أعلى الآثار المصرية التى يرجع تاريخها إلى تلك العصور ، لأن ارتفاع كل منهما بلغ حوالى سبعة وتسعين قدما ونصفا أما زنة كل منهما فتقرب من ٣٥٠ طنا ، ولا تزال إحداهما شاخصة فى مكانها الأصلى إلى الآن تسترعى أنظار الزائرين كل حين وبلغ عدد المسلات التى أقامتها ستًا .



تمثال الملكة حتشبسوت
فى شكل (أبو الهول)

حملة بحرية إلى الصومال

وأوفدت (حتشبسوت) حملة بحرية كبيرة إلى بلاد الصومال (وكانت تسمى بونت) لتبادل تجر معها .

وكانت حملة سلمية ودية ، مؤلفة من خمس سفن شراعية .

وقد أقلعت هذه السفن من طيبة على النيل ، واتجهت شمالاً حتى بلغت وادى الطميلات ، وسارت فى القناة التى حفرت فى عهد سنوسرت الثالث حتى بلغت البحيرات المرة ، فالبحر الأحمر .

وحملت السفن إلى الصومال كثيرًا من مختلف الجواهر والمعادن والحلى والأطعمة والأشربة والسلاح ، وعادت بالكثير النفيس من حاصلات تلك البلاد ومنتجاتها ، كشجر المر والبخور والصمغ والأبنوس والتبر والعاج والحيوان وكانت هذه الحملة من أهم أعمالها العمرانية .

وأرسلت البعثات إلى سيناء لاستثمار ما فيها من المناجم ، ونهضت بمصنوعات البلاد وزادت من ثروتها ، وكان عهدها عهد سلام وازدهار ورخاء للشعب .

فلما توفيت انفرد تحوتمس الثالث بالملك ، ومحا اسمها من الآثار التى خلفتها .

تحوتمس الثالث

(١٤٩٠ - ١٤٣٦ قبل الميلاد)

هو ابن تحوتمس الثانى . وابن أخى حتشبسوت

ووالدته تدعى (إيزيس) ، وهى زوجة ثانوية لأبيه (من الجوارى) ، ومن حقها أن تفخر بأنها أنجبت لمصر البطل العظيم تحوتمس الثالث .

ولما توفى أبوه كان تحوتمس لا يزال صبيا لم يبلغ الحلم بعد ، فتولت حتشبسوت وقتًا ما الوصاية عليه وعلى ابنتها نفر ورع ، ثم انفرد بالحكم بعد وفاة حتشبسوت .

وهو أعظم ملوك مصر قاطبة كما سيجىء فى الفصل التالى .



إيزيس والدة البطل العظيم
تحوتمس الثالث



تحوتمس الثالث (أو الأكبر) بلغت مصر القديمة أوجها فى عهده
فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد

الفصل السادس

أوج المجد

مصر فى عهد تحوتمس الثالث – أو الأكبر

بلغت مصر القديمة أوج المجد فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، على عهد تحوتمس الثالث Thoutmes . ويسمى (الأكبر) .

عندما تولى هذا الملك عرش مصر ، كانت الأطماع تتجه إليها ، وكان الطامعون قد أخذوا يتربصون بها حين رأوا قوة مصر الحربية مسالمة متراخية فى عهد الملكة (حتشبسوت) ،فظنوا بجيش مصر الظنون .

وخيل لهم الوهم أن الملك الشاب تحوتمس الثالث لا يقوى على إحباط مؤامرتهم وصد تحركاتهم العدائية .

ولم تكن مواهب تحوتمس الثالث الحربية قد تجلت بعد وظهرت للعيان . لأنه لم يسبق له قبل تولى العرش أن مارس الحرب والكفاح .

فحدث تحالف بين أعداء مصر فى سورية ولبنان ، يتزعمه أمير (قادش)[1] ، وهو من بقايا الرعاة (الهكسوس) فأخذ هو وحلفاؤه يثيرون فريقًا من الأهلين ضد الحكم المصرى الذى كان مبسوطا على البلاد نحو خمسين عامًا منذ عهد تحوتمس الأول ، وانضم إلى هذا الحلف بعض سكان سورية وفلسطين ، كما انضمت إليه مملكة (ميتانى)[2] ، وتألبوا جميعًا على مصر لينالوا منها ويقوضوا سلطانها فى تلك الجهات .

وإذ توالت النذر بأن هذا الحلف إذا ترك وشأنه فإنه لا يلبث أن يكون مصدر خطر على مصر ، فقد بادر تحوتمس الثالث إلى مهاجمة هؤلاء الحلفاء فى عقر دارهم ، واعتزم فى أوائل حكمه أن ينازلهم حيث كانوا ، فأعد للزحف عليهم جيشًا مدربًا منظمًا كان هو على رأسه ، واستعد للحرب والنضال .

وبدأ زحفه فى أبريل سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد من مدينة ثارو Tharu[3] .

وكان جيشه مؤلفًا من نحو عشرين ألفا إلى ثلاثين ألف مقاتل ، وسار بقيادته ، فوصل إلى

(١) قادش هى الواقعة على نهر العاصى (الأورونت) جنوبى بحيرة حمص (انظر الخريطة الملحقة بهذا الفصل) .

(٢) من بلاد الرافدين (انظر موقعها على الخريطة الملحقة بهذا الفصل) .

(٣) مكانها الآن عند مدينة القنطرة الحالية .

غزة التى تبعد نحو ١٢٥ ميلا عن (ثارو) بعد مسيرة تسعة أيام ، وهى مدة وجيزة بالنسبة لذلك العصر لانتقال جيش بأكمله طول هذه المسافة ، ثم استمر زحفه إلى الشمال ، ثم إلى الشرق ، قاصدًا سهل (مجدو) حيث كان الأعداء يحتشدون هناك[1] .

معركة مجدّو

(سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد)

تعد معركة (مجدّو) من المعارك الفاصلة فى التاريخ .

تقدمت قوات أمير (قادش) وحلفائه جنوبًا ، واحتلت حصن (مجدّو) على المنحدر الشمالى لجبل (الكرمل) ، واتخذته أول موقع منيع لصد زحف الجيش المصرى القادم من سهل مجدّو .

وحين علم تحوتمس الثالث باحتلال الأعداء هذا الحصن ، اتجه إليه بجيشه .

وكان أمامه ثلاث طرق لعبور تلك المنطقة الجبلية ، اثنان منها يدوران حول سفح جبل الكرمل ، والثالث طريق ضيق صعب المرتقى يصل مباشرة إلى أبواب مجدّو .

وعقد تحوتمس مجلسًا حربيًا ، شاور فيه مستشارية العسكريين فى أىّ الطرق يختار ، فأشاروا عليه باجتناب الطريق الضيق واختيار أحد الطريقين الآخرين .

ولكنه أصر على السير فى الطريق الوعر ، لأنه أقرب الطرق وأكثرها استقامة .

وفى فجر يوم الواقعة (١٥ مايو سنة ١٤٧٩ ق . م .) أمر تحوتمس الجيش بالزحف والهجوم على العدو ، واعتلى مركبته الحربية البراقة ، المصنوعة من خليط الذهب والفضة ، وسار على رأس جيشه فى الطريق الوعر ، فبعث فى نفوس جنوده الحماسة والحمية ، وشجعهم هو قائلا : سأسير أمامكم لكى أظهر لكم الطريق فتقتفوا أثرى .

وقد تأججت فى نفوس الجنود روح الحرب وبلغت مشاعرهم ذروتها .

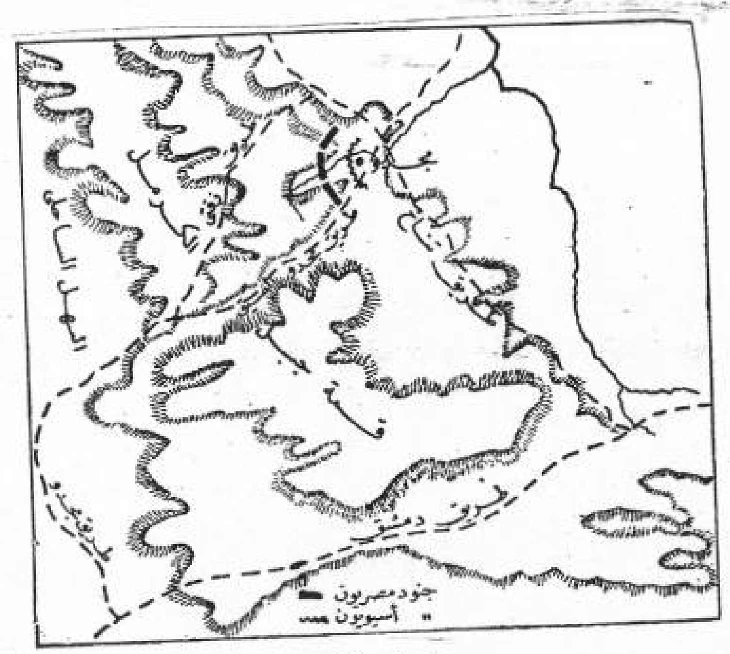
وإذ شاهد أمير قادش هذا الهجوم ألقى بجنوده بين جيش تحوتمس ومجدّو ، فانقض عليهم تحوتمس وهو فى مقدمة جيشه شاهرًا حسامه ، وأخذ الجيش المصرى يدحرهم ويفتك بهم .

وعلى أثر هذا الهجوم تقهقر العدو وارتد نحو مجدّو ، واحتمى بها ، فحاصرها الجيش المصرى ، وظل على حصارها حتى سلمت بعد أن فر منها أمير قادش ، وعظمت غنائم الجيش المصرى فى هذه الموقعة ، وكانت نصرًا مبينًا فرحت له نفوس المصريين جميعًا .

يقول برستد Breasted تعليقًا على هذا النصر : « لكى يتصور القارئ الصعوبات التى قاساها تحوتمس الثالث فى حروبه الآسيوية يجدر به أن يطلع على الأهوال التى قاستها جنود نابليون

(١) انظر موقع مجدو على الخريطة ص ٩٦ .

فى تلك المنطقة سنة ١٧٩٩ بعد الميلاد أثناء زحفها من مصر إلى مدينة عكا التى تبعد عن حدود القطر المصرى بقدر المسافة التي تبعد بها مجدّو (تقريبًا) . ويقول أيضا : (هذا هو أقدم جيش معروف للآن دخل ذلك السهل التاريخى الذى أصبح من ذلك الوقت معتركًا حربيًا حتى اللورد (أللنبى) سنة ١٩١٨ ميلادية ،ويلاحظ أن (أللنبى) فى زحفه على الجيش التركى المتقهقر قد اتخذ نفس الطريق الذى سار فيه تحوتمس الثالث »[١] .



خريطة معركة مجدو
سنة ١٤٧٩ قبل الميلاد
(مقتبسة من خريطة برستد)

وعامل تحوتمس الأسرى من الأعداء معاملة حسنة كريمة .

وعلق على ذلك المؤرخ ويجول Weigall بقوله : « إن المصريين كانوا أعظم شعوب العالم القديم رحمة وإنسانية »[٢] .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق – ص ١٩٠ و ١٩٤ .
(٢) سليم حسن – مصر القديمة – جـ ٥ ص ٤٠٥ وويجول
Weigall : History of the Pharaons

نتائج معركة مجدّو

قررت معركة (مجدو) مصير فلسطين ووطدت سلطة مصر فيها ، وفتحت أمام تحوتمس الثالث طريق لبنان وسورية ، ووصل إلى منحدرات هذين القطرين ، وكانت تحت حكم أمير قادش ، فسرعان ما سلمنا للمصريين ، وقد امتلأت نفوس الأعداء نزعا من هيبته .

وأخذ تحوتمس ينظم ما أخضعه من البلاد ، ويوطد السلم والأمن فيها ، ويستبدل بحكامها المعادين آخرين موالين له .

وسمح للحكام الجدد أن يحكموا البلاد بحرية بشرط أن يدفعوا لمصر الجزية ، ووصلت سلطته إلى جبال لبنان الشمالية ، وتوغل حتى مدينة دمشق .

وعامل الأهلين بالرفق والعدل ، وحبب إليهم العلوم والمعارف ، وغرس فى قلوبهم حب مصر .

وعاد إلى مصر فى أوائل أكتوبر من ذلك العام (١٤٧٩ ق . م .) ووصل إلى طيبة ، فاستقبله الشعب استقبالاً مجيدًا .

وجدد تحوتمس على تعاقب السنين حملاته على الأقطار الأسيوية حتى وصل إلى الفرات . وقد رأى بثاقب نظره أن مدينة قادش الواقعة على نهر العاصى (الأورونت) تقف عقبة أمامه وتحول دون وصوله إلى وادى الفرات .

فأعد أسطولاً يشترك مع الجيش البرى فى هذه الحملات ، واتخذ من الشواطئ الفلسطينية والفينيقية التى فتحها مواقع لتأمين خطوط جيشه فى الزحف .

قال برستد فى هذا الصدد : « ولا شك أن هذه الخطوات سديدة لدرجة يستحيل على أى ضابط حربى حديث أن يبتكر أحسن منها بحيث تناسب أحوال تلك العصور ، أو أن ينجزها بمثل ما أنجزها تحوتمس من الدقة والمثابرة ، والحق أن الحلفاء لو اتبعوا فى الحرب العالمية (الأولى) هذه الخطة فى محاربة الترك لفازوا بالنصر هناك فى أقل من سنة واحدة[١] .

سقوط قادش

ووصل تحوتمس الثالث إلى قادش معقل أميرها الذى ناوأه فى حملاته وضرب عليها الحصار وهاجمها حتى سلمت ،وكان سقوط قادش انهيارًا لآخر صرح للهكسوس .

وأتم إخضاع شاطئ فينيقية (لبنان) .

(١) برستد – تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ١٩٦

سقوط قرقميش

وأعد حملة أخرى للوصول إلى بلاد الرافدين (ما بين النهرين) زحف عليها من طريق قادش ، وأعد لعبور الفرات سفنًا حملت أجزاؤها على عربات وصنعت هذه السفن فى (جبيل) ونقلت إلى قرقميش .

واستولى على (قرقميش) إذ جرت بينه وبين ملك (ميتانى)[1] ، معركة انتهت بهزيمة هذا الأخير ، وعبر تحوتمس نهر الفرات ، ووطدت هذه المعركة سلطته فى بلاد ميتانى .

وأقام على ضفة الفرات لوحة تذكارًا لانتصاره ، وكانت على مقربة من اللوحة التى أقامها جده تحوتمس الأول .

وأخذ أمراء ما بين النهرين يظهرون الولاء والخضوع له ، ويدفعون الجزية لمصر ، وسالمته مملكة ميتانى وبابل ومملكة خيتا (الحيثيين) بآسيا الصغرى وأرسلت إليه الهدايا .

واستمرت حملات تحوتمس الثالث إلى أن كانت الحملة السادسة عشرة . إذ أعلنت مدينة قادش العصيان يساندها ملك ميتانى فهاجمها من جديد وخضعها وقضى بذلك على كل أثر لمعارضة النفوذ المصرى فى سورية .

وبلغت قوة مصر البحرية درجة كبيرة خضع لها ملك قبرص .

وتمكن الأسطول المصرى من بسط نفوذه على جزيرة كريت وبقية الجزر الشرقية للبحر الأبيض المتوسط .

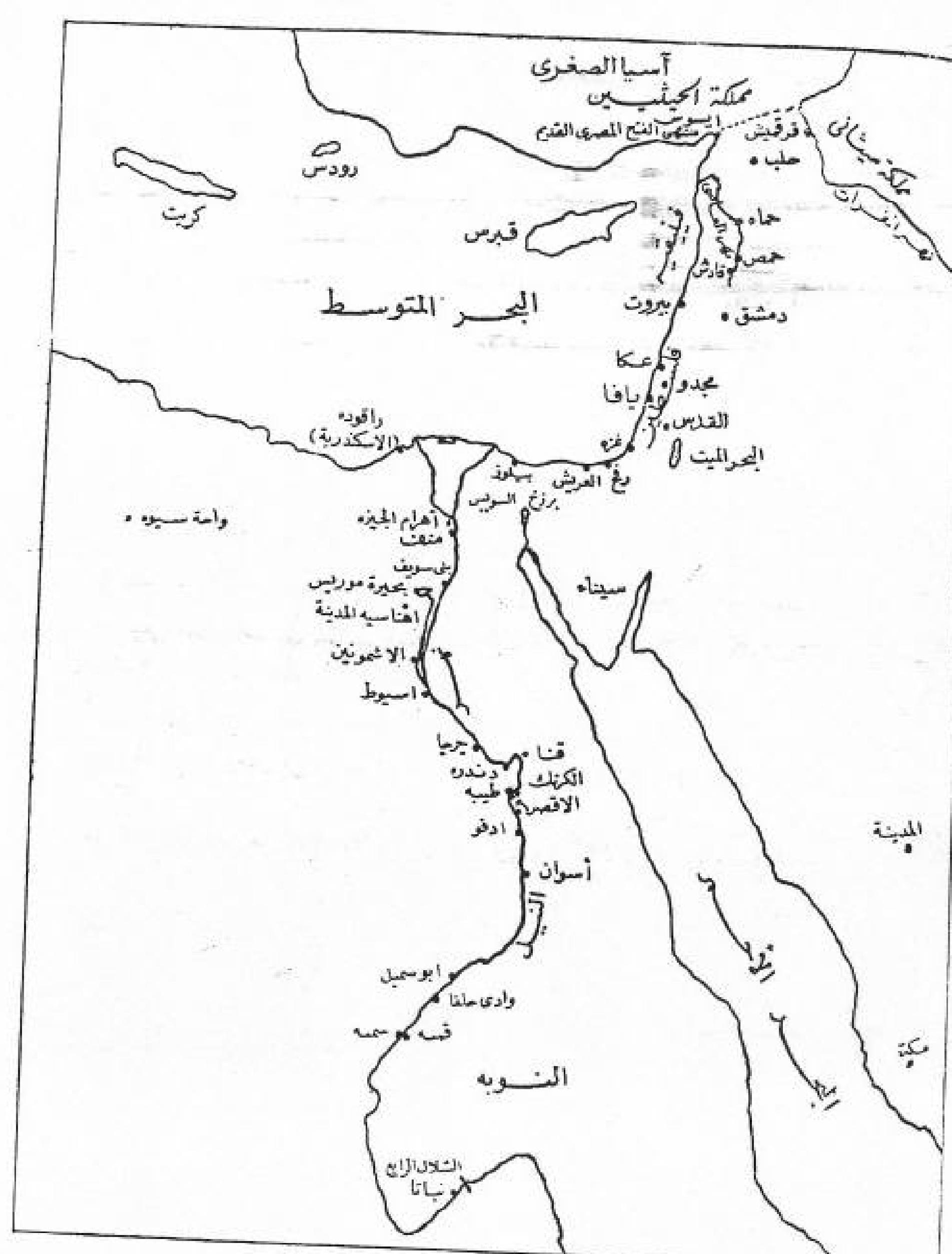
من أعالى الفرات شمالا
إلى الشلال الرابع على النيل جنوبا

وامتدت حدود الدولة المصرية فى عهده فوصلت إلى أعالى الفرات شمالاً وجزر البحر الأبيض المتوسط ، ووصلت جنوبًا إلى الشلال الرابع على النيل ، وكانت هذه الحدود أقصى ما وصلت إليه مصر القديمة .

وتأسست الإمبراطورية المصرية وبلغت أوجها فى عهده ، وهو أول عاهل خضع له العالم المتمدن فى إفريقيا وآسيا ، وأول منشئ عظيم للإمبراطورية فى العالم ، وأول من سبق الإسكندر ونابليون فى هذا المجال .

---

(١) كانت مملكة ميتانى تقع فى شمال بلاد الرافدين وفى الجنوب منها مملكة أشور . تليها مملكة بابل .



خريطة الدولة المصرية فى عهد تحوتمس الثالث فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، كانت حدودها تمتد من أعالى الفرات شمالاً إلى الشلال الرابع على النيل جنوبًا ،

نابليون الشرق

ذاعت شهرة تحوتمس الثالث كقائد عظيم ، وتجلت مقدرته الحربية فى حروبه وحملاته الموفقة التى بلغت سبعة عشرة حملة كان النصر حليفه فيها جميعا .

وقد لقبه المؤرخون بنابليون الشرق .

وصارت طيبة عاصمة العالم المتمدن ، وعرفت لدى الإغريق بالمدينة ذات المائة باب ، وجاء ذكرها بهذا الاسم فى أشعار هومير ، فأطلق عليها نفس الاسم « المدينة ذات المائة باب » يتسع كل باب لمائتى رجل ، وتخرج منها جيوش فرعون بكامل عدتها وعتادها فوق عجلاتها الحربية .

بين مصر وسورية

عامل تحوتمس الأهلين فى فلسطين ولبنان وسورية بالرفق والعدل ، لم يكن جبارًا فى الأرض ولا متغطرسًا ، بل كان حاكمًا قويمًا يحب العدل ويدافع عنه ، يكره الانتقام وسفك الدماء ، لم ينتقم من الأمراء الذين ساروا فى ركاب أمير (قادش) بل أبقى الموالين منهم فى مراكزهم .

وفى سبيل دعم الروابط بين مصر وسورية ، أمر بإيفاد بعض أبناء حكام تلك البلاد إلى مصر ليتثقفوا وينهلوا من العلوم والمعارف ، وليغرس فى قلوبهم حب مصر .

لم يكن يبغى من فتح هذه البلاد تأمين كيان مصر فحسب ، بل أراد أن يجمع بين فلسطين وسورية ولبنان ومصر فى وحدة شاملة ، ففى فتوحه الآسيوية لم يرهق الأهلين ولا كان يحاربهم ، بل كانت حروبه ضد حلف يتزعمه أمير قادش من بقايا ملوك الهكسوس (الرعاة) ، ولم يكن أمير قادش من أهل هذه البلاد ولا من المواطنين فيها ، بل كان من غزاتها وسليل غزاتها السابقين .

ومن المحقق أن الهيبة التى كانت لتحوتمس فى النفوس والتى نتجت عن انتصاراته فى ميادين القتال ، والقوة الحربية التى اعتمد عليها فى بسط سيطرته على تلك الأصقاع ، كانت هى الدعامة الأولى للدولة المترامية الأطراف التى أنشأها فى آسيا ، ولولا تلك القوة لما استطاع أن يوطد سلطانه فيها .

وفاة تحوتمس الثالث

توفى تحوتمس الثالث سنة ١٤٣٦ ق .م ، بعد أن جلس على عرش مصر أربعة وخمسين عاما كانت أوج المجد لمصر القديمة .

يقول برستد فى وصفه وتمجيده : « إن صفات تحوتمس الثالث وشخصيته برزت فى التاريخ المصرى القديم بدرجة منقطعة النظير ، فى ملوك مصر قاطبة ، والحق يقال إن نشاطه فاق كل نشاط سواء أكان قبله أم بعده ، زد على ذلك أنه كان هاويًا فنانًا يتلهى وقت فراغه بصياغة الأوانى

ويبدع أشكالها ، وكان حسن التدريب فى السياسة ، حاد الذاكرة ، يقوم بالحروب الكبيرة فى آسيا مستعملا فى الوقت نفسه شدته فى منع انتشار الرشوة والحيف فى أثناء جمع الضرائب من الأهلين ، لذلك اعتبر عهد تحوتمس الثالث عهدًا ممتازًا فى مصر والشرق عامة ، ولم يظهر فى التاريخ إلى ذلك العهد ملك جمع إيراد مملكته الشاسعة وأقام عليه إدارة حكومية مركزية ثابتة مستمرة دامت سنوات عدة كما فعل ، وهو يذكرنا بتاريخ الإسكندر المقدونى ، ونابليون لتشابه تاريخهم جميعًا ، وخلاصة القول أن تحوتمس كان أول رجل فى التاريخ أسس إمبراطورية حقيقية ، فهو لذلك أقدم بطل معروف على الأرض ، ولا غرابة فقد خضعت لقوته آسيا الصغرى وأعالى الفرات ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، ومستنقعات بابل وشواطئ ليبيا السحيقة وواحات الصحراء ، وهضاب الصومال ، وشلالات النيل العليا ، يضاف إلى ذلك أن أمراء تلك الجهات تسابقوا فى تأدية جزيتهم وهداياهم إليه ، ويعتبر هذا برهانًا ساطعًا وتذكارًا عظيما للعالم على نجاح نظمه وترتيباته الحديثة ، وقد تجلت شخصية هذا الملك العظيم وشدة توقيعه للقصاص العادل فى مشاحنات أمراء سورية ، فطهر جو الشرق السياسى من المفاسد ، ومن أجمل مآثر هذا الملك مسلتاه الأثريتان العظيمتان — المنصوبتان على شاطئ المحيط الأطلسى[1] .

وقد اعتبرت هاتان المسلتان فى بلادنا نحن الغربيين تذكارًا عظيما لأول بناء للإمبراطوريات فى تاريخ العالم »[2] .

وقال فى وصف نتائج الروابط بين مصر والأقاليم الآسيوية : « يمتاز هذا العهد بكثرة رخائه وتقدم مدنيته ، فقد زالت العوائق التى أوجدها الهكسوس بين مصر وآسيا ، ومحا تحوتمس الثالث بحروبه أثرها من الوجود ، فتيسر التعامل بين إفريقية وآسيا ، وزالت الفوارق القديمة فلم يبق هناك ممالك صغيرة بل أصبحت البلاد كلها الممتدة من منابع الفرات إلى أعالى النيل متحدة على تباين عناصرها ولغاتها ، وأخذت تجارة شرقى البحر الأبيض المتوسط تتحول تدريجيا من إقليم الفرات وبابل إلى مصر ، وبالأخص إقليم الدلتا الذى كثرت خيراته وتضاعفت روابطه التجارية ، وكان هذا الإقليم الأخير منذ عدة قرون على اتصال بالبلاد الآسيوية بالقناة التى توصل البحر الأحمر بالنيل ، فانحصرت تجارة العالم فى الدلتا ، وصارت أكبر أسواق العالم ، وكانت آشور فى هذا الوقت فتية ، وانعدم من بابل نفوذها السياسى تماما فى البلاد الغربية ، فأصبحت سلطة فرعون على إمبراطوريته الشاسعة عظيمة مهيبة »[3] .

(١) إحداهما الآن بلندن والثانية بنيويورك .
(٢) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور — المرجع السابق ص ٢١١ .
(٣) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور — المرجع السابق ص ٢١٣ .

خلفاء تحوتمس الثالث

أمنحوتب الثانى[1]

[illegible] الآسيوية عصا الطاعة على مصر بعد وفاة تحوتمس الثالث ، فانبرى لها ابنه [illegible] ، وقد أنشأه أبوه النشأة العسكرية وغرس فيه الشجاعة والفروسية ودربه على [illegible] وكان ملكا قويًا نافذ البصيرة ماضى العزيمة ، وقاد الجيش المصرى بنفسه كما كان [illegible] العصيان .

[illegible] ١٤٢٠ قبل الميلاد بعد أن حكم حوالى ٢٦ سنة .

تحوتمس الرابع

هو حفيد تحوتمس الثالث ، وقد ذهب على رأس جيشه إلى سورية والفرات لقمع الفتن والثورات ، وكان آخر ملوك مصر المحاربين من الأسرة الثامنة عشرة .

وعقد معاهدة صداقة مع (ميتانى) ثم مع (بابل) ، وتزوج من ابنة ملك ميتانى ليؤكد الصداقة بين البلدين ويفتح بين دول الشرق عهدًا جديدًا من الصلات الودية والمصاهرة والتحالف .

ومن أعماله أنه أتم إقامة المسلة التى تركها جده تحوتمس الثالث بمدخل الكرنك الجنوبى ، وارتفاع هذه المسلة الشاهقة مائة وخمسة أقدام ، وهى أكبر مسلة باقية إلى الآن .

وقد نقلت إلى إيطاليا حيث لا تزال منصوبة بروما .

أمنحوتب الثالث[2]

هو ابن تحوتمس الرابع من زوجته الميتانية .

وفى عهده تنافست بابل وآشور وميتانى وقبرص فى اكتساب صداقة مصر ، ويعتبر هذا أول مظهر سياسى دولى فى تاريخ الممالك المعروفة وقتئذ .

وقد سمى (موريه) النظام الذى أنشأه ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى البلاد الآسيوية نظام حماية مقرونا بالاتجاهات الحرة والرفق بالأهلين .

قال فى هذا الصدد : « إن الإدارة المحلية لهذه البلاد كانت إدارة أهلية فى معظم نواحيها ، [illegible] كانت أهلية مع بعض فئات من الضباط والموظفين المصريين ، وهناك مفتشون لهم سلطات واسعة يعملون تحت رقابة الملك الشخصية ، وهذا النظام قد أسميناه فى العصر الحديث [illegible] ، وقد اقتبسناه فى القرن التاسع عشر ، ومما يشرّف المصريين أنهم طبقوه فى آسيا

(١) [illegible] أيضًا امينوفيس .
(٢) [illegible] أيضًا امينوفيس .

قديمة مع ميل حقيقى للحرية وحكمة مؤكدة بالنظر لما ركب فى طباع السوريين والكنعانيين من مجانبة للمرونة ، فما أبعد الفرق بين هذه المعاملة التى تشرّف أبناء وادى النيل وبين الوسائل القاسية للملوك الآسيويين الذين عرفوا بالمذابح والنهب وتشريد السكان تشريدًا جماعيًا ، وإحلال الجند المستعمرين محلهم فى البلاد المحتلة »[1] .



الملكة (تى)
زوجة أمنحوتب الثالث

تزوج أمنحوتب الثالث من فتاة مصرية من صميم الشعب تدعى (تى) . كان أبوها كاهنًا ، وأمها إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس .

(١) موريه – Moret مصر الفرعونية ص ٣١٨ L'Egypte pharaonique .

وكانت (تى) فى عهده لها النفوذ الكبير باعتبارها ملكة مصر ، وكانت على جانب كبير من الذكاء والجمال ، وكانت لها فى نفسه منزلة كبيرة .

ومن دلائل حبه لها أن أمر بحفر بحيرة تلهو بها فى قارب من خشب الأبنوس مصفح بالذهب بجوار قصرها ، وبلغ طول هذه البحيرة نحو ١٨٠٠ متر وعرضها ٣٥٠ مترا ، وكان حفره لهذه البحيرة تلبية لرغبة عابرة لها .

ثم تزوج عليها من أخت دشراتا ملك ميتانى ، وكان يكثر من الزوجات والجوارى .

على أن (تى) ظلت زوجته المفضّلة ، واستمرت على نفوذها وسيطرتها على الملك وعلى شئون الدولة .

وقد أرسل (دشراتا) ملك ميتانى إلى أمنحوتب الثالث (صهره) خطابا يدل على الود بينهما ، ويدل على السذاجة فى التفكير ، وعلى أن مصر كانت مطموعًا فى ثرواتها وخيراتها حتى ممن كانوا يرتبطون بها بصلات الود والمصاهرة .

قال : « إلى أخى وصهرى الذى يحبنى وأحبه أمنحوتب الثالث الملك المعظم وفرعون مصر .

« من دشراتا الملك العظيم أخيك وحميك الذى يحبك ، أنا فى صحة جيدة ، لعلك أنت كذلك ، وكذا منزلك وأختى وسائر زوجاتك وبناتك وعجلاتك وخيلك ، وكبار رجالك وأرضك وكل ممتلكاتك ، لعلكم جميعًا بخير ، كان آباؤك قديما على أوفق وئام مع آبائى ، لكنك قويت تلك الرابطة عما كانت عليه كثيرًا ، حقيقة كنت صديقًا حميمًا لوالدى ، وتجاذبنا أطراف الصداقة معًا ، لكنها الآن أشد مما كانت عشر مرات ، لعل المعبودات تزيد من ودنا هذا على توالى الأيام ، ولعل المعبودة (تشوب) (معبودة مملكة ميتانى) والمعبود آمون يحافظان على هذا الود كما هو الآن ، لما حضر إلىّ رسول أخى المدعو (مانى) قائلاً إنك تخطب كريمتى لتكون ملكة على مصر ، لم أتجاسر على تكدير قلب أخى ، بل استمررت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذًا لرغبتك يا أخى أرسلتها مع (مانى) الذى سر جدًا برؤيتها ، فإذا وصلت إلى أرضك يا أخى أتحشم أن المعبودة (عشتار) ، والمعبود آمون ، يجعلانها محبوبة ومقبولة لديك ، لقد أحضر لى رسولى (جيليا) خطابك يا أخى ، ولما قرأته فرحت فرحًا جزيلاً حتى أننى قلت وقتئذ إذا فرضنا أن صداقتنا ذهبت ، فإن هذه الرسالة ستجعلنى أثابر على الود لك الآن ، وكتبت لك يا أخى قائلاً : أما من جهتى فإننا سنكون أعز أصدقاء وأوفى أخلاء ، ثم سألتك يا أخى أن تقوى صداقتنا أكثر عشر مرات مما كانت عليه أيام آبائنا ، ولقد طلبت منك يا أخى مقدارًا كبيرًا من الذهب قائلاً : أرسل لى يا أخى أكثر مما كان يرسل لوالدى من قبل ، لقد كنت ترسل لوالدى كميات كبيرة من الذهب ، أما الذى أرسلته فعبارة عن قرص من الذهب يظهر أنه مخلوط بنحاس ، لذلك أرسل لى يا أخى كميات كبيرة من الذهب

بلا حساب وليكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى كثير كالتراب »[1] .

فمملكة ميتانى فى شمال العراق ربطتها بمصر روابط التحالف والود والمصاهرة ، ولكن مملكة الحيثيين بالأناضول ناصبتها العداء ، فاستنجد ملكها بمصر فأمده أمنحوتب الثالث بنجدة ساعدته ، فحنق ملك خيتا (الحيثيين) على مصر وألب عليها عناصر الشغب فى سورية .

وفى آخر عهده ظهرت بوادر الهجوم من جانب (الحيثيين) فلم يذهب إليهم على رأس جنده يرد هجومهم كما فعل تحوتمس الثالث وأمنحوتب الثانى وتحوتمس الرابع ، بل اكتفى بإرسال جيش لمحاربتهم .

وكان أمنحوتب الثالث متراخيًا فى شئون الدولة العليا ، فتخلخل الحكم المصرى فى آسيا ، وظهرت المؤامرات فى سورية يدبرها أمير قادش وملك خيتا (الحيثيين) .

ولم يكن ميالا إلى الحرب والهيجاء ، وركن إلى حياة الدعة والاستمتاع

وتوفى بعد أن حكم البلاد نحو ست وثلاثين سنة

وبعد وفاته خلفه ابنه أمنحوتب الرابع (إخناتون) من زوجته (تى) . وكان قد اشترك فى الملك مع أبيه أمنحوتب الثالث عدة سنين قبل وفاته .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق ص ٢٢١ .

الفصل السابع

إخناتون وثورته الدينية

(١٣٧٠ - ١٣٤٩ ق.م)

كانت مصر فى حاجة بعد وفاة أمنحوتب الثالث إلى ملك قوى الشكيمة مثل تحوتمس الثالث، يصد عنها هجوم الطامعين فيها ، ويقفهم عند حدهم ، ويقمع الفتن التى يديرونها فى بعض الأصقاع الآسيوية .

ولكنها وجدت من إخناتون (آمنحوتب الرابع) ملكا مسالما ، وفيلسوفا هادئا ، منصرفا إلى دعوة دينية .

حقا إن دعوته هى اقتراب من رسالة التوحيد .

فلقد فكر طويلاً فى تبسيط العقيدة الدينية ، ورأى من تعدد المعبودات ما يتنافى مع التبسيط الذى ينشده ، كما رأى فى استفحال سلطان كهنة المعابد وتدخلهم المستمر فى شئون الدولة خطراً على أداة الحكم ، فناوأهم وناوءوه ، ودعا إلى توحيد الآلهة ، وجعل من القوة الكامنة فى الشمس (آتون) رمزاً للإله الواحد .

كل هذا لا شبهة فيه ، فدعوته وقتئذ كانت سليمة ، وكان تفكيره تقدميا .

ولكن الواجب الأول على رئيس الدولة أن يعمل على حفظ كيانها ، لأن المحافظة على كيان الوطن أول واجب مفروض عليه ، بل على كل مواطن . وهو واجب مقدم على الأبحاث الفلسفية والدينية .

أما (إخناتون) فقد صرف كل همه إلى الثورة الدينية ، فى وقت كان فيه الوطن فى خطر، ومن هنا كانت المآخذ على شخصيته وسياسته .

ففى عهده حرك الحيثيون الفتن فى سورية ، واستولوا على مدنها الشمالية ، وانتقضت مدن عديدة فى فينيقية وفلسطين ، وسرى الانحلال إلى أطراف الدولة ، فلم يحرك (إخناتون) ساكنًا ، ومضى فى تأملاته ودعوته الدينية .

وفى نحو السنة السادسة من حكمه أعلن دعوته ، وجاهر بها على ملأ الناس ، وخاصم من أجلها الكهنة ورجال الدين كافة .

كانت دعوته قريبة من التوحيد ، ولكنها لم تصل إلى الكمال الذى وصلت إليه الرسالات السماوية .



إخناتون
ملك مصر ، وصاحب الثورة الدينية
القريبة من التوحيد

فمن أناشيده الدينية الدالة على ذلك قوله(1) :

أنت تشرق ببهاء فى أفق السماء
يا آتون الحى ، يا بداية الحياة
عندما تبزغ فى الأفق الشرقى
تملأ البلاد بجمالك
أنت جميل ، عظيم ، متلألئ ، وعال فوق كل بلد
وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها
لأنك أنت « رع » وتصل إلى نهايتها
وتخضعها لابنك المحبوب
وبالرغم من أنك بعيد . فإن أشعتك على الأرض
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك
وعندما تغرب فى الأفق الغربى ؟
تسودّ الأرض كما لو كان حل بها الموت
ينام الناس داخل حجرة وقد لفوا رءوسهم
فلا ترى عين عنًا أخرى
ويمكن أن تسرق أمتعتهم التى يضعونها تحت رءوسهم فلا يحسون بذلك
يخرج كل أسد من عرينه
وجميع الزواحف تخرج لتلدغ
ويلف الظلام كل شىء ويعمّ الأرض السكون
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه
وعندما يصبح الصباح وتطلع من الأفق
وعندما تضىء كآتون أثناء النهار
تطرد الظلمة وتمنح أشعتك
فالأرضان فى عيد كل يوم
ويستيقظ الناس ويقفون على الأقدام
لأنك أنت الذى أيقظتهم .

* * *

يغسلون أجسامهم ويلبسون ملابسهم

(1) كما عربها الدكتور أحمد فخرى فى كتابه (مصر الفرعونية) ص ٣٠٩ .

ويرفعون أذرعهم ابتهالاً عند ظهورك
والناس جميعًا يؤدون أعمالهم
وتقنع كل الحيوانات بمراعيها
وتزدهر الأشجار والنباتات
والطيور التى تطير من أعشاشها
تنشر أجنحتها لتمدح قوّتك
وتقف الحيوانات على أرجلها وكل ما يطير أو يحط
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر
وتسبح الأسماك فى النهر أمامك

* * *

لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط
أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء
إنك أنت الذى يجعل من القطرة السائلة إنسانا
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه
لأنك تعنى به وهو فى الرحم
أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم
عندما ينزل الطفل من بطن أمه ليتنفس فى اليوم الذى يولد فيه
تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه
وعندما يصرخ الفرخ وهو داخل البيضة
فأنت الذى يمده بالنفس فى داخلها ليعيش
وعندما تتم خلقه داخل البيضة تجعله يكسرها
ويخرج من البيضة وهو يصوص عندما يحين موعده
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها

* * *

ما أعظم أعمالك التى عملتها !
إنها خافية على الناس
أنت الإله الأوحد . لا شريك لك فى الملك

لقد خلقت الدنيا كما شئت
عندما كنت وحدك
الناس والماشية والوحوش الضارية
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه
وكل ما يرتفع فى السماء ويطير بجناحيه

• • •

فى بلاد سورية والنوبة وأرض مصر
تضع كل شىء فى مكانه
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
ويحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له
يختلف الناس فى لغاتهم
كما يختلفون أيضا فى طبائعهم
يمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية
أنت الذى خلقت نيلا فى ذلك العالم الآخر
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك
وأنت سيدهم جميعًا ، سيدهم الذى يشغل نفسه من أجلهم
سيد كل أرض .الذى يشرق لأجلهم
أنت آتون شمس النهار عظيم البهاء

• • •

أنت الذى يعطى الحياة أيضًا لكل البلاد الأجنبية البعيدة
لأنك خلقت نيلا فى السماء
لينزل لأجلهم ويحدث أمواجًا فوق الجبال
مثل أمواج البحر
لتروى حقولهم فى قراهم
ما أجمل أعمالك يا رب الأبدية
فالنيل الذى فى السماء خلقته للأجانب
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام

• • •

أما النيل الحقيقى فإنه ينبع من العالم الآخر . لأجل مصر
تغذى أشعتك كل مرج
وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأجلك
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت
فالشتاء يبرد أجسامهم
والحرارة تجعلهم يحسون بك
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق منها
وحتى ترى كل ما صنعت
وذلك عندما كنت وحيدًا
تشرق فى صورتك كآتون الحى
لامعًا . مضيئًا ، فى جيئتك ورواحك
جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها
وسواء أكانت مدنًا أم بلادًا أم حقولاً طريقًا أو نهرًا
فإن كل عين تراك فوقها مشرقًا
لأنك آتون (شمس) النهار على الأرض

• • •

أنت فى قلبى
وليس هناك من يعرفك
غير ابنك (إخناتون)
لأنك أنت الذى خلقته عالما بمقاصدك ومدركا لقوتك
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك
وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم
فهم يحيون عندما تشرق
ويموتون عندما تغرب
إنك أنت الحياة بعينها
ويعيش الإنسان فقط إذا أردت
تتعلق العيون بالجمال حتى تغيب
ويترك الناس أعمالهم تغرب فى الغرب
ولكن عندما تشرق ثانية
يزدهر كل شىء لأجل الملك

لأنك أنت الذى خلقت الأرض
وأنت الذى خلقتهم (الناس) لأجل ابنك
الذى ولد من صلبك
ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، إخناتون
وزوجة الملك العظيمة .. نفرتيتى
عاشت متمتعة بالشباب دائما وإلى الأبد »

فالقارئ لهذا الدعاء يرى فى واضعه سعة الأفق وعمق التفكير ، وإحاطته بالكثير من أسرار الكون بالنسبة للعصر الذى ظهر فيه إخناتون أى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

ولعلك تلحظ فى جديته عن رأفة الله بشعوبه . أنه ذكر سورية والنوبة قبل مصر فى تعداد الشعوب ، وهذا يدل على أن تأملاته الفلسفية قد طغت على النظرة القومية الجديرة بملك مصر ، بل بكل مواطن من أهلها .

التوحيد عند قدماء المصريين

ويبدو من المحاضرة التى ألقاها علينا العلامة المؤرخ أحمد كمال باشا سنة ١٩٠٧ بنادى المدارس العليا ، أن عقيدة التوحيد كانت معروفة لدى المصريين القدماء قبل إخناتون ، وقبل عصر الأسرات الملكية ، فقد قال فى هذه المحاضرة تحت عنوان (التوحيد عند قدماء المصريين) :

« قالَ تعالى : ﴿قل هو الله أحد ۝ الله الصمد ۝ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾ ، هذه هى صيغة التوحيد عند المسلمين ، وهى موافقة تقريبًا للصيغة التى كان يدين بها المصريون قبل عصر الأسرات الملكية ، ويدلنا على ذلك رسوم هيروغليفية وجدت فى أوراق البردى القديمة وترجمتها :

(الله وحده ، لا ثانى له ، يودع الأرواح فى الأشباح ، أنت الخالق ، تخلق ولا تخلق ، خالق السموات والأرض) .

وإن الإفرنج كانوا يعتمدون إلى ما قبل عشر سنين[1] أن قدماء المصريين وثنيون ، ولكن زال هذا الاعتقاد – باكتشاف هذه الصيغة التى يعززها عدم وجود أصنام فى مقابر ذلك العهد القديم ، ثم قال : من أين أتى التوحيد لقدماء المصريين على هذه الصورة ؟ أتاهم التوحيد من نوح عليه السلام ، فقد كان موحدًا بدليل قوله تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا﴾[2] والخطاب للمسلمين الذين قدمنا عقيدتهم فى التوحيد ، وهنا يتجه اعتراض مؤداه إن الشرك كان شائعًا عند قدماء المصريين بدليل قوله تعالى : حكاية عن يوسف عليه السلام : ﴿ءأرباب

(١) سابقة على سنة ١٩٠٧ .
(٢) سورة الشورى الآية (١٣) .

متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار﴾[1] . ومعلوم أن يوسف كان سجينا عند فرعون مصر ، ونجيب على هذا بأن عقيدة الشرك لم تدخل إلا مع العرب فى الجاهلية الذين دخلوا مصر فى العهد القديم ، أى قبل عصر الأسرات ، وأن الوثنية أتت من بلاد العرب فى الجاهلية بدليل أن محمدًا ﷺ وجد بالكعبة ٣٦٥ صنما فهشمها ، وأن من الأصنام العربية اللات والعزى ومناة »[2].

ثابر إخناتون على دعوته ، ونقل العاصمة من طيبة إلى بلدة جديدة (أخت آتون) أى سماء آتون ، ومكانها الآن فى تل العمارنة[3] .

الملكة نفرتيتى
زوجة إخناتون

(١) سورة يوسف الآية (٣٩) .
(٢) صحيفة (اللواء) عدد ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٠٧ .
(٣) بمحافظة جرجا الآن .

وتيمن باسم آتون فغير اسمه وسمى نفسه (إخناتون) أى سرور آتون بعد أن كان اسمه أمنحوتب ، وناصره قلة من قومه ، ولكن كهنة المعابد ، كهنة آمون حاربوه حربًا شعواء ، وانضمت إليهم غالبية الشعب ، فكان عهده عهد ثوران فى الخواطر وتبلبل فى الأفكار .

على أنه عنى بتقدم الفنون الرفيعة ، فكان عهده ممهدًا للشأو الرفيع الذى بلغته فى عهد صهره توت عنخ آمون .

وجاء تراجع الدولة وتفككها فى عهده ، وتغلغل الحيثيين فى الولايات السورية ، وسكوت إخناتون عنهم ، وامتداد العصيان إلى فلسطين ، فكانت هذه الأحداث مضعضعة لدعوته الدينية .

ولا غرابة فى ذلك ، فإن المصير السياسى للدول له الشأن الأول فى النجاح أو الإخفاق الذى يصيب الدعوات الدينية أو السياسية أو الاجتماعية فيها ، فلا عجب أن أخفقت دعوة إخناتون ، لأن كيان الدولة السياسى قد تصدع فى عهده ومات بعد أن حكم نحو تسعة عشر عاما .

خلفاء إخناتون

تزوج إخناتون بفتاة مصرية اشتهرت فى التاريخ ، وهى (نفرتيتى)[1] فصارت ملكة مصر . ولم يرزق منها بأولاد ذكور ، وأنجبت له بنات .

سمنخ كارع

ولما توفى إخناتون خلفه على العرش صهره وأخوه (سمنخ كارع) ، ولم يدم ملكه طويلا .

توت عنخ آمون

وبعد وفاته خلفه (توت عنخ آمون) ، وهو صهر آخر لإخناتون ، وقد حكم نحو عشر سنوات . وتقدمت فى عهده الفنون ، والهندسة والعمارة ومظاهر الثراء والحضارة الرفيعة ، ومات فى سن مبكر إذ لم يتجاوز العشرين من العمر .

وهو الذى اكتشف مقبرته وكنوزه سنة ١٩٢٢ ، ذلك الاكتشاف الذى دوّى صداه فى العالم ، وجعل اسم توت عنخ آمون فى الخالدين ، وصار على تعاقب السنين حديث الناس فى شتى أقطار المعمورة ، لما بدا على ذخائره من الروعة والعظمة ، وتجلى فيها مبلغ ما وصلت إليه مصر القديمة من الحضارة والتقدم فى الفنون الرفيعة ، وفى أساليب المعيشة وقوة العقيدة .

(١) هى أخت إخناتون وبنت أمنحوتب (أمينوفيس) الثالث ، وكان زواج الأخ بأخته فى الأسرات الملكية مألوفا فى ذلك العصر .



توت عنخ آمون « القناع الذهبى لمومياه »

آى

انقطع نسل ملوك الأسرة الثامنة عشرة بوفاة توت عنخ آمون من غير عقب من الذكور . واعتلى العرش بعده الكاهن (آى) فترة وجيزة ، إذ كان موظفًا كبيرًا فى القصر الملكى ، وكان شيخًا كبيرًا طاعنا فى السن ، فأهلته هذه الظروف مجتمعة إلى اعتلاء العرش .

حور محب

ومرت فترة ضعف واضطراب بدأت من أواخر عهد إخناتون .

وكادت البلاد تقع فى هاوية الانقسام الداخلى والانحلال ، لولا أن قيض الله لها زعيمًا من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإنقاذ الوطن ، وهو (حور محب) الذى كان من ضباط الجيش فى عهد إخناتون وقائد الجيش فى عهد توت عنخ آمون .

ثم شغل المركز الذى شغله من قبل أمنمحات الأول .. ، فلقد برز أيضًا من صفوف الشعب وأنقذ مصر من الفوضى والانحلال ، وكلاهما كان عصاميًا . وكلاهما أسس ملكًا عظيمًا .

حور محب برز من صفوف الشعب

و(حور محب) من إقليم المنيا ، ولم يكن طامعًا ولا راغبًا فى أن يؤسس أسرة ملكية ، ولا أن يكون هو ملكًا ، ولذلك يُعد من الأسرة الثامنة عشرة ، وإنما مهد الأسرة التاسعة عشرة التى كان لها فى تاريخ مصر القديمة شأن كبير .

تولى حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلى ذلك دفعًا ، لإنقاذ البلاد من الهاوية التى تردت فيها ، فقد دخل طيبة زعيمًا لمصر وقائدًا لجيشها ، وتوج فيها ملكًا عليها .

فعاد إلى مصر الاستقرار الداخلى .

ولم يكن مؤيدًا لدعوة إخناتون الدينية ، ووقف فى صف كهنة آمون ، فأيدوه وناصروه .

ومع أنه نشأ نشأة عسكرية ، وكان قائدًا للجيش فإنه قدم توحيد الجبهة الداخلية على خوض غمار الحروب .

على أنه حارب الحيثيين .

وعقد مع ملك (خيتا) معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتًا على الحدود ، وتفرغ للإصلاح الداخلى ، حتى تستعيد البلاد قوتها وهيبتها .

فنظم شئون الجيش ، وسنّ القوانين الصالحة لمحاربة الرشوة والفساد فى دواوين الحكومة ، وأصلح المحاكم ، ومنع الاختلاس والتهريب عند دفع الضرائب ، وطاف فى أنحاء البلاد باحثًا عن الأشخاص الأكفاء الذين يمكن أن يأتمنهم على شئون الحكم والعدل والقضاء بين المواطنين ، وعاد الأمن وعادت الطمأنينة إلى البلاد ، ومات بعد أن حكم ثلاثين عامًا .

كتب عنه الدكتور أحمد بدوى بعنوان (حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح) ما يلى ضمن ما قال :

« كان يؤذيه ما رأى من حال الشعب ، فالفلاح المسكين قد أهمل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام (حور محب) ، فشرب منها بالكثير وبالصغير .. ، فارتاع من حال الشعب ، وعزم على إصلاح شأنه وتأمين رزقه ، وتوفير سعادته ، فعمد إلى إصدار قانون ينظم حياة الأمة أملاه بنفسه على كتّابه .

« ثم فرض على من يخالف القانون أشد أنواع العقاب وآلمها ، يستوى فى ذلك لديه كبراء الأمة ، ومن كان صغيرًا ، فهو يحمى الفلاح من قسوة رجال الإدارة حين جمع الضريبة ، وحماه من أداء الضريبة مرة أخرى إن هى فقدت فى طريقها إلى دواوين الدولة ، ونظم تحصيل الضرائب المفروضة على محاصيل الخضر المنزرعة فى أرض التاج ، وتحصيل الضرائب من أرزاق الأرض وغلاتها جميعًا ، كما حدد القانون شروط تعيين القضاة فى محاكم الدولة فاختارهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقًا ، وأجرأهم قلبًا ، وأطهرهم لسانًا ، وأعفهم يدًا ، وحرّم على القضاة أن يصادقوا أحدًا من الناس ، أو يتهادوا مع الناس ، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية .. وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم ، لا يلين فى الحق ، ولا تأخذه فى تنفيذه لومة لائم ، ردّ على القوانين المصرية حرمتها وجلالها ، فجنب البلاد شر الظلم ، وطهرها من آثار العبث وصفاها من شوائب الباطل ، وليس أدل على حزم الرجل وصدق وفاته لشعبه من تصريحه حين إصدار القانون إذ يقول : « إنى قد وضعته لضمان رفاهية شعبى » ، ثم يخاطب رجال حكومته آمرًا فيقول : نفذوا أوامرى فى تطبيق مواد هذا القانون ، فإنى قد رأيت فى هذه البلاد ظلمًا شديدًا ، ومن ذلك يتضح لنا أن حور محب كان مصلحًا ومشرعًا وقيمًا على تنفيذ ما أصدر من قوانين حريصًا على تطبيقها بالعدل .

وكان فوق ذلك كله إنسانًا قلّ أن نعرف له فى تاريخ الملوك والمالكين من آل فرعون نظيرًا »[1] .

(١) أحمد بدوى فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٦٨١ .

الفصل الثامن

رمسيس الثانى وحروبه الدفاعية

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٤ – ١١٩٥ ق . م)

رمسيس الأول

كان رمسيس الأول زميلاً لحور محب ، ووزيره الأول ، وهو أول ملوك الأسرة التاسعة عشرة ومنشأه فى مدينة صان الحجر (تانيس) بشمال الدلتا .

وأهم عمل لرمسيس الأول أن بدأ فى إنشاء بهو الأعمدة العظيم بالكرنك الباقى إلى الآن شامخًا فى مكانه ، والذى يعد نسيج وحده بين آثار الفراعنة .

ولكنه لم يتمّه ، وترك إتمامه لابنه سيتى الأول وحفيده رمسيس الثانى .

ولم يعتزم رمسيس الأول امتشاق الحسام وتجريد جيش لمحاربة الحيثيين أعداء مصر الذين كانوا يتحرشون بها ويغتصبون أملاكها ، ولم يحرك ساكنًا لضعفه واعتلال صحته ، وتقدمه فى السن ، وقصر مدة حكمه .

وترك هذه المهمة لخلفائه من بعده ، ومات قبل أن يتم عامين ونصفًا فى الحكم .

وترجع شهرته إلى شخصيته وإلى أنه أنجب سلسلة من الفراعنة العظام الذين كان لهم الشأن الكبير فى تاريخ مصر القديمة ، وهم :

سيتى الأول

هو ابن رمسيس الأول ، وقد بدأ يستعيد بعض ما فقدته مصر فى فلسطين وسورية ، وكانت مملكة خيتا (الحيثيين) هى العدو اللدود لمصر فى تلك الجهات .

وقد ظلت مصر تبسط سيادتها عليها منذ منتصف القرن الخامس عشر ق . م . فى عهد تحوتمس الثالث حتى القرن الثانى عشر ، أى أن سلطان مصر ظل مبسوطًا على سورية وفلسطين زهاء أربعة قرون .

جهز سيتى الأول جيشًا لمحاربة الحيثيين ، واستعاد أكثر من ثلث أملاك مصر الآسيوية ودانت له فلسطين وفينيقية وجنوب سورية ، ولم يكن يحارب الأهلين فيها ، بل كان يحارب جنود خيتا (الحيثيين) وأعوانهم .

وعاد سيتى إلى مصر بعد انتصاره فى الأقاليم الآسيوية فاستقبلته البلاد استقبال الظافر ، وذهب

رجال الحكومة لمقابلته فى مدينة ثارو « القنطرة » واجتمعوا على رأس الجسر المشيَّد على القناة العذبة الموصلة النيل بالبحيرات المرة ، وهناك شاهدوا الجنود المصريين العائدين من القتال يعلو وجوههم الغبار ، وتبدو عليهم علامات التعب ، يتقدمهم سيتى راكبًا مركبته الحربية ، فهتف الجميع بحياته ، ولما وصل إلى طيبة أقيمت له احتفالات عظيمة أخرى .

وانتهى الصراع بينه وبين الحيثيين بعقد معاهدة صداقة بينهما ظلت مرعية الجانب حتى وفاة سيتى .

وكان حد الدولة المصرية الذى يفصلها عن مملكة خيتا عند نهر الكلب شمال بيروت .

وصد هجومًا لليبيين على حدود مصر الغربية وانتصر عليهم .

وسار سيرة عدل وإصلاح ، ونشطت فى عهده الفنون والعمارة ، واستمر فى العمل الذى بدأ به رمسيس الأول فى تشييد بهو الأعمدة العظيم فى الكرنك .

وقضى فى الحكم نحو تسعة عشر عامًا .

رمسيس الثانى
أو الأكبر

حكم ٦٧ عاما (من سنة ١٢٩٠ إلى ١٢٢٣ ق . م)

يُعدّ رمسيس الثانى من أعظم ملوك مصر . ويلى تحوتمس الثالث فى المكانة والشهرة .

قضى فى الحكم سبعة وستين عامًا ، أى قرابة ثلاثة أرباع قرن ، فهو من أطول الملوك عهدًا بالحكم ، وقد ساعده ذلك على ذيوع شهرته بين ملوك مصر والعالم .

وهو ابن سيتى الأول ، تولى الحكم وهو فى نحو العشرين من عمره .

وكانت مملكة خيتا (الحيثيين) فى عنفوان قوتها ، لم تحترم المعاهدة التى أبرمت بينها وبين سيتى الأول ، بل اتخذتها ذريعة لتحصين ما وضعت يدها عليه من الأقاليم السورية .

وزحف (موتللى) ملكها على وادى نهر العاصى ، واستولى على (قادش) مركز النفوذ فى سورية منذ عهد تحوتمس الثالث .

وصارت هذه المملكة خطرًا على مصر ، وخاصة بعد أن تم لها التغلب على مملكة ميتانى فى أعالى الفرات .

تولى رمسيس الثانى الحكم ، ورأى الحيثيين واضعين أيديهم على معظم الأقاليم السورية يتحدون مصر ويناصبونها العداء فجرد جيشا لمحاربتهم .

واتبع رمسيس الثانى طريقة تحوتمس الثالث .



رمسيس الثانى – أو الأكبر
فى عنفوان شبابه
عن تمثاله الموجود بمتحف تورين بإيطاليا ، ويعتبر
أجمل تمثال يزين هذا المتحف

لم يكن رمسيس يحارب أهل هذه البلاد ، بل كان يحارب ملك خيتا الذى استعبد أهلها ، كانت حروبه ضد الحيثيين لا ضد السوريين مثلما كا يفعل تحوتمس الثالث فى حروبه الآسيوية ، فقد كانت مشبوبة على بقايا الهكسوس لا على المواطنين .

فبدأ أولا بإخضاع الشاطئ البحرى ليتخذه قاعدة حربية لحركاته ، لأن المواصلات البحرية كانت أسهل وأسرع من البرية .

ثم زحف بجيشه من مدينة ثارو – (القنطرة شرق) ، وتولى بنفسه قيادة فيلق (آمون) فى مقدمة الجيش ، تتلوه فيالق : رع . وبتاح . وسوتخ . على التعاقب .

وكان يحتذى حذو تحوتمس الثالث ، فسار فى الطريق القديم الذى سلكه تحوتمس ، ووصل إلى بلاد كنعان ، واتجه شمالاً متبعًا الشاطئ حتى شمالى بيروت ، ومن هناك توغل فى الداخل حتى بلغ وادى نهر العاصى .

معركة قادش

التقى رمسيس الثانى بجيش الحيثيين فى العام الخامس من حكمه بالقرب من (قادش) على نهر العاصى ، وتقدر قوات الجيش المصرى بنحو عشرين ألف مقاتل ، عدا الجنود المرتزقة ، وجيش (موتللى) ملك الحيثيين بمثل هذا العدد ، وكلاهما عدد لا يستهان به فى ذلك العصر .

وكانت المعركة فى المرحلة الأولى منها نصرًا للحيثيين ، ذلك أن رمسيس لم يكن المكان الذى حشد فيه موتللى جنوده ، ولم يخبره أحد من ضباطه بهذا المكان ، وصدّق ما قاله بدويان جاسوسان ادّعيا أنهما هربا من جيش الحيثيين وزعما أن (موتللى) قد انسحب بجيشه شمالاً إلى حلب .

والواقع أن هذه القصة كانت خديعة لاستدراج رمسيس إلى التقدم شمالاً .

فاعتزم رمسيس أن يسرع خلف عدوه ، وعبر على عجل ، ولم ينتظر حتى تتجمع بقية جيشه ، وسار لفتح قادش مطمئنا إلى خلوها من الحيثيين ، وتقدم مصحوبًا بحرسه الخاص وحده تاركًا خلفه فيلق آمون يتبعه ، وكانت الفيالق المصرية الأخرى لا تزال متفرقة على مسافة ثمانية أو عشرة أميال من الطريق .

وعلم رمسيس أخيرًا أن (موتللى) حشد قواته خلف قادش ، فى الوقت الذى كانت قوات رمسيس لم تعبر بعد نهر العاصى .

وعبر (موتللى) النهر جنوبى قادش ، قائدًا جيشه اللجب ، فشطر فيلق رع شطرين .

وكانت قوات (موتللى) راكبة مركباتها الحربية التى تزيد على الألفين وخمسمائة مركبة ، بينما كان فيلق رع مكونًا من المشاة فقط .

وقد ظفر (موتللى) بالقسم الجنوبى من هذا الفيلق ، أما جنود القسم الآخر فارتدوا إلى

خريطة معركة قادش
مقتبسة من خريطة برستد

معسكر رمسيس ودخلوه مبهوتين من المفاجأة ، ثم اقترب الحيثيون من المصريين ، واتسعت مقدمتهم حتى طوقت المعسكر المصرى تمامًا .

وفى المرحلة الثانية من المعركة تحول الموقف ، وكان النصر حليف رمسيس ذلك أنه على عظم

الخطر الذى أحدق بجيشه ، وبعد المسافة بينه وبين بقية هذا الجيش . فقد هجم بشجاعة نادرة على الحيثيين المتدفقين عليه وركز هجومه على القسم الشرقى من قوات الأعداء ، فأوقع فى قلوبهم الرعب ، وألقاهم فى النهر تحت أعين موتللى الذى وقف على الشاطئ المقابل مصحوبًا بثمانية آلاف من مشاته .

وساق القدر إلى رمسيس حادثًا رجح كفته فى ميدان المعركة ذلك أن الحيثيين الذين أحاطوا بالمصريين من الجنوب والغرب لم يتابعوا هجومهم ، لاشتغالهم بالنهب والسلب ، فقد أخذوا يسلبون ما وصلت إليه أيديهم من مهمات المصريين ومتاعهم ، بدلًا من الاستمرار فى تعقبهم ، واتفق فى وقت اشتغالهم بالنهب أن وصلت إمدادات حربية مصرية آتية من الشاطئ ، وهى غير الفيالق التى يتكون منها جيش رمسيس ، فانقضّت هذه الإمدادات على الحيثيين على غرة ، وأبادتهم عن آخرهم .

فكان ثبات رمسيس الثانى أمام المفاجأة الأولى ، وشجاعته فى صد هجوم الحيثيين ووصول هذه الإمدادات واشتراكها فى القتال ، كل هذه الأسباب قد جعلت المعركة فى مرحلتها التالية نصرًا مؤزرًا للجيش المصرى .

قال برستد فى سياق وصفه للمعركة : « والمعروف أن المصريين دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال حتى اضطر (موتللى) أن يمد جنده بآخر رديف ، وهو المكون من الف مركبة حربية مسلحة ، وبالرغم من هجوم رمسيس على أعدائه ست مرات فإن (موتللى) لم يرسل جنده المشاة الثمانية آلاف الذين كانوا معه على الشاطئ الشرقى لنهر العاصى ، ولذلك لم يحارب من الحيثيين إلا قسم المركبات الحربية ، أما المشاة فلم يشتركوا فى الكفاح ، ويلاحظ أن مقاومة رمسيس دامت حوالى ثلاث ساعات كان يراقب بلهفة فى أثنائها ، وصول قواته الجنوبية التى لم تكون عبرت النهر بعد ، ولما مالت الشمس للمغيب لاحت فى أفق السماء رءوس حراب فيلق بتاح لامعة مسرعة مكفهرة ، فابتسم لها محيًا رمسيس ، إذ علم بقرب نجاته . فوقع الحيثيون بين قوتين مصريتين ، واضطروا أن ينسحبوا إلى قادش بعد ما تكبدوا خسائر جسيمة »[1] .

وإذ أدرك ملك الحيثيين عظم الخسارة لحقت بجيشه فقد أرسل إلى رمسيس خطابا يطلب فيه الصلح ، فوافق رمسيس على هذا الطلب ، ووقف القتال .

لم تكن معركة قادش معركة فاصلة ، ولم يستطع رمسيس أن يستولى على قادش ذاتها ، واتفق الطرفان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر ، وهذا يدلك على قوة مملكة الحيثيين .

وعاد رمسيس إلى مصر . واقتصرت الدولة المصرية فى آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سورية .

(١) برستد – تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٢٩٨ .

معاهدة صلح وعدم اعتداء بين مصر وخيتا

(سنة ١٢٨٠ ق . م)

وثابر رمسيس على حروبه فى آسيا عدة أعوام . ثم توفى موتللى ملك الحيثيين فخلفه أخوه (خوتوسيل) ، ورأى من الحكمة أن يحارب مطامع آشور ، فآثر التحالف مع مصر ، وعقد مع رمسيس معاهدة صلح وعدم اعتداء .

وتعد هذه المعاهدة أقدم وثيقة من نوعها فى تاريخ الشرق القديم ، بل فى التاريخ الدولى العام .

وتوثقت الصداقة بين مصر وخيتا وقتًا ما .

وأكدتها صلة المصاهرة ، فقد زوّج ملك خيتا (خاتوسيل) ابنته لرمسيس الثانى ، وجاء زائرًا لمصر ومعه ابنته وحضر الاحتفال البهيج فى طيبة بتأهيلها لرمسيس .

على أن رمسيس فى حروبه الآسيوية لم يصل إلى ما بلغه تحوتمس الثالث .

وبالرغم من هجوم سيتى الأول ، وحروب رمسيس الثانى ، لم تجاوز حدود مصر الآسيوية فلسطين وسورية الجنوبية ، واستحال على المصريين أن يحكموا سورية ثانية حكمًا مستمرًا .

ويبدو الفرق جليًا بين رمسيس الثانى وتحوتمس الثالث ، فتحوتمس الثالث كان من أبطال الحرب والكفاح ، على حين كان رمسيس أميل إلى السلم ، ولم يكن على كفاءة تحوتمس فى قيادة المعارك ، فإن تسرعه فى معركة قادش كاد يورده مورد الهلاك ، لولا تدخل القدر فى المعركة .

وقد تزوج رمسيس الثانى فى حياته الطويلة بزوجات كثيرات ، عدا المحظيات والزوجات الثانويات ، كما تزوج من ثلاث من بناته ، ورزق بأولاد بلغ عددهم ٧٩ من الذكور و ٥٩ من البنات ، فزاد أولاده وبناته على ذرية أى ملك مصرى آخر[1] .

وعظم النفوذ السامى بمصر وقتئذ ، ثم ظهر الأوربيون لأول مرة فى تاريخ مصر القديمة ، فأنزلوا جنودهم على ساحل غربى الدلتا ، واتحدوا مع الليبيين على اقتحام الوجه البحرى ، فصدهم جيش (منفتاح) وأبعدهم إلى بلادهم الأصلية كما سيرد ذلك فى الفصل التاسع ، ثم اضطربت أحوال القطر المصرى بعد ذلك فسقطت الأسرة التاسعة عشرة .

وكانت طيبة عاصمة العالم المتمدن فى ذلك العصر ، وشغلت هذا المركز قبل روما بألف عام[2] .

---

(١) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٣٥٦

(٢) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٣٦٩ .

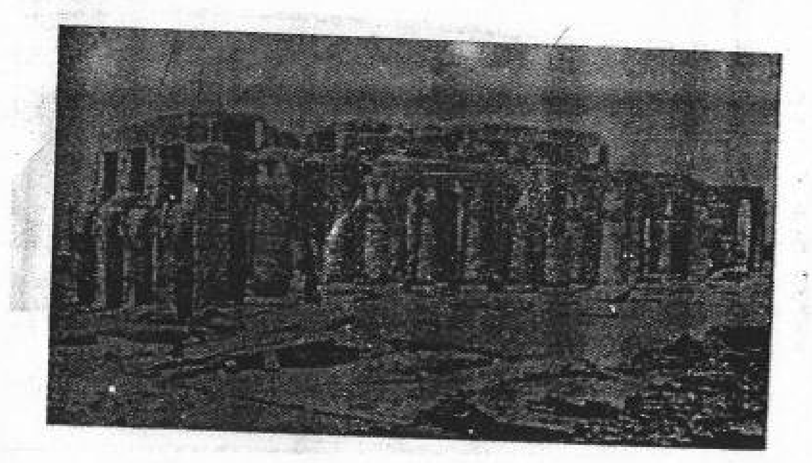
ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢

تكريم رمسيس الثانى

فى سنة ١٩٥٥ نقلت حكومة الثورة تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى كان ملقى على الثرى فى ميت رهينة منذ آلاف من السنين واقامته على قاعدة جرانيتية فخمة وسط ميدان من أكبر ميادين العاصمة ، وهو ميدان باب الحديد ، وأسمته ميدان رمسيس ، وأسمت الشارع المؤدى له شارع رمسيس ، فصار هذا التمثال رمزًا لعظمة مصر القديمة ، يشاهده القادمون إلى العاصمة من داخل القطر وخارجه .

وإن فى إقامته فى هذا المكان تكريما وتقديرًا لرمسيس العظيم .

أمجاد رمسيس الثانى البنائية



معبد الرمسيوم بالقرنة (بالبر الغربى للنيل)

إنها منشآت ضخمة شيدها رمسيس الثانى فى مناطق عديدة بالوجه القبلى والوجه البحرى ، والنوبة .

ولا يوجد ملك من ملوك مصر له مثل هذا العدد من العمائر الشاهقة ، ولعلها كانت ولم تزل السبب فى ذيوع اسمه ورفعة شأنه بين ملوك مصر قاطبة .

فقد أسس مدينة (بر رمسيس) بشمال الدلتا ، ومكانها الآن على أرجح الآراء فى (قنتيرة) الحالية بمركز فاقوس الآن .

وحسبنا أن نذكر معابده العديدة التى شيدها ، تلك المعابد التى هى من مفاخر مصر القديمة ، وكان لها الفضل الأكبر فى تخليد اسم رمسيس ، وهى رمز خالد لما كانت عليه مصر من حضارة وعظمة فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

ولقد شيد لنفسه معبدًا ضخمًا رائعا بالبر الغربى للنيل بطيبة يعرف بالرمسيوم ، (ص ١٣٦) وصرحًا شامخًا بمعبد القصر .

وأتم تشييد البهو الكبير ذى العمد العظيمة فى معبد الكرنك ، وهو الذى بدأ إنشاؤه فى عهد رمسيس الأول ، ثم سيتى الأول ، وأتمه رمسيس الثانى ، ويعد من أعظم عمائر العالم القديمة والحديثة ، والباقى إلى اليوم ، ويبلغ ارتفاع أوسط هذا البهو أربعة وعشرين مترا ، وسقفه مرفوع على عمد ضخمة عددها ١٣٤ عمودًا ، يتجاوز قطر الواحد منها عشرة أمتار (انظر ص ١٣٧) .

يقول (برستد) يصف بهو الأعمدة الكبير بالكرنك : « إن هذه الساحة أعظم العمارات تأثيرًا فى النفوس ، وقد وافق هلى هذا الأستاذ رسكن Ruskin حيث قال : « إن أقل ما يقال عن هذه الساحة أنها ضخمة شاهقة لدرجة تؤثر كثيرًا فى نفس ناظرها ، فإذا وقفت بجوار عمدها والقيت بنظرك على تلك العمد العديدة الشامخة المعتبرة أعظم أعمال البشر ، وأمعنت فى رءوسها الباسقة الحاملة لصحن المعبد ، تقول : إذا لاحظت أن مسطح قمة كل عمود يسع ما يقرب من مائة رجل ، وأن جدُر هذه الساحة تسع فيما بينها كنيسة نوتر دام Notre Dame بباريس ، ويبقى منها مكان فسيح ، وإذا نظرت إلى باب ذلك المعبد العظيم البالغ طول عتبته أربعين قدمًا وزنتها مائة وخمسين طنًا تقريبًا ، إذا تأملت كل ذلك لا يسعك إلا الإعجاب والإشادة بأعمال ذلك العصر الذى شيد رجاله أعظم ساحة ذات عمد أقامها البشر على ظهر البسيطة إلى الآن[1] ، وإذا كان تأثر السائح من ضخامة هذه الساحة أكثر من تأثره بجمالها ورونقها ، فليذكر أن العمال الذين شيدوها قد شيدوا أيضًا معبد رمسيس المعروف بالرمسيوم الذى لا يقل فى الجمال والكمال عن أحسن عمارات الأسرة الثامنة عشرة »[2]

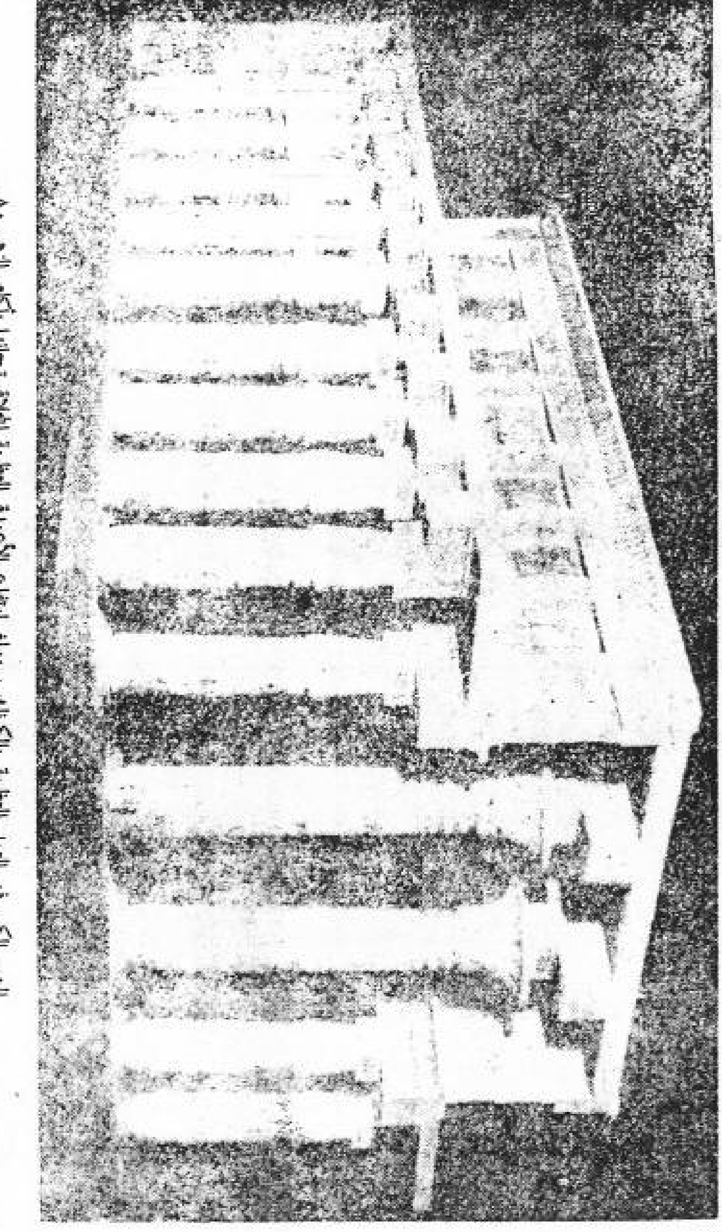
معبدا أبو سمبل

وشيد رمسيس الثانى معابد فى النوبة .

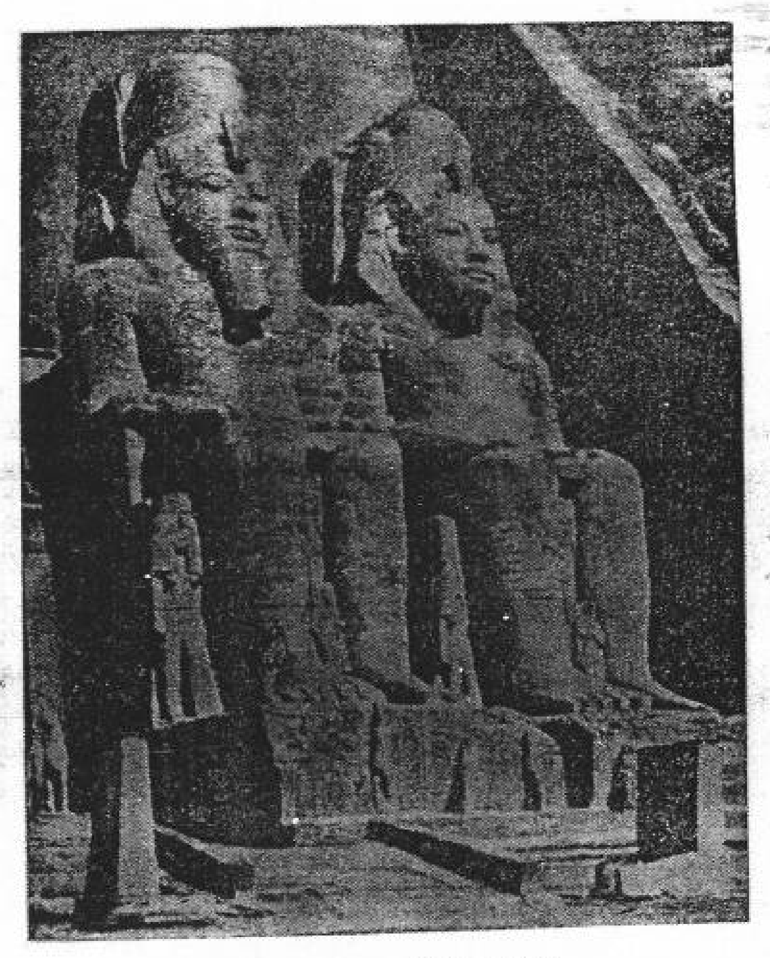
أهمها معبدا (أبو سمبل)[2] أعظم وأجمل آثار رمسيس الثانى بالنوبة ، وقد نحتا فى الصخر الذى يتكون منه الجبل ، بدلا من إقامتهما من الحجر ، فجاءا آية فى الروعة والضخامة والخلود على الزمن . ويقعان على شاطئ النيل .

---

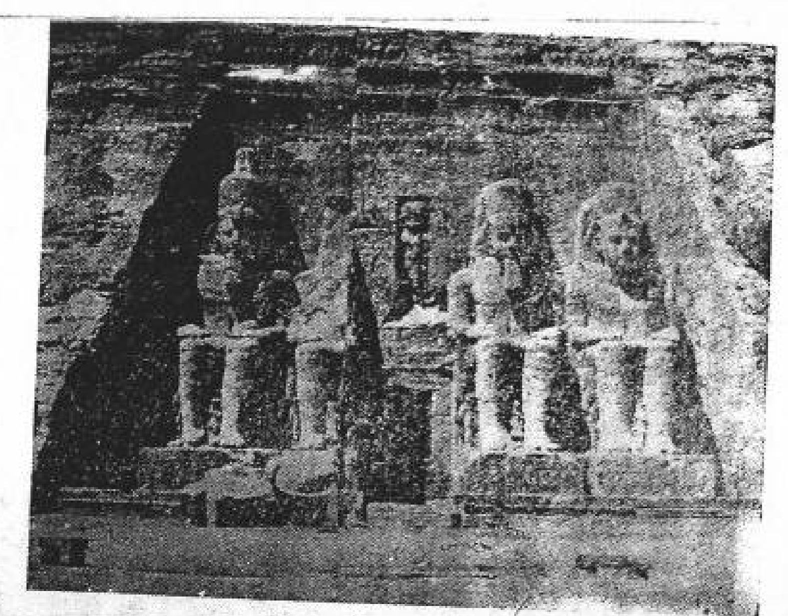
(١) و (٢) برستد : تاريخ مصر من اقدم العصور . المرجع السابق ص ٣٠٣ .
(٢) على بعد ٢٨٠ كيلو مترا جنوبى أسوان .



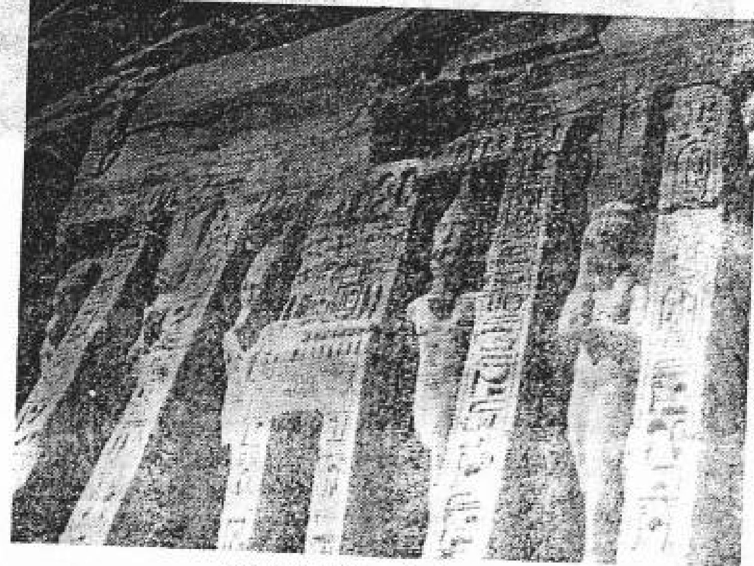
البهو الكبير ذو العمد العظيمة بالكرنك ، ويبلغ ارتفاع الأعمدة العظيمة العالية تيجانها بأكمام الزهر ٨٠ قدما ومحيطها ٣٣ قدما ، أما الأعمدة الواطئة الصغيرة تيجانها على هيئة البراعم (زهر النبات قبل أن يتفتح) فيبلغ ارتفاعها ٤٣ قدما



التمثالان الهائلان لرمسيس الثانى جالسًا
بمدخل معبد (أبو سمبل) الكبير
ارتفاع كل منهما عشرون مترًا
(انظر صورة مدخل المعبد بتماثيله الأربعة ص ١٤١)



واجهة معبد (أبو سمبل الكبير)
وعلى كل جانب من مدخل المعبد تمثالان هائلان لرمسيس الثانى جالسًا

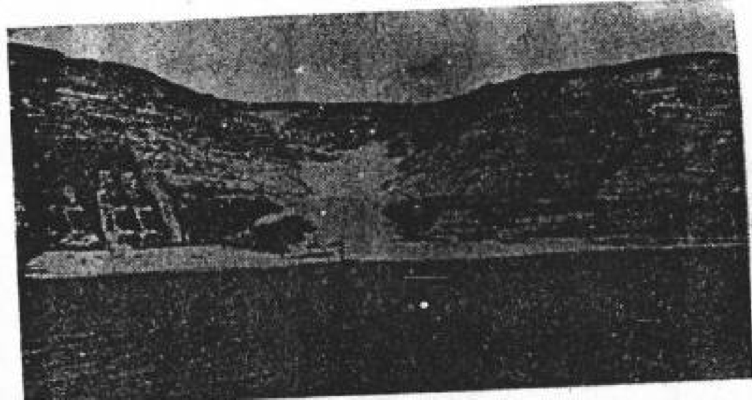


واجهة معبد (أبو سمبل) الصغير

وعلى مدخل المعبد الكبير من اليمين تمثالان هائلان لرمسيس الثانى جالسًا يبلغ ارتفاع كل منهما عشرين مترًا (ص ١٤٠) ، وفى الجانب الأيسر من مدخل المعبد تمثالان هائلان آخران بنفس الارتفاع أحدهما قد كسر جزؤه (العلوى ص ١٤١) .

وقد بناه رمسيس لعبادة المعبود (حور أختى) ، ويبلغ ارتفاع واجهة هذا المعبد ٣٣ مترًا ، وفوق بوابة المعبد نحت تمثال المعبود (حور أختى) ، وبجانب أرجل التماثيل الهائلة الأربعة على المدخل أو بينها ، توجد تماثيل لعائلة رمسيس الثانى ، كأمه وزوجته المفضلة نفرتارى ، وبعض بناته وأبنائه .

وعندما يدخل الزائر مدخل المعبد يشاهد صالة الأعمدة الضخمة التى تحتوى على ثمانية أعمدة على الوجه الأمامى لكل منها تمثال ضخم لرمسيس الثانى .



معبد (أبو سمبل) الكبير والصغير
على شاطئ النيل
الصغير إلى اليمين والكبير إلى اليسار

أما سقف الصالة فمزين تارة بالصقر المجنح وتارة بالنجوم ، وعلى جدران صالة الأعمدة مناظر معركة (قادش) التى نشبت بين رمسيس والحيثيين ، ويشاهد الجيش المصرى وهو يزحف نحو المدينة ، والمعسكر المصرى وقد اكتظ بالجند والمركبات الحربية ، ومنظر الاسيرين اللذين أمسكت بهما القوات المصرية وهما يجلدان ليعترفا بمواقع جيش الحيثيين ، ثم رمسيس الثانى وهو يعقد مجلس الحرب ، ثم التحام الجيشين ، وانقضاض رمسيس الثانى بمركبته الحربية على العدو لذى أحاط به ، كما يشاهد الزائر مدينة قادش والجيش الحيثى وهو يتقهقر .

ويلى صالة الأعمدة صالة أخرى تحتوى على أربعة أعمدة مربعة ، وفى جوانب هذه القاعة عدة غرف لحفظ القرابين ، ويلى ذلك قدس الأقداس حيث تشاهد فى نهايته التماثيل الربعة لبتاح وآمون ورمسيس وحور أختى ، وتبلغ المسافة بين هذه التماثيل ومدخل المعبد ٦٣ مترًا .

أما المعبد الصغير فقد بناه رمسيس لعبادة المعبودة (حتحور) ، ويعرف بالمعبد الصغير أو معبد نفرتارى ، وتقع على مسافة نحو ١٥٠ مترا من شمال المعبد الكبير ، وقد نحته رمسيس الثانى أيضًا فى الصخر ، ويزين واجهة هذا المعبد ستة تماثيل أربعة منها لرمسيس الثانى ، والاثنان الآخران لزوجته المفضلة الملكة نفرتارى (ص ١٤١) .

وقد استرعت هذه الآثار الخالدة أنظار العالم ، وبخاصة بعد أن تقرر إنفاذ مشروع السد العالى ، ويؤدى هذا المشروع أن تغمر مياه النيل مساحات واسعة من الأراضى ومنها البلاد القائمة بها هذه الآثار ، فاهتمت الهيئات العلمية فى مختلف البلدان بضرورة العمل على إنقاذ تلك الآثار لأنها ليست ملكًا لمصر وحدها بل تخص التراث الحضارى للإنسانية جمعاء .



الملكة نفرتارى
زوجة رمسيس الثانى المفضلة
كما تبدو منقوشة على جدران معبد (أبو سمبل) الكبير

وكان رمسيس يعامل العمال الذين اشتغلوا فى إقامة هذه المبانى الضخمة معاملة إنسانية نعموا فى خلالها برغد العيش وعاشت طبقات الشعب فى عهده عيشة رخاء .

وتوفى رمسيس الثانى حوالى سنة ١٢٢٥ ق . م وقد بلغ من العمر نيفًا وتسعين سنة ، وكانت وفاته فى السنة السابعة والستين من حكمه ، وقد استمر عشرة فراعنة يسمون أنفسهم باسمه بعد وفاته .



صخور النوبة على شاطئ النيل

الفصل التاسع

الدفاع عن كيان مصر
فى عهد خلفاء رمسيس الثانى

أخذ جيران مصر فى أواخر عهد رمسيس الثانى ، يتطلعون إلى انتقاصها من أطرافها ، وخاصة حين تقدمت به السن وضعفت لديه الرغبة فى الحرب والهيجاء ، على أنهم ظلوا ساكتين نهيبًا من سطوته وبطشه ، فلما مات أخذوا يتحرشون بمصر .

وفى الحق إن خلفاء رمسيس الثانى قد صمدوا لهذا التحرش وما أعقبه من هجوم ، وقاموا بواجبهم فى النضال عن كيان الوطن ، ودافعوا عنه بكل ما أوتوا من حول وقوة .

وفى ذلك يقول موريه : « فى مدى مائة وخمسين عامًا تقريبًا (من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١١٦٨ ق . م .) من عهد رمسيس الأول إلى الثالث قد أدهشت مصر العالم الشرقى بتفوقها فى القوة الحربية وبارتقاء حضارتها التى لم يستطع الهمج أن ينالوا منها . »[1] .

منفتاح

هو ابن رمسيس الثانى ، ولم يكن صغير السن حين آل إليه الملك ، بل كان فى نحو الستين من عمره .

منفتاح يصد الغارات عن مصر

وفى عهده تآمر اللبيبون[2] وقرصان بحر الأرخبيل على مهاجمة مصر من الغرب .

فانبرى لهم (منفتاح) وجرد عليهم جيشا صد هجومهم ، وكسرهم فى غرب الدلتا وأوقع بهم هزيمة كبيرة أسفرت عن قتل عدة آلاف من المغيرين وأسر أخرى منهم ، فأمنت مصر شر الغزو الليبى .

أما من جهة الشرق فلئن ظلت العلاقات ودية وقتًا ما بين مصر و (الحيثيين) تنفيذًا لمعاهدة الصداقة التى عقدت بينهما سنة ١٢٨٠ ق . م . منذ نحو ست وأربعين سنة ؛ فإن هذا الود لم يدم طويلاً .

(١) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٣٢٦ .

(٢) فى معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٧ ص ٣٤ عن لبيا أنها (لوبة) وينسب إليها (لوبى) . على أنها تنطق الآن ليبيا (المملكة الليبية المتحدة) . وقد جرينا على هذا النطق .



منفتاح
ابن رمسيس الثانى وخليفته فى الحكم

فقد تبين أن الحيثيين عاودتهم أطماعهم وعداواتهم القديمة ، وساعدوا قرصان بحر الأرخبيل على شنّ الغارة على مصر .

ولم يكتفوا بذلك ، بل أوقدوا نار الفتنة فى الأقاليم السورية الخاضعة لمصر ، فهبت فيها وفى فلسطين اشتركت فيها قبائل بنى إسرائيل .

فانبرى لهم منفتاح فى السنة الثالثة من حكمه وحاربهم وقمع هذه الفتنة وأمّن حدود مصر الشرقية .

فمنفتاح بالرغم من كبر سنه أظهر مضاء فى العزيمة وقوة وصلابة فى الكفاح ، واستحق الإعجاب لصده الهجمات الأجنبية عن مصر من الشرق والغرب . ومات بعد أن حكم نحو عشر سنوات .

سيتى الثانى

لم تقع فى عهده أحداث تستحق الذكر ، ووقعت فى البيت المالك انقسامات أودت بالأسرة التاسعة عشرة .

الأسرة العشرون
(١١٩٥ - ١٠٨٠ ق . م)
رمسيس الثالث

اعتبر المؤرخ (مانيتون) رمسيس الثالث مؤسسًا للأسرة العشرين .

وقد عنى هذا الملك بإصلاح نظام الجيش ليكون عدّته فى الدفاع عن البلاد .

وصدّ غارة لسكان البحر المتوسط ، ونازلهم بأسطوله على شواطئ فينيقية فأوقع بهم ، وغرقت سفن كثيرة من سفنهم ، وأنقذ مصر من هذا الغزو الذى كان شبيها بغزو الهكسوس ، لولا أن سحقه رمسيس الثالث ، فاستحق الثناء العظيم على شجاعته فى ردّ العدوان الخارجى الغادر .

واستردت مصر بفضل هذا الدفاع نفوذها فى جزء من سورية وفى فلسطين

وصدّ هجومًا آخر لليبيين وحاربهم وهزمهم .

وحكم البلاد إحدى وثلاثين سنة .

ويعتبر آخر الفراعنة العظام من المحاربين فى تاريخ الأسرة العشرين .

وتبع رمسيس الثالث فى الحكم تسعة من الملوك سموا باسم رمسيس ، من رمسيس الرابع إلى الحادى عشر ، ولكن ليس فيهم همة رمسيس الثانى ولا مضاء عزيمته ولا نباهة ذكره .

الأسرة الحادية والعشرون

وتبعتها الأسرة الحادية والعشرون ، فحكمت نحو مائة وخمسين سنة ، وكانت عاصمة البلاد فى عهدها تانيس (صان الحجر) .

ولم يقع فى عهد هذه الأسرة حادث يستحق الذكر ، وخيم على البلاد جو من الخمول والتراجع والانتكاس .

الأسرة الثانية والعشرون

(سنة ٩٥٠ - ٧٣٠ ق.م)

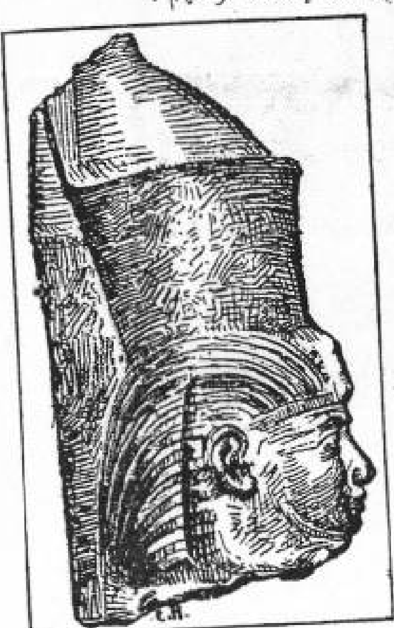
وظلت البلاد تعانى مرارة الفوضى والانقسام ، حتى قام زعيم يدعى (شيشُنق) وأسس الأسرة الثانية والعشرين .

وقيام هذه الأسرة راجع إلى ضعف الأسرة الحادية والعشرين وإلى وفاة آخر ملوكها وانقراض ذريتهم .

شيشنق الأول Sheshonk

هو الذى زعم بعض المؤرخين أنه ليبى ، وأنه أسس أسرة ليبية ، وأن الليبيين حكموا مصر فى عهده وعهد خلفائه .

والصحيح أنه وإن كان أصله البعيد يرجع إلى ليبيا ، لكن أسرته تمصَّرت منذ أن استوطنت مصر من عدة أجيال مضت وسكنوا أهناسيا المدينة ، وصاروا من المواطنين المصريين ، وتقلد كثير منهم مناصب الدولة ، وأظهروا فيها إخلاصًا لوطنهم .



شيشنق الأول
مؤسس الأسرة الثانية والعشرين

فلا يصح القول بأن هذه أسرة ليبية وأن الليبيين حكموا مصر ، بل الصحيح أنها أسرة مصرية اندمجت فى المواطنين فصارت منهم ، شأنها فى ذلك شأن بعض الأسرات المالكة التى تولت الحكم ولاتزال تتولاه فى بعض البلاد الأوروبية ، ويرجع أصلها البعيد أو القريب إلى سلالة أجنبية ، ولم يقل أحد إن هذه البلاد يحكمها الأجانب أو أشباه الأجانب ، فما يسرى على أوروبا يسرى على مصر .

وفى ذلك يقول الدكتور أحمد فخرى : « من التجنى على التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة على عرش البلاد أنه استعمار ليبى ، أو أن مصر فقدت استقلالها وأصبحت محكومة بغير أبنائها ، ففى كثير من بلاد الأرض فى الأزمان الغابرة وفى وقتنا الحاضر عائلات ملكية من أصل أجنبى ولكن لم يقل أحد إن إنجلترا محكومة بالألمان أو أن اليونان وبلجيكا وهولندا وغيرها مستعمرات ألمانية ، أو أنها فاقدة لاستقلالها لأن ملوكها الحاليين من أصل ألمانى غير وطنى »[1] .

كان تولى (شيشنق) العرش برضا الأهلين ، ولم يجد أى معارضة منهم ، وقد اتخذ تل بسطة (الزقازيق الحالية) عاصمة لملكه .

حقا إن كهنة آمون فى طيبة لم يرتاحوا لجلوسه على العرش ، خوفًا على سلطانهم وامتيازاتهم ، ونقموا منه تعيينه أحد أبنائه فى وظيفة الكاهن الأكبر لآمون ، وغضبوا لذلك ، ورحلوا إلى نباتا بالنوبة ، وأسسوا فيها أسرة حاكمة ولكن هؤلاء الكهنة لم يكونوا فى معارضتهم يمثلون الشعب .

اعتبر مانيتون شيشنق مؤسس الأسرة الثانية والعشرين التى حكمت نحو قرنين ونصف حكمًا حازمًا .

وكان حريصًا على وحدة مصر واستقلالها ، عاملاً على رفعة شأنها ، وقد أعاد إليها الأمن والنظام ، وسعى جاهدًا فى أن يسترجع لها عظمتها ومجدها وهيبتها فى الخارج .

وقد زوج ابنه وولى عهده (أوسركون) بابنة آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ، وبذلك خلع عليه الدم الفرعونى .

وأخذ يبسط نفوذ مصر على فلسطين حتى جعل سيادة مصر فيها فعلية ، بعد أن تراخت فى عهد الأسرة الحادية والعشرين بل منذ وفاة رمسيس الثالث ، واستولى على بعض المدن التى كان يحتلها اليهود .

وغزا فلسطين كلها تقريبًا ، واستولى على أورشليم (بيت المقدس) ، فجدد ؛ بذلك عهد فراعنة مصر الأقدمين .

وفى ذلك يقول برستد : « وهكذا أرجع شيشنق لمصر لأمد قصير بعض مجدها القديم الذى

(١) أحمد فخرى :مصر الفرعونية ص ٣٩٦ .

شاهدته الإمبراطورية فى عهد الأسرة التاسعة عشرة لما أخذت ترد على خزائنها جزية الأقاليم الواسعة الممتدة من شمالى فلسطين شمالاً إلى أعالى النيل جنوبًا »[1] .

وورد ذكره فى التوراة باسم (شيشق) بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين . ومات حوالى سنة ٩٢٠ ق .م . بعد أن حكم مصر ٢١ سنة .

وخلفه ابنه (أوسركون) الأول فاتبع سياسة أبيه .

وتلاه ملوك آخرون من أسرة شيشنق ، إلى أن أضمحل شأنهم وتفككت الجبهة الداخلية فى عهد أواخرهم .

وفى أواخر عهد هذه الأسرة ظهر الخطر الأشورى على مصر .

الأسرتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون

ناصب كهنة آمون ، ملوك الأسرة الثانية والعشرين العداء ، وأقاموا ملكًا بدلهم ، فأسس الأسرة الثالثة والعشرين ، وتنازع أمراء البلاد السلطة وضعف شأن الحكم .

وظهر أمير يدعى (تفنخت) Tafnakt حاكم سايس (صا الحجر) غربى الدلتا[2] ، وأسس الأسرة الرابعة والعشرين ، وتنازع الملك مع منافس له ، فازدادت البلاد ضعفًا . إذ صار فيها بيتان مالكان .

قانون بوخوريس Bochoris

بدأت مصر منذ فجر التاريخ بنظام قانونى أصيل هو أقدم نظام عرفته الإنسانية ، وقد استمر هذا النظام قائمًا أكثر من أربعين قرنًا ، ولا يوجد له مثيل فى تاريخ الأمم الأخرى ، ولكنه لم يجاوز المرحلة التى وصلت إليه جميع الشرائع القديمة ، وهى مرحلة التدوين أو التقنين أى وضع القوانين فى صيغ محددة ونشرها على الناس[3] .

ولما تولى الحكم بوخوريس بن تفنخت مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين لم يحكم سوى أربع سنوات ، وقد وضع قانونًا يسمى (قانون بوخوريس) عام ٧٤٠ ق .م . أدخل فيه كثيرًا من الإصلاحات والتعديلات على القانون القديم . وأتى فيه بجديد ، وأخرج قواعد القانون عن دائرتها الدينية وأضفى عليها طابعًا مدنيًا .

ويعتبر هذا القانون المرحلة الأخيرة التى وصل إليها تطور القانون المصرى فى عهد الفراعنة ،

(١) برستد — تاريخ مصر من أقدم العصور . المرجع السابق — ص ٢٥٩ .
(٢) مكانها الآن قرب كفر الزيات . وهى غير صان الحجر (تانيس) .
(٣) عمر ممدوح مصطفى ، أصول تاريخ القانون ص ٥ .

وقد أشاد الإغريق بمكانة بوخوريس من هذه الناحية واعتبروه أحد عظماء المشرّعين فى مصر القديمة .

ومن أهم اصطلاحات بوخوريس أنه نظم المعاملات على أساس حرية التعاقد ، ولم يبق فيها أثر للشكلية القديمة .

وفى الأحوال الشخصية ساوى بين الرجل والمرأة ، ومنحها حقوقا لم تتمتع بها المرأة اليونانية ولا الرومانية ، وبقى الطلاق من حق الزوج وأصبح للزوجة بحكم مبدأ حرية التعاقد أن تشترط أن يكون لها الحق فى فسخ عقد الزواج أو ما يدرأ عنها خطر الطلاق ، كأن تحصل على إقرار من الزوج بمبلغ معين يلتزم به كنفقة حين الطلاق ، أو تتفق معه على شرط جزائى ، فيقوم الزوج بدفع مبلغ من المال إذا طلق زوجته .

وظل تعدد الزوجات مباحًا ، وحرم فقط على الكهنة ، ولكن الزوجة تستطيع أيضًا أن تنص فى عقد الزواج على ألاّ يباح للزوج أن يتزوج من أخرى وبذلك كان يتعذر على الزواج أن يتخذ أكثر من زوجة واحدة[1] .

الأسرة الخامسة والعشرون

بعنخى Biankhi

كانت البلاد فى حاجة إلى منقذ يستخلصها من الفوضى والانقسامات ، ويعيد إليها وحدتها .

لم يكن هذا المنقذ سوى الشاب (بعنخى) الذى أنفذ من (نباتا) على الشلال الرابع جيشه لاستخلاصها من الهاوية التى تردت فيها .

و(بعنخى) هذا هو الذى زعم بعض المؤرخين الأجانب أنه أثيوبى ، وأنه أسس أسرة أثيوبية ، وأن أثيوبيا حكمت البلاد فى عهده وعهد أسرته .

والصحيح أنه من النوبة ، والنوبة جزء لا يتجزأ من مصر ، وكانت ثقافتها مصرية ، ودياناتها مصرية من عهد الفراعنة الأقدمين ، هذا إلى أن أصل أسرته من كهنة (طيبة) الذين هاجروا إلى الجنوب .

وكانت (نباتا) حصنا من حصون مصر الجنوبية فى زمن (امنحوتب الثانى) ، وكان لكهنة آمون الكلمة النافذة فيها ، وسبق أن أسسوا بها أسرة حاكمة .

حارب بعنخى جيش الأمير (تفنخت) حاكم بلدة سايس (صا الحجر الحالية) بمركز كفر الزيات الآن الذى ادعى أنه الأحق بالملك ، وذهب بنفسه إلى طيبة ليقود جيشه ، وسار منها شمالاً حوالى سنة ٧٢١ ق .م . واستولى على صعيد مصر ، ودانت له مدنه مدينة تلو الأخرى .

(١) عمر ممدوح مصطفى : أصول تاريخ القانون ص ٢٢٧ .

وتابع السير حتى بلغ منف ، فاستعصت عليه أولاً ، ثم حاصرها حتى استسلمت .

وجاءه أمراء الدلتا واعترفوا به ملكًا على مصر ، وسار منها شمالاً حتى بلغ أتريب (بنها) ، فجاءه بقية الأمراء واعترفوا له بالملك .

وإذ رأى الأمير تفنخت الذى كان يطمع فى الملك أن أمراء البلاد قد اعترفوا ببعنخى ملكًا استسلم له هو أيضًا ،ودانت مصر كلها شمالها وجنوبها لبعنخى مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين .

وساس بعنخى البلاد سياسة حكيمة ، وظل على العرش واحدًا وعشرين عامًا .

وفى عهده بدأ عصر النهضة والإصلاح الذى ينسبه بعض المؤرخين إلى (أبسماتيك) الأول ، وهو فى الواقع قد بدأ فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين ، أى من عمل بعنخى وخلفائه .

فقد نهضوا بالبلاد نهضة شاملة ، وأعادوا لها بعض مجدها القديم .

خلفاء بعنخى

وبعد وفاة بعنخى خلفه فى الملك على التعاقب أخوه ثم ابنه ثم ابن آخر له ، وهو (طهارقه Taharka) ، الذى كان له شأن كبير فى المقاومة الوطنية ضد الزحف الآشورى كما سيرد فى الفصل التالى ، وكان أعظم ملوك هذه الأسرة وأمجدهم أعمالا وحكم البلاد نحو خمسة وعشرين عاما .

الفصل العاشر

تحرير مصر من الاحتلال الآشورى

كانت الدولة الآشورية من أقوى دول ما بين النهرين (دجلة والفرات) ، وعاصمتها (نينوى) .

وقد اتجهت أطماعها الاستعمارية إلى غربى آسيا فى القرن التاسع قبل الميلاد .

ولما جلس (سرجون) الثانى على عرش هذه الدولة حوالى سنة ٧٢٢ ق .م . تفاقمت أطماعها ، وكانت مصر قد أمدّت الأهلين فى فلسطين وسورية ليقاوموا الغزو الآشورى .

فتقم منها (سرجون) هذا الموقف ، وزحف على فلسطين ومنها إلى مصر ، فبلغ (رفح) ووصل إلى الحدود المصرية ، والتقى بقوات مصرية تعاون الفلسطينيين ، فردّته على أعقابه ورجع عن محاولة غزو مصر .

وبعد موته جلس ابنه (سنحريب Senahrib) على عرش آشور ، فقرر أن يغزو فلسطين ، ووقفت مصر تؤازرها وأرسلت إلى الحدود جيشًا بقيادة (طهارقه) .

وجاء سنحريب يهاجم مصر ،فتفشى الطاعون فى جيشه فارتد عنها ، ولم تعاوده فكرة مهاجمتها ، وعاد إلى بلاده ومات مقتولا فى الطريق بيد أبنائه سنة ٦٨١ ق .م .

فتولى بعده ابنه (أسر حدون) ، وتولى طهارقه فى العام نفسه عرش مصر ، فأعدّ العدة لمقاتلة الآشوريين إذا حدثتهم أنفسهم بغزو مصر .

وانتقل من طيبة إلى صان الحجر (تانيس) ، ليكون على مقربة من حدود مصر الشرقية ، وليستعد لصدّ الهجوم الآشورى إذا وقع ، وأخذ يثابر على تحريض الفلسطينيين على الثورة على آشور .

فتقدم (أسر حدون) نحو مصر عن طريق سيناء ، وساعده بدو الصحراء الذين أمدّوه بالإبل تحمل المؤن والماء لجنده ، وأرشدوه إلى مسالك الطريق حتى بلغ وادى الطميلات ، وسار فى زحفه .

وقاومه طهارقه مقاومة باسلة ، ولكن قوات (أسر حدون) غلبته على أمره ،واستمر فى هجومه حتى بلغ (منف) واستولى عليها .

وارتد طهارقه جنوبا حوالى سنة ٦٦٧ ق .م .

ثم لم يلبث أن عاد إلى الشمال ، وهزم الحامية الآشورية واسترد منف .

وعاد (أسر حدون) إلى مصر يريد احتلالها ، ولكنه مات فى الطريق فخلفه على عرش آشور

(اشور بانيبال Achour Banypal)؛ فأعد جيشًا آخر أغار على مصر ، وكتب له الفوز ، وهزم الجيش المصرى بعد حروب عنيفة ، واستولى على منف .

فارتد طهارقه ثانية إلى الجنوب ، واستولى آشور بانيبال على طيبة ، وخربها تخريبًا وحشيًا .

وكان الآشوريون مضرب الأمثال فى القسوة والفظاعة فى معاملة الشعوب التى تغلبوا عليها .

وتعاون أمراء الدلتا على محاربة الآشوريين .

وكان منهم أمير يدعى (نيخاو) امتاز بأنه من أكثرهم همة فى مقاومتهم ، ولكن الآشوريين نجحوا فى حملتهم الثانية ودخلوا طيبة وخربوها .

وارتد طهارقه إلى نباتا بالنوبة ، وأبى أن يستسلم للآشوريين ، ومات بها مثقلاً بأعباء الكفاح والمقاومة .



طهارقه . بطل المقاومة ضد الغزو الآشورى

لم ييأس الشعب من الخلاص من الاحتلال الآشورى ، ومازال الأمراء يقودونه فى المعركة ، ومنهم الأمير (نيخاو) ويعملون جاهدين على التحرر من هذا الاحتلال البغيض .

وقد اعترفوا لزميل لهم وهو (أبسماتيك) بن نيخاو ، كما اعترف له الشعب بالملك ، وتحالفوا جميعًا على طرد الآشوريين من البلاد .

وإذ عادت الوحدة إلى الصفوف واتحدت كلمة المواطنين ، فقد هزموا الحاميات الآشورية ، وتحررت البلاد من الاحتلال الأجنبى على يد بطل من أبنائها وهو ابمساتيك الأول .

الأسرة السادسة والعشرون
أبسماتيك الأول

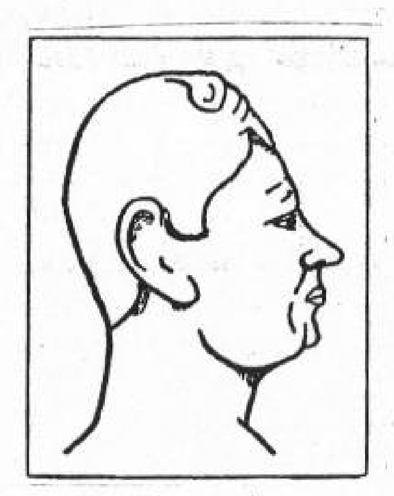
هو ابن الأمير (نيخاو) . وقد أسس الأسرة السادسة والعشرين حوالى سنة ٦٦٣ ق .م . وجعل (سايس)[١] حاضرتها .

وهو محرر مصر من الاحتلال الآشورى ، وقد أصبحت البلاد مستقلة فى عهده .

فهو قريب الشبه من هذه الناحية بأحمس الأول الذى حرر البلاد من حكم الهكسوس واستقلت البلاد فى عهده ، وكذلك فعل أبسماتيك الأول ، وإنه ليشرفه أن يشبه من هذه الناحية أحمس الأول .

وكان على جانب كبير من الذكاء والحصافة ، وقد أصبح من شئون البلاد ونظم جيشها وأسطولها ، وأعاد إليها الأمن والوحدة والرخاء .

ويسمى المؤرخون عهده عهد النهضة[٢] .



أبسماتيك الأول
محرر مصر من الآشوريين

(١) هى صا الحجر القرية من كفر الزيات الحالية ، وهى غير صان الحجر بمركز فاقوس شرقية .
(٢) كما يسمونه بالعهد الصاوى نسبة إلى صا الحجر العاصمة .

وقد استرد جزءًا من فلسطين من الآشوريين ، وتوفى سنة ٦٠٩ ق .م . ، وحكم نحو ٥٤ عامًا وترك البلاد فى رخاء لم تر مثله منذ وفاة رمسيس الثالث .

على أن خطأه الأكبر أنه أكثر من استخدام الإغريق (اليونانيين) فى الجيش المصرى وفى الحكومة ، وكان اليونانيون قد بدءوا يفدون على مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد .

فأدى استخدام الأجانب إلى إضعاف الروح القومية فى نفوس المصريين ، ولم يفكر فى العواقب الوخيمة التى تترتب على هذه السياسة الحمقاء .

وأسس اليونانيون فى عهده مدينة لهم سموها نقراتيس (نقراش)[1] على فرع النيل الكانوبى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد .

فضل الحضارة المصرية على حضارة اليونان

وفى عهد أبسماتيك الأول نشأت العلاقات التجارية والثقافية والعلمية بين مصر وبلاد اليونان وجزر بحر إيجه ، وأخذ علماء الإغريق وكتابها ينظرون إلى مصر على أنها مهد الحضارة والعلم ،فنقلوا إلى بلادهم كل أنواع العلوم المصرية من رياضة وفلك وهندسة وقوانين وديانة ، ويقتبسون ما يلائم تفكيرهم .

ومن دلائل ذلك أن (سولون) المشرع الإغريقى العظيم أخذ بعض تشريعاته عن القوانين المصرية .

يقول برستد فى هذا الصدد : « ولا يخفى أن العالم الغربى مدين بكثير من علومه وآدابه إلى أهالى وادى النيل ،كيف لا وهم زوّدوا أوروبا الجنوبية بالمدنية والمعارف ، فأخذت هذه تنتشر شمالاً متبعة سير النيل إلى الأقاليم الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط » .

وقال أيضًا : « وقد اجتمعت فى مصر السيادة الحربية والمدنية من أقدم العصور إلى ظهور مدنيتنا وحضارتنا الحديثتين ، ولقد كان من أهم واجباتنا المقدسة ونحن من سلالة سكان أوروبا الأقدمين أن نرفع الستار ونزيل الحواجز ، التى تحجب عنا حوادث العصور السابقة ، تلك العصور التى تسلم فيها أجدادنا وديعة هذا التمدن الحديث » .

وقال فى هذا الصدد : « ويرجى أصل المدنية الحديثة إلى الأمم التى نشأت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، الشرقية وإلى البلاد المجاورة لتلك الجهات ، وذلك منذ نحو ستة آلاف سنة تقريبًا ، وكانت بلاد العراق مركزًا ثانيًا لمدينة قديمة ، لكنها لم تشترك فى تكوين حضارتنا الحديثة ، لعدم اتصالها بسكان شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ويعزى ذلك إلى عدم اتصال هذا البحر بنهر الفرات ، مع أنهما كانا متصلين قديمًا قبل ظهور هذه الحضارة ، لذلك اعتبر

(١) هى كوم جعيف الحالية مركز ايتاى البارود .

المؤرخون أن حضارتنا الحالية نشأت على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، من المحيط الأطلسى إلى الأراضى الصحراوية شمالى إفريقية ، وإلى الخليج الذى كان متصلاً بالبحر الأحمر ، ثم إلى الشمال فى القارة الآسيوية ، ويخترق هذا الإقليم الشاسع واديان عظيمان متجهان شمالاً وجنوبًا ، يعرف أولهما بوادى دجلة والفرات ، وهو فى القارة الآسيوية ، أما الثانى فبإفريقية ، ويقال له وادى النيل ، وهذان الواديان هما منشأ المدنية القديمة ، فصار لذلك الجبهتين اللتين يحث فيها عن تاريخ الإنسان القديم ، حتى ظهور الحضارة الأوروبية الحديثة ، وقد كانا أيضًا المهدين الوحيدين لحضارتين مختلفتين عمتا تدريجيًا البلاد المجاورة حتى التقتا معًا بآسيا الصغرى ، ثم انتشرتا إلى جنوب أوروبا »[1] .

ويقول الدكتور أحمد فخرى فى هذا المعنى : « إن اليونانيين أنفسهم يعترفون بفضل حضارات الشرق عليهم ، ويفتخر الكثيرون من رجالهم الذين وضعوا أسس العلوم اليونانية أنهم درسوا سنوات عدة فى مصر ، وتلقوا من كهنتها الكثير مما حملوه معهم إلى بلادهم ، لا فى الطب أو فى القانون أو فى الرياضيات فقط ، بل فى كثير من النواحى الأخرى كالنحت والموسيقى .. إن المائة سنة الأخيرة قد أمدتنا بوثائق لا حصر لها عن مدى تقدم الشرق فى حضارته ، ومدى أثر مصر على غيرها من الحضارات ومن بينها حضارة اليونان ، لقد ثبت الآن أن افتخار اليونانيين بأنهم تعلموا ما تعلموه من مصر لم يكن مجرد ادعاء أو محاولة إضفاء شىء من الفخر على أنفسهم ، لما كان معروفًا عن بلاد النيل بأنها كانت بلاد الحكماء القدماء ، بل كان حقيقة مؤكدة ، لأنه بالرغم من أن الحضارة المصرية لم تكن فى وقت اتصال اليونانيين بها ، مصر القوية المتوثبة التى كانت من قبل ، إلا أن شعلة العلوم لم تكن قد خبت وانطفأت ،ولكنها ظلت مضيئة على الأقل بين كهنة المعابد وغيرهم من الطبقات ، وبخاصة من الموظفين ، ولم تلبث مصر بعد ذلك حتى دخلت فى دور جديد من أدوار تاريخها ، وهو دور النهضة التى ظهرت منذ الأسرة الخامسة والعشرين واستمرت طيلة أيام الأسرة السادسة والعشرين ، ويطول بنا الحديث لو حللنا أقوال كبار فلاسفة اليونان وعلمائها وإشادتهم بمصر ، واعترافهم بأنهم تعلموا من المصريين ما تعلموه ، وما علموه بعد ذلك لتلاميذهم ، ويكفى أن نذكر ما كتبه أفلاطون الذى قضى ثلاثة عشر عامًا فى مصر ، لندرك قيمة ما كان يحس به اليونانيون القدماء من دين للمصريين »[2] .

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور .المرجع السابق ص ١ .

(٢) أحمد فخرى : تاريخ الحضارة المصرية لنخبة من العلماء العصر الفرعونى ص ٥٩٩ .

خلفاء أبسماتيك الأول

نيخاو الثانى

خلف أبسماتيك الأول ابنه (نيخاو) الثانى ، وحذا حذو أبيه فى دعم أسباب النهضة ، وزاد عليها أن عُنى بالأسطول ، فأنشأ أسطولاً تجاريًا رفع علم مصر فوق ظهر البحار ، وكان هذا الأسطول سيّد بحار العالم فى التجارة ، وأكبر أسطول تجارى فى البحر الأبيض المتوسط .

وأنشأ أيضًا أسطولاً حربيًا ، وقد سعى فى استرداد أملاك مصر الآسيوية التى كانت لها فى عهد تحوتمس الثالث .

وكانت آشور قد تولاها الضعف منذ أن زاحمتها (بابل) على السيادة والسيطرة ، ومازالت بها حتى استولت عليها .

معركة أخرى فى مجدو
(سنة ٦٠٨ ق .م)

زحف نيخاو على فلسطين ، واستولى على غزة وعسقلان ، وكانت فلسطين قد تحررت من آشور وآل الأمر فى يهوذا إلى ملك يسمى (بوشيا) ، فظن أنه يستطيع أن يصدّ المصريين كما صدّ الآشوريين من قبل ، فدارت بين نيخاو وبوشيا حوالى سنة ٦٠٨ ق .م . معركة فى سهل (مجدو) الذى وقعت فيه أول معركة كبرية منذ تسعمائة سنة بين تحوتمس الثالث وأمير قادش ، وانتصر فيها تحوتمس انتصارًا عظيمًا كما سلف القول (ص ٩٥) .

وانتهت المعركة هذه المرة بهزيمة بوشيا . وأصيب بجراح توفى على أثرها فى أورشليم (القدس) .

وتمكن نيخاو من استرجاع فلسطين وسورية .

الطواف حول القارة الإفريقية

وعهد نيخاو إلى بعض الملاحين اكتشاف سواحل إفريقية ، فقضوا فى هذه المهمة نحو ثلاث سنوات فى رحلتهم حول شاطئ إفريقية ، وعادوا إلى مصر من بوغاز جبل طارق .

يقول موريه Moret :

« كان لابد من انتظار أحد عشر قرنًا حتى يتسنى للبرتغاليين بقيادة فاسكودى جاما ليبدءوا من جهة مضادة الدوران حول القارة الإفريقية الذى بدأ به نيخاو ، والذى عاد بالفوائد العظيمة على علم الجغرافيا والتجارة العالمية »(١) .

(١) موريه Moret مصر الفرعونية ص ٥٧ .

قناة نيخاو

ومن أهم أعماله العمرانية إعادة شقّ القناة المائية التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، والتى تخرج من فرع النيل البيلوزى القديم وتسير فى وادى الطميلات ، ثم تنثنى جنوبًا فتخترق البحيرات المرة ثم تصب فى البحر الأحمر ، ويقول برستد : إن مهندسى نيخاو نصحوه بعدم الاستمرار فى حفر هذه القناة لظنهم أن سطح مياه البحر الأحمر أعلى من سطح الدلتا فيخشى على مصر من الغرق إذا تم حفر القناة »(١) .

وتوفى نيخاو سنة ٥٩٣ ق .م . بعد أن حكم البلاد ستة عشر عامًا .

أبسماتيك الثانى

فخلفه ابنه أبسماتيك الثانى وسار على سياسة أبيه ، ونفذ معاهدة أبيه مع بابل ، وقضى فى الحكم نحو ست سنوات .

أبريس Apris

وبعد وفاة أبسماتيك الثانى تولى الملك ابنه (أبريس) سنة ٥٨٨ ق .م . وقد أراد أن يسترد نفوذ مصر فى آسيا ، فجرد حملة على بابل فى فلسطين ليطرد البابليين منها ، وانتهت بالفشل .

أمازيس Amazis

وحدثت فى عهد أبريس ثورة من ضباط الجيش ترجع إلى ممالأته لليونانيين ، فنقموا منه هذه النزعة وثاروا عليه .

فأنفذ إليهم جيشًا بقيادة (أمازيس) أحد قواد جيشه ، وهو من عامة الشعب ، وكان يشعر بشعور الشعب ، فانضم إلى الثوار ، وبايعوه ملكًا على البلاد ، ويبدأ حكمه سنة ٥٦٨ ق .م . وقد مات أبريس فى معركة مع الثوار .

وحكم أمازيس نحو ٤٤ سنة ، وتوفى سنة ٥٢٥ ق .م .

وفى غضون هذه الأحداث تغير ميزان القوى فى غربى آسيا فقد ورثت فارس دولة آشور بعد أن استولت عليها واحتلت عاصمتها نينوى .

وتولى العرش فى فارس ملك جديد اسمه (قورش) .

(١) برستد – تاريخ مصر من أقدم العصور – المرجع السابق ص ٣٩٤ .

واستولى على بابل سنة ٥٣٩ ق .م . ثم على سورية وفلسطين ، وظل على العرش إلى أن مات سنة ٥٣٠ ق .م .

وبعد وفاة (قورش) تولى ابنه (قمبيز) عرش فارس سنة ٥٢٩ ق .م .

أبسماتيك الثالث

تولى الملك بعد وفاة أبيه أمازيس ، وهو الذى حدث فى عهده الغزو الفارسى سنة ٥٢٥ ق .م ، ولم يطل حكمه أكثر من ستة أشهر .

الفصل الحادى عشر

الغزو الفارسي وثورات الشعب عليه

(سنة ٥٢٥ ق .م)

نُكبت البلاد سنة ٥٢٥ ق .م . بالغزو الفارسى ، وكان يقوده قمبيز بن قورش .

وقع الغزو الفارسى فى أوائل عهد أبسماتيك الثالث ، وكان قمبيز يعدّ له العدة من قبل ، فأخضع دويلات آسيا الصغرى وبعض الجزر اليونانية ، وجمع فى آسيا جيشًا جرارًا لمهاجمة مصر ، وقد أفلح هذا الجيش فى حملته واحتل البلاد .

مقدمات الغزو الفارسى

بعد أن سيطرت مصر على العالم المتمدن من أوائل القرن السادس عشر ، ونشرت علومها وحضارتها فى مختلف البلدان ، أخذت عوامل الضعف توهن من كيانها نتيجة للانقسامات الداخلية من جهة ، ولانغماسها فى الترف من جهة أخرى .

وانضم إلى ذلك استعانة مصر بالجنود المرتزقة من الإغريق وغيرهم ، فضعفت الروح القومية فى الجيش .

ولم تستطع مصر منذ عهد أبسماتيك الأول أن تستعيد قوتها بعد الانقسامات التى أضعفتها من قبل .

الخيانات الثلاث

وساعد الفرس على غزو مصر خيانات ثلاث تألبت عليها ، وكان لها الأثر الأليم فى ضعف المقاومة .

خيانة اليهود

وأولى هذه الخيانات اتفاق اليهود مع قمبيز على أن يتخذ من بلادهم قاعدة للانقضاض على مصر ، مقابل أن صرح لهم ببناء معبد أورشليم ، هذا إلى أنه اكتسب بهذا الاتفاق ولاء الجنود اليهود المرتزقة الذين كانوا فى الجيش المصرى[١] .

---

(١) بوزنر Posner التسلط الفارسى الأول على مصر ص ب .
La première Domination perse en Égypte.

فاليهود إذن قد مالئوا الفرس وعاونوهم على غزو مصر فى القرن السادس قبل الميلاد وجعلوا من فلسطين قاعدة للانقضاض عليها .

خيانة فانيس Phanès

كان (فانيس) هذا إغريقيًا من هليكارناس ، وكان رئيسًا لفرقة من الجنود المرتزقة فى الجيش المصرى منذ عهد أمازيس ، فخان عهده لمصر ، وفرّ إلى معكسر الأعداء ، وأطلع قمبيز على أسرار الخطط الحربية التى أعدها المصريون لمقاومة الحملة الفارسية .

وبدأت هذه الخيانة قبل وفاة أمازيس ، وكان لها ولا ريب أثرها البالغ فى إضعاف الجبهة المصرية .

خيانة البدو فى سيناء

وكان قمبيز يجهل الطريق الذى يجب أن يسلكه فى سيناء ، فأطلعه (فانيس) الخائن على مسالك الصحراء ، وسهل له الاتصال برؤساء البدو القاطنين بسيناء ، فوفروا له ولجيشه الماء والمؤونة عبر الصحراء حتى وصل إلى أبواب مصر ، فكانت خيانة البدو من الأسباب التى سهلت لقمبيز غزو البلاد .

وقبيل ابتداء الغزو مات (أمازيس) فى أواخر سنة ٥٢٦ ق .م ، وتولى العرش بعده ابنه (أبسماتيك الثالث) وقد علم قمبيز بوفاة عدوه الجبار عند وصوله إلى بيلوز ، فعد ذلك فألاً حسنًا له ، وتشاءم المصريون من وفاة أمازيس .

وكان اعتلاء أبسماتيك الثالث العرش فى أشد الظروف خطرًا ، إذ كان (أمازيس) ولا ريب أقدر منه على صدّ العدوان الفارسى ، وكانت له من خبرته وكفايته فى القيادة ونفوذه على مواطنيه ما يجعل الأمل كبيرًا فى صد الزحف الفارسى ، ومرت البلاد بعد موته بفترة اضطراب فى الأفكار ساعدت الفرس على الغزو .

سير الغزو

حشد قمبيز جنوده فى فلسطين ، وأرسى أسطوله فى عكا .

وزحف الجيش الفارسى من غزة والتقى بالجيش المصرى فى بيلوز (الفرما) سنة ٥٢٥ ق .م . يعاونه أسطوله من البحر .

ودارت معركة فى بيلوز هُزم فيها الجيش المصرى بقيادة أبسماتيك الثالث بعد مقاومة يسيرة ، إذ كان الجيش الفارسى أكثر منه عددًا وأشد قوة .

وهنا زعم بعض القصص الخرافية أن قمبيز استعان على شل حركة المقاومة فى بيلوز ، فأمر بأن توضع كلاب وقطط وحيوانات أخرى مقدسة على رأس القوة المهاجمة ، فامتنع المصريون عن استعمال أسلحتهم خوفًا على هذه الحيوانات .

وهى رواية ظاهرة التلفيق ، ولو كان لها ظل من الحقيقة فلم لم يستعملها أعداء مصر على تعاقب القرون ؟

ولقد لقى الفرس مقاومة أخرى فى (عين شمس) .

وارتد أبسماتيك الثالث إلى منف ليقاوم الغزاة ، فتعقبه قمبيز ، وسقطت (منف) أمام هجوم الجيش الفارسى ، ووقع أبسماتيك الثالث أسيرًا فى يد قمبيز .



الملك الشهيد
أبسماتيك الثالث
قتله قمبيز إذ لم يستسلم للغزو الفارسى

مقتل أبسماتيك الثالث

بعد أن وقع الملك الشاب أبسماتيك الثالث أسيرًا فى يد الفرس عومل بقسوة ووحشية .
وكان هذا الملك الشاب سيئ الحظ حقًا ، فإنه لم يكد يعتلى العرش حتى فوجئ بالغزو الفارسى ، ولم يكن لديه الوقت الكافى ليعد العدة لصده .

ولما دخل قمبيز منف تعمد إذلال المصريين ، فأجلس أبسماتيك وكبار المصريين الذين أسرهم معه عند مدخل المدينة للزراية بهم ، وألبس ابنته وبنات الكبراء ملابس الجوارى والإماء ، وأمرهن أن يحملن الجرار لإحضار الماء ويسرن أمامه . فشقّ هذا المنظر على أبسماتيك ، ولكنه تجلد وسكت ، ونظر إلى الأرض وأطرق .

ثم أمر قمبيز بأن يمر أمام أبسماتيك صديق له فى ثوب فقر وتسول ، فتأثر لمنظره وبكى ، فكان فى بكائه على صديقه فى محنته ، بعد جلده حين رأى ابنته فى لباس الأرقاء ، أبلغ مثل على الوفاء والخلق الكريم .

أحمد شوقى يسجل هذا الحادث فى قصيدة له سنة ١٨٩٤

وقد سجل شاعر العروبة الخالد أحمد شوقى هذا الحادث ، ضمن قصيدة طويلة له عن « كبار الحوادث فى وادى النيل » نظمها وقدمها إلى المؤتمر المشرقى الدولى الذى انعقد فى سويسرا عام ١٨٩٤ ، قال عن الحادث وملابساته :

لا رعاك التاريخ يا يوم (قمبيز) ولا طنطنت بك الأنباء

دارت الدائرات فيك ونالت ... هذه الأمة اليدَ العسراء

فبمصر مما جنيت لمصر ... أىّ داء ما إن إليه دواء

نكدٌ خالدٌ وبؤس مقيم ... وشقاء يجدُّ منه شقاء

يوم (منفيس) والبلاد لكسرى ... والملوك المطاعة الأعداء

يأمر السيفُ فى الرقاب وينهى ... ولمصر على القذى إغضاء

جيء بالمالك العزيز ذليلاً ... لم تزلزل فؤادَه البأساء

يبصر الآل إذ يراح بهم فى ... موقف الذل عنوة ويجاء

بنت فرعون فى السلاسل تمشى ... أزعج الدهر عريها والحفاء

فكأن لم ينهض بهودجها الدهر ولا سار خلفها الأمراء

* * *

وأبوها العظيم ينظر لما ... رديت مثلما تردّى الإماء

أعطيت جرة وقيل إليك النهر ... قومى كما تقوم النساء

فمشت تظهر الإباء وتحمى الدمع ... أن تسترقه الضراء

والأعادى شواخص وأبوها ... بيد الخطب صخرة صماء

فأرادوا لينظروا دمع فرعو ... ن وفرعونُ دمعه العنقاء

فأروه الصديق فى ثوب فقر ... يسأل الجمع والسؤال بلاء

فبكى رحمة وما كان من يبكى ولكنما أراد الوفاء

هكذا الملك والملوك وإن جا ... ر زمان وروّعت بلواء

* * *

لا تسلنى ما دولة الفرس ساءت ... دولة الفرس فى البلاد وساءوا

أمة همها الخرائب تبليها ... وحق الخرائب الإعلاء

وارتوى سيفها فعاجلها الله ... بسيف ما إن له إرواء

* * *

ولم يبق قمبيز على أبسماتيك وقتله ، إذ لم ير منه خضوعا للغزو الفارسى ، فلم يطل حكمه أكثر من ستة أشهر .

وبمقتله انتهت الأسرة السادسة والعشرون .

واغتصب قمبيز الملك فى مصر ، وأسس أسرة أطلق عليها المؤرخون اسم الأسرة السابعة والعشرين ، وكانت تمثل الاحتلال البغيض ، فلا يصح إدراجها ضمن الأسرات المصرية .

هزيمة قمبيز فى النوبة

أعد قمبيز جيشين ، خرجا من طيبة ، أحدهما قاده بنفسه – لاحتلال النوبة – ولكنه أصيب بهزيمة منكرة على أيدى حكام نباتا الذين ردّوه على أعقابه .

هزيمة قمبيز فى الصحراء الغربية

أما الجيش الآخر فكان مصيره أسوأ من مصير الجيش الأول ، إذ سار من طيبة ، فوصل إلى الواحات الخارجة ، وهناك استراح من مشاق السفر ، وأخذ ما يلزمه من المئونة ، وسار يقصد واحة (سيوة) ليستولى عليها ، ويهدم معبد آمون ، فهبت على الجند عاصفة عاتية من الرياح

أثارت عليهم الرمال ، فهلكوا فى الصحراء ولم ينج منهم أحد ، ولم يذهب أحد منهم إلى سيوة ، ولا عاد أحد منهم إلى الواحات الخارجة .

ونصب قمبيز نفسه ملكا على مصر (فرعونا) .

انتحار قمبيز

لم يبق قمبيز طويلا بعد إخفاقه فى فتح النوبة وسيوة ، وعاد أدراجه إلى فارس ، فمات فى الطريق سنة ٥٢٢ ق . م . وقيل إنه مات منتحرًا إذ كانت تصيبه نوبات عصبية .

وقد عزى انتحاره إلى إخفاقه فى حملته على النوبة وحملته الأخرى على واحة سيوة .

وخلفه ابنه (دارا) الأول .

وقد أراد (دارا) أن يستميل إليه المصريين ويخفف عنهم وطأة الهوان الذى لاقوه من الغزو ، فرفع عنهم بعض القيود ، وجاء إلى مصر زائرًا سنة ٥١٨ ق . م . وأمر بتغيير سياسة أبيه قمبيز وقرر إصلاحات جزئية .

ولكن المصريين ظلوا على سخطهم على الاحتلال الأجنبى ، وأخذوا يعدون العدة للتحرر منه . هذا ، ولا يغضّ الغزو الفارسى من مكانة المصريين ومبلغ حيويتهم .

فإن فارس كانت الدولة المتفوقة حربيا فى ذلك العصر ، وكانت ولا ريب أقوى من مصر وقتئذ ، كما لم يطعن فى حيوية الشعوب الأوروبية أن خضعت وقتا ما للإمبراطورية الرومانية ، إذ كانت أقوى دولة فى العالم .

والإمبراطورية الرومانية ذاتها على ما بلغته من قوة وسطوة قد استهدفت فى القرن الخامس بعد الميلاد لغزوات أقوام من الهمج انقضوا عليها فقهروها ودكوا معالمها ، ومزقوا أوصالها ، ومن بقاياها نشأت القوميات الأوربية .

ثورات الشعب على الاحتلال الفارسى

لم يقبل الشعب المصرى الاحتلال الفارسى ، وظل يكافحه ، وتتابعت ثوراته بين حين وآخر .

الثورة الأولى ضد الفرس
(سنة ٤٨٦ ق . م)

إن أول ثورة شبت ضد الاستعمار الفارسى كانت سنة ٤٨٦ ق . م . فى عهد الملك دارا الأول ، فقد كان مشغولاً بإعداد المعدات للزحف بقواته البرية والبحرية على بلاد الإغريق (اليونان) .

وعُرفت هذه الحروب بالحروب الميدية ، وكان الملك دارا معتزمًا غزو اليونان ، واشتبك وإياهم فى حرب طويلة المدى ، بدأت بمعركة (ماراتون) بالقرب من أثينا هزم فيها الفرس سنة ٤٩٠ ق . م .

وبعد هزيمة الفرس فى معركة (ماراتون) اعتزم دارا استئناف الغزو من جديد بجيش جرار ، ولكنه مات قبل أن ينفذ وعيده .

وفى خلال استعداده لاستئناف القتال سحب جزءا من قوات الاحتلال فى مصر ، ليستخدمها فى المعركة القادمة ، على أنه فى عهد دارا قامت فى البلاد حركة وطنية للتحرر من الاستعمار الأجنبى ، فثار المصريون ، واشتبكوا بقوات الاحتلال المنبثة فى أرجاء الوادى ، فكسروها .

ولما توفى دارا الأول سنة ٤٨٥ ق . م . خلفه على عرش فارس ابنه (أجزر كسيس) . وزحف على مصر ليقمع الثورة فتصدى له أبناؤها ، ولكن القوة غلبتهم على أمرهم وأخمدت ثورتهم ، وبذلك انتهت الثورة الأولى بالإخفاق .

وكان اليهود فى إلفنتين (جزيرة أسوان) وغيرها من المدن المصرية أعوانًا للفرس ضد المصريين فى كفاحهم .

وارتد الفرس عن بلاد الإغريق بعد هزيمتهم فى معركة مضيق ترموبيل وفى معركة سلاميس البحرية وكلتاهما سنة ٤٨٠ ق . م .

وقتل أجزر كسيس سنة ٤٦٤ ق . م . بيد قائد حرسه .

وكان هذا العاهل مشهورًا بالخلاعة والإثم .

وخلفه (أرتا جزر كسيس) .

الثورة الثانية

وثار المصريون للمرة الثانية ضد الاستعمار الفارسى سنة ٤٦٠ ق . م . بقيادة الزعيم (إيناروس Inaros) أحد أفراد أسرة أبسماتيك ، وقد لبى المواطنون دعوته وشاركوه فى ثورته .

وبعد أن انتصروا على جيش الفرس ظفر بهم (أرتاجزر كسيس) وأعدم إيناروس سنة ٤٥٦ ق . م . وأخفقت الثورة الثانية .

وعادت مصر ترزح تحت نير الفرس من جديد .

الثورة الثالثة
جلاء الفرس للمرة الأولى
(سنة ٤٠٤ ق . م)

ومات (أرتاجزر كسيس) سنة ٤٢٤ ق . م . فخلفه على العرش (دار الثانى) .

وثارت مصر فى وجه الفرس بقيادة البطل أمير تاوس (آمون حر) سنة ٤١٠ ق .م . واستمرت الثورة عدة سنوات .

انتصرت هذه الثورة ، وحررت البلاد من احتلال الفرس سنة ٤٠٤ ق .م .

وبويع أمير تاوس (آمون حر) محرر البلاد من الاحتلال الفارسى ملكًا على مصر المستقلة سنة ٤٠٤ ق .م . مؤسسًا الأسرة الثامنة والعشرين الذى كان ملكها الوحيد ، وحكم البلاد نحو ست سنوات .

ونعمت مصر باستقلالها نيفا وستين عامًا ، توارث العرش فى خلالها الأسرات الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون ، وكلها مصرية .



نقطانب الثانى
آخر ملوك الفراعنة فى مصر

نقطانب الأول ونقطانب الثانى

وممن تولوا الحكم فى هذه الفترة (فترة الاستقلال) نقطانب الأول ، وقد تولى سنة ٣٨٠ ق .م . ، وقضى فى الحكم نحو ثمانية عشر عامًا ، وهو سمنودى المنبت .

ونجح فى صد هجوم عنيف للفرس على مصر .

وقد وصلت مصر فى عهد نقطانب الأول إلى مكانة ممتازة من الرقىّ والمتعة ، وتقدمت فيها العمارة والفنون الجميلة .

وتراجعت مكانة الدولة الفارسية بعد الهزيمة التى حاقت بها فى مصر ، وانشق عنها بعض ولاياتها .

وقد ترك نقطانب الأول عمائر وآثارًا دلت على ثبات مركزه واستقرار نفوذه .

ففى معبد الكرنك أقام بوابة كبرى ارتفاعها تسعة عشر مترًا ، وقد أتم هذا البناء نقطانب الثانى وأقام مبانى أخرى كثيرة فى الوجه القبلى والوجه البحرى .

وخلفه نقطانب الثانى ، وقد حكم أيضًا نحو ثمانية عشر عامًا .

وهو آخر فرعون وطنى حكم مصر .

عودة الفرس إلى مصر ثم مجىء الإسكندر الأكبر (سنة ٣٤١ ق .م)

وفى سنة ٣٤١ ق .م . جرّد الفرس حملة جديدة على مصر ، وكان يتولى الحكم فيها نقطانب الثانى ، وهاجمت مصر برًّا وبحرًا ، فهزمت الجيش المصرى ، واحتلت البلاد ثانية بعد أن كان الفرس قد جلوا عنها ، وبعد أن استردت مصر استقلالها منذ أكثر من ستين عامًا ، ولم يذعن نقطانب الثانى للاحتلال الفارسى الجديد ، وارتد سنة ٣٤١ ق .م . إلى النوبة تفاديًا مع الوقوع أسيرًا فى يد الفرس ، ولم يُعرف ماذا كان مصيره .

وأسس الفرس أسرة جديدة غاصبة .

لم تذعن مصر للاحتلال الفارسى الجديد ، بل تجددت فيها الانتفاضات القومية .

إلى أن جاء الإسكندر الأكبر سنة ٢٣٣ ق .م . يحارب الفرس ، ويصادق المصريين .

ملحق للفصول السابقة

الأسرات الملكية فى مصر القديمة

الدولة القديمة

الأسرة الأولى

(٣٢٠٠ – ٣٠٠٠ ق م)[1]

الملك مينا
عحا
جر
واجيت
وديمو
عزيب
سمرخت
قاع

الأسرة الثانية

(٣٠٠٠ – ٢٧٨٠ ق م)

حتب سخموى
رع نب
نتريمو
سخم بب
بريب سن
خع سخم
خع سخموى

الأسرة الثالثة

(٢٧٨٠ – ٢٦٨٠ ق م)

زوسر
سخم خات

---

(١) اعتمدنا فى هذه التواريخ على كتاب الدكتور أحمد فخرى (مصر الفرعونية) ص ١٧ وما بعدها .

حابا
نفركا
حونى

الأسرة الرابعة – بُناة الأهرام

(٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ ق م)

سنفرو
خوفو
ددف رع
خفرع
منكاورع
شيسكاف

الأسرة الخامسة

(٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق م)

أوسر كاف
ساحو رع
نفرار كارع
شيسكا رع
نفر رع
نو سررع
منكو حور
ددكارع (أسيسى)
أوناس

الأسرة السادسة

(٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ ق م)

تيتى
أوسر كارع
ببى الأول
مرن رع

ببى الثانى
مرن رع الثانى
الملكة نيتو كريس

الأسرة السابعة
(٢٢٨٠ ق .م)

سبعون ملكا حكموا سبعين يوما كما ذكر المؤرخ المصرى مانيتون

الأسرة الثامنة
(٢٢٨٠ – ٢٢٤٢ ق .م)

نفر كارع الأصغر
نفر كارع
جد كارع ... إلخ إلخ .

الأسرة التاسعة
(٢٢٤٢ – ٢١٣٣ ق .م)

أختوى الأول
نفر كارع
أختوى الثانى
ستوت
أختوى الثالث
...

الأسرة العاشرة
(٢١٣٣ – ٢٠٥٢ ق .ع)

مرى حتحور
نفر كارع
أختوى الرابع
مرى كارع
أختوى الخامس

الدولة الوسطى
الأسرة الحادية عشرة كانت تنازع الأسرة العاشرة
(٢١٣٤ – ١٩٩١ ق .م)

إنتف الأول
إنتف الثانى
إنتف الثالث
منتوحتب الأول
منتوحتب الثانى
منتوحتب الثالث
منتوحتب الرابع
منتوحتب الخامس

الأسرة الثانية عشرة
أسرة أمنمحات
(١٩٩١ – ١٧٧٨ ق .م)

أمنمحات الأول
سنوسرت الأول
أمنمحات الثانى
سنوسرت الثانى
سنوسرت الثالث
أمنمحات الثالث
أمنمحات الرابع
الملكة سبك نفرو

الأسرة الثالثة عشرة
(١٧٧٨ – ١٦٢٥ ق .م)

نحو ستين ملكا ضعفت فى عهدهم الجبهة الداخلية .

الأسرة الرابعة عشرة
(١٧٧٨ – ١٦٥٤ ق .م)

بدأت فى الوقت الذى بدأت فيه الأسرة الثالثة عشرة وزادت عليها .

الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة

من الهكسوس . وتمثلان الاحتلال الأجنبي . ولا يصح اعتبارهما ضمن الأسرات المصرية .

الأسرة السابعة عشرة

(١٦٦٠ - ١٥٧٠ ق م)

استقل بالحكم فرع من ملوك طيبة فى أواخر عهد الهكسوس وبدأت حرب التحرير فى عهد سقنن رع

...

...

...

سقنن رع

كامس

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق م)

أحمس الأول
أمنحوتب الأول
تحوتمس الأول
تحوتمس الثانى
الملكة حتشبسوت
تحوتمس الثالث ، أو الأكبر
أمنحوتب الثانى
تحوتمس الرابع
أمنحوتب الثالث
أخناتون (أمنحوتب الرابع)
سمنخ كارع
توت عنخ آمون
آى
حورمحب

الأسرة التاسعة عشرة

(١٣٠٤ - ١١٩٥ ق م)

رمسيس الأول
سيتى الأول
رمسيس الثانى ، أو الأكبر
منفتاح
آمون مس
منفتاح الثانى
سيتى الثانى
الملكة تاوسرت

الأسرة العشرون

(١١٩٥ - ١٠٨٠ ق م)

ست نخت
رمسيس الثالث
رمسيس الرابع
رمسيس الخامس
رمسيس السادس
رمسيس السابع
رمسيس الثامن
رمسيس التاسع
رمسيس العاشر
رمسيس الحادى عشر

الأسرة الحادية والعشرون

(١٠٨٠ - ٩٥٠ ق م)

سمندس
حريحور
بسوسنس
أمنابت
سيامون

بسونس الثانى
بسونس الثالث

الأسرة الثانية والعشرون
(٩٥٠ - ٧٣٠ ق.م)

شيشنق الأول
أوسركون الأول
تاكيلوت الأول
أوسركون الثانى
شيشنق الثانى
تاكيلوت الثانى
شيشنق الثالث
بامى
شيشنق الرابع

الأسرة الثالثة والعشرون
(٨١٧ - ٧٣٠ ق.م)

بادوبست
أوسركون الثالث
تاكيلوت الثالث
أمون رود
أوسركون الرابع

الأسرة الرابعة والعشرون
(٧٣٠ - ٧١٥ ق.م)

تفنخت
بوخوريس

الأسرة الخامسة والعشرون
(٧١٥ - ٦٦٣ ق.م)

بعنخى
شبكا

شبتاكا
طهارقه

الأسرة السادسة والعشرون
(٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م)

أبسماتيك الأول
نيخاو الثانى
أبسماتيك الثانى
أبريس
أمازيس
أبسماتيك الثالث

الأسرة السابعة والعشرون
(٥٢٥ - ٤٠٤ ق.م)

تحذف لأنها تمثل الاحتلال الفارسى ، ولا يصح إدراجها ضمن الأسرات المصرية .

الأسرة الثامنة والعشرون
(٤٠٤ - ٣٩٨ ق.م)

أمير تاوس (آمون حر) اعتلى العرش على أثر ثورة على الفرس .

الأسرة التاسعة والعشرون
(٣٩٨ - ٣٧٨ ق.م)

نفريتس
أوكوريس
بساموتيس
نفريتس الثانى

الأسرة الثلاثون
(٣٧٨ - ٣٤١ ق.م)

نقطاب الأول
تاخوس
نقطاب الثانى

الفصل الثانى عشر

الإسكندر الأكبر فى مصر وجلاء الفرس عنها

(سنة ٣٣٢ ق . م)

تمهيد

بلغ الصراع بين الفرس والإغريق (اليونانيين) مرحلة حاسمة حين تولى الإسكندر عرش مقدونيا وعمره عشرون سنة ، ودارا الثالث عرش فارس .

وكانت الدولة الفارسية قد اتسع ملكها ، فشمل آسيا الغربية ، وامتد من الهند إلى البحر المتوسط ، وكانت لها قوة بحرية ضخمة على شواطئ ذلك البحر ، ولها السيادة عليها ، وكانت سورية وفلسطين ضمن أملاكها .

فاعتزم الإسكندر قهر هذا العدو الجبار ، وأعدّ لذلك جيشا عبر به بوغاز الدردنيل ، وكان يسمى هلسبونت Hellespont .

واشتبك بجيش الفرس عند نهر (جرانيق) Granique الذى يصب فى بحر مرمرة ، فظفر بهم ظفرًا عظيمًا سنة ٣٣٤ ق . م .

وزحف بعد هذه الواقعة بحذاء الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، ثم فى قلب الأناضول .

حتى التقى بالفرس سنة ٣٣٣ ق . م فى (إيسوس) Issus الواقعة على الخليج المعروف الآن بخليج الإسكندرونة ، فانتصر عليهم انتصارا ساحقا ، وفر دارا الثالث منهزما إلى (بابل) .

لم يشأ الإسكندر أن يتعقب دارا بعد واقعة إيسوس .

وآثر أن يزحف أولا على البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ، لكى يخضعها ويبسط سلطانه عليها ، ولا يتخذ منها الأسطول الفارسى قواعد له تعوق زحفه .

وكانت هذه الخطة المحكمة دليلاً على بعد نظره ونفاذ بصيرته فى الحروب .

فزحف الإسكندر على ثغور البحر المتوسط فى فينيقية وسورية وفلسطين فاحتلها ، وخضعت له ، كما خضعت دمشق وبيت المقدس .

ثم احتل الثغور دون مقاومة ، فيما عدا (صور) التى قاومت مقاومة شديدة ، فحاصرها وفتحها عنوة ، وكذلك قاومت غزة ، فحاصرها وأخضعها .

ثم وصل إلى مشارف مصر على رأس جيشه البالغ نحو أربعين ألف مقاتل يعاونه أسطوله الذى كان يسير على مقربة من الشاطئ .

وبلغ (بيلوز) « الفرما » . وكانت وقتئذ أول حدود مصر .

دخوله مصر

(سنة ٣٣٢ ق . م)

وكان هزائم الفرس أمام زحفه قد أفقدتهم القوة على صدّه ، فدخل مصر فى خريف سنة ٣٣٢ ق . م .

ووصل دون قتال إلى (منف) عاصمة مصر وقتئذ .

ولم يجد الوالى الفارسى الذى كان يحكم مصر مفرا من التسليم إذا رأى أن مقاومة الإسكندر لا تجدى .

وقد ابتهج المصريون لهزيمة الفرس ، ورأوا فى الإسكندر بادئ الأمر منقذا لهم من الاحتلال الفارسى ، ولم يكونوا لينسوا أن الفرس قد انتزعوا عرش مصر من آخر ملوك الفراعنة ، وأقاموا حكما أجنبيا بغيضًا امتهن كرامة بلادهم ، مما حفزهم إلى الثورة عليه ثلاث مرات .

احترم الإسكندر ديانة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم .

ولم يكتف بذلك ، بل توج نفسه تتويجا فرعونيًّا فى معبد (بتاح) بمدينة (منف) ، وقلد الفراعنة الأقدمين فيما كانوا يفعلون عند اعتلائهم عرش مصر .

وإذ كان المصريون يرمزون بالكبش المقدس إلى الإله آمون ، فقد أمر الإسكندر أن تبرز فى صوره قرنا (آمون) من قمة رأسه .

ولعل هذا التصوير هو الذى جعل بعض مؤرخى العرب يسمونه الإسكندر ذى القرنين .

الاستقلال الداخلى لمصر

واجتذب إليه قلوب المصريين من الناحية السياسية بأن قرّر لمصر الاستقلال الداخلى (الحكم الذاتى) .

واختار حاكمين لمصر ، أحدهما مصرى ، والثانى أناضولى أو فارسى ، ومنح كليهما السلطة الكاملة فى إدارة منطقته .

على أن الحاكم الأخير لم يلبث أن استقال ، أما الحاكم المصرى فلم تزد سلطته على سلطة وزير داخلية .

وعهد بالشئون المالية إلى حاكم « يونانى » .

وعين الإسكندر قوادًا على حامية من المقدونيين .

وعامل المصريين بوجه عام معاملة كريمة ولم يعاملهم معاملة المنهزمين ، لأنه إنما انتصر على الفرس ، واحترم المصريين لعراقتهم وحضارتهم وماضيهم المجيد .

ولم تستبن النيات النهائية للإسكندر أثناء مقامه فى مصر ، ولم يتسع الوقت ليدرك المصريون حقيقة مقاصده .

وإنما رأوه يحطم دولة الفرس الذين ساموا المصريين الخسف والاضطهاد أثناء احتلالهم الممقوت للبلاد .

فلا غرو أن فرحوا لمجيء الإسكندر ، كما فرح الفرنسيون لاحتلال الأمريكان وحلفائهم فرنسا سنة ١٩٤٥ فى الحرب العالمية الثانية ، إذ كان فى هذا الاحتلال المؤقت سحق لأعدائهم (الألمان) وتحرير لفرنسا من نيرهم .

تأسيس الإسكندرية
(سنة ٣٣٢ ق .م)

يعتبر تأسيس الإسكندرية أخلد عمل للإسكندر فى مصر .

فقد رأى أن يؤسس مدينة جديدة للشمال الغربى للدلتا يجعلها عاصمة للبلاد ، وتكون أقرب إلى مقدونيا ، وأخذ يرود الشواطئ الشمالية ليختار الموقع الجدير بهذه الغاية ، وكان يصاحبه فى اختياره مهندسه المدعو دينوقراطس Dienocrates.

وكان يبحث عن موقع على شاطئ البحر المتوسط بعيد عن مصب الفرع الكانوبى[1] ليكون بمنأى عن رواسب الطمى التى يلقى بها النيل فى البحر ، وقد تعيق الملاحة .

وأعجبه الشاطئ الممتد من البحر شمالا إلى بحيرة مريوط جنوبا .

فاختار قرية كانت تدعى (راقودة) على شاطئ البحر المتوسط ، وكانت لا تزيد على ميناء صغير للصيادين ، تجاورها جزيرة مقفرة كان الصيادون يأوون إليها أيضًا تدعى جزيرة « فاروس » (رأس التين الآن) .

وكان ملوك مصر الأقدمون قد أقاموا فى هذه القرية نقطة عسكرية لصدّ من تحدثه نفسه من الأجانب عن دخول البلاد أو التسلل إليها .

فأسس فيها سنة ٣٣٢ ق .م العاصمة الجديدة ، وسماها باسمه (الإسكندرية) . ثم أمر بإنشاء جسر بين موقع راقودة والجزيرة المذكورة ، ليكون للمدينة الجديدة ميناءان : الميناء الشرقى . والميناء الغربى ، يتصلان بواسطة ممرين فى طرفى الجسر الموصل لجزيرة فاروس بالشاطئ .

(١) من فروع النيل القديمة (انظر الخريطة ص ١٩٤) .

فروع النيل القديمة السبعة بالدلتا

١ - الفرع البلورى
٢ - الفرع التانيسى
٣ - الفرع المنديسى
٤ - الفرع الفاتميتى (فرع دمياط)
٥ - الفرع السبنيتى
٦ - الفرع البوليتى (فرع رشيد)
٧ - الفرع الكانوبى

ويبدأ الفرع الكانوبى من رأس الدلتا ويسير إلى قرية زاوية البحر (بمركز كوم حمادة الآن) ويتجه إلى الشمال الغربى حتى يصب فى خليج (أبو قير) . وكانت (أبو قير) تسمى (كانوب)

زيارة الإسكندر لواحة سيوة

وبعد أن وضع تخطيط مدينة الإسكندرية ، اتجه إلى المكان المعروف الآن بمرسى مطروح .

ومن هناك قصد واحة (سيوة) حيث كان بها معبد آمون ، ووصل إليها بعد مسيرة اثنى عشر يومًا .

وزار المعبد ، ورحّب كبير الكهنة بمقدمه ، ومنحه لقب (ابن آمون) .

وقد أراد الإسكندر بهذه الزيارة أن يثبت للرأى العام العالمى نسبه للآلهة ، وتأييد إله سيوه لمشروعاته المقبلة ، وقد كان هذا الإله يتمتع بين الإغريق بمكانة سامية .

وذهب بعد الزيارة إلى (منف) .

ولم يكن معروفًا على وجه التحقيق مقاصد الإسكندر من فتوحاته ، ولا من مجيئه إلى مصر كما سلف القول ، ولكن تاريخه يدل على أنه لم يقصد قهر الفرس فحسب ، بل كان يتطلع إلى أن يكون سيّد العالم ، وكان يطمع فى أن يؤلف بين الشرق والغرب ، ويجعل منهما مجموعة يكون هو رئيسها الأعلى .

لقد كانت سياسته أقرب إلى الإنسانية .

ومن الدلائل على مقاصده فى التقريب بين الشرق والغرب ، أنه تزوج أثناء فتوحاته الآسيوية من فارسية تدعى (روكسانا) ابنة والى باكتريا Backtria (بلخ) ، ورغب إلى بعض قواده أن يتزوجوا مثله بسيدات شرقيات .

وبعد أن قضى فى مصر نحو ستة أشهر ، غادرها فى ربيع سنة ٣٣١ ق .م . ليتم فتوحاته .

فاخترق فلسطين فسورية مرة أخرى ، وسار منها إلى بلاد الرافدين (دجلة والفرات) ، وتعقب (دارا الثالث) ، فهزمه فى واقعة (أربل) Arbèles فى أكتوبر سنة ٣٣١ ق . م . وفر دارا مقهورًا .

ودك الإسكندر مملكة فارس ، واستولى عليها وأسس على أنقاضها إمبراطورية وصلت إلى شواطئ السند ، وامتدت من مقدونيا إلى الهند .

ولما عاد إلى (بابل) مرضى بالحمى ومات سنة ٣٢٣ ق .م قبل أن يتم الثالثة والثلاثين من العمر .

لم تتبين مقاصد الإسكندر نحو مصر كما أسلفنا ، على أنه وهو فى آسيا قد أصدر أمره بإقصاء الحاكمين اللذين عينهما وهو فى مصر ، وأبدل بهما حاكمًا مقدونيًا واحدًا[1] .

(١) بيير جوجيه Pierre Jouguet مصر البطلمية (ص ٦) .

الفصل الثالث عشر

البطالمة فى مصر وثورات الشعب عليهم

(٣٢٣ – ٣٠ ق . م)

بعد وفاة الإسكندر فى (بابل) ، اجتمع بها قواد جيشه للبحث فى مصير الإمبراطورية بعد وفاة عاهلها العظيم ، وخاصة لأن الإسكندرية لم يترك وصية ، ولا رشح أحدا خلفًا له ، ولا نظم طريقة للحكم من بعده ، ولم يكن له وريث فى الملك .

حقا إن زوجته الفارسية (روكسانا) كانت حاملا حين وفاته .

ولكنها كانت سيدة « شرقية » ، وكان فريق من المقدونيين ينكرون على طفلها حق اعتلاء عرشه ، ويطالبون بالمناداة بأخ الإسكندر غير الشقيق (ارهيدايوس) ملكًا ، واستقر الرأى أخيرًا على المناداة بأرهيدايوس ملكًا عليهم تحت الوصاية مع الاحتفاظ بحق جنين روكسانا فى الملك إذ كان ذكرًا باعتباره شريكا فى الملك تحت الوصاية .

وبعد الفراغ من مشكلة ولاية العرش قسمت ولايات امبراطورية الإسكندر بين قواده ليحكموها باسم التاج المقدونى .

فكانت مصر من نصيب بطليموس Ptolemeé بن لاجوس Lagos وهو من أشهر قواد الإسكندر ، وقد اختارها لنفسه .

وقسمت باقى البلاد الأخرى بين قواد الإسكندر .

وحضر بطليموس إلى مصر فى خريف سنة ٣٢٣ ق . م[1] ، باعتباره واليا عليها ، وحكم البلاد حكمًا مطلقًا .

وأفضت أطماع قواد الإسكندر إلى حروب شعواء قطعت أوصال الإمبراطورية وقامت على أنقاضها ثلاث ممالك مستقلة كانت أعظمها واقواها دولة البطالمة فى مصر .

ففى سنة ٣٠٥ ق . م نادى بطليموس بنفسه ملكًا على مصر .

وجعل الملك وراثيا فى ذريته ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالبطالمة ، لأنهم جميعا تسموا باسمه .

فالبطالمة إذن هم أسرة أجنبية ، قضت المصادفات التعسة أن يؤسسوا لهم ملكًا فى مصر ، إحدى الدول التى فتحها الإسكندر الأكبر .

وقد اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، ولا غرو فهى المدينة التى أسسها الإسكندر ، وكانت

(١) بير جوجيه – مصر البطلمية المرجع السابق ص ١٠ .

بموقعها على البحر المتوسط أقرب إلى بلادهم (مقدونيا) . وبَعُد عن حصار لانقضاض عليهم من المصريين فيما لو اتخذوا عاصمتهم في (منف) .

فهم من هذه الناحية قد قلدوا الهكسوس (الرعاة) في تخذهم (أواريس) القريبة من حدود مصر الشرقية عاصمة لهم كما أسلفنا (ص ٧٣) .

وبطليموس الأول هو مؤسس دولة البطالمة في مصر .

وقد كان ولا [illegible] محاربا قويا ، حنكته الحروب ، وسياسيًّا حصيفا واسع الأفق بعيد المطامع وحسبك أنه من قواد الإسكندر وزميله في فتوحاته العظيمة .

وقد أمكنه أن يؤسس لنفسه ولنسله دولة ظلت تحكم مصر [illegible] من سنة ٣٢٣ ق . م ، إلى أن [illegible] في واقعة (اكتيوم) البحرية سنة [illegible] انتهى حكم البطالمة واستولى الرومان [illegible] على مصر سنة [illegible]

نقل جثمان الإسكندر إلى مصر

وكان أول عمل [illegible] بطليموس الأول [illegible] الإسكندر إلى مصر ، ثم نقل رفاته [illegible] سارت [illegible] مصر ، ودفن

جثمانه مؤقتًا في (منف) ، ثم نقل منها إلى الإسكندرية بعد أن أتم بطليموس تشييد ضريح فخم للإسكندر في ساحة (السوما)[1] ، (انظر موقعها على الخريطة ص ١٩٨) .

وأسبغ بذلك على نفسه مجدًا ، يؤهله لخلافة الفاتح العظيم ، ويجعله أقرب الناس إليه .

وهذا الضريح قد عَفَت عليه القرون وخفى حتى الآن (١٩٦٢) عن أعين العلماء والأثريين ، ولا يعرف ماذا كان مصيره .

على أنه من الثابت أن يد التخريب قد امتدت إلى القبر في عهد البطالمة أنفسهم ، فقد ذكر (بيفان) Bevan أن بطليموس العاشر ، قد سطا على تابوت الإسكندر ، وكان مصنوعا من الذهب الخالص ، واستبدل بالذهب زجاجًا ، وكانت دعواه في هذا العمل المنكر أنه في حاجة إلى الذهب لسد نفقات جنوده فاستاء الإسكندريون لهذا العمل المزرى[2] .

وقد أُلّه بطليموس الأول بعد وفاته ، ووضعت سنة تأليه ملوك مصر ، وعند وفاته اتبع ابنه رغبة أبيه ، فألهه باسم (سوتر) أي المنقذ ، ثم لم يلبث أن ألّه نفسه وزوجته في حياتهما باسم الإلهين أدلفوس أي الإلهين الأخوين ، ومنذ ذلك الحين أصبح كل بطليموس يرتقى العرش يؤله نفسه وزوجته في حياتهما ، ويحتفظان بألوهيتهما (الباطلة) بعد مماتهما .

وأتم بطليموس الأول إنشاء مدينة الإسكندرية كما خططها الإسكندر ، وتم تشييدها في عهده وفي عهد خلفه بطليموس الثاني .

وصارت من أعظم مدن العالم موقعًا ومكانة ، وكانت (ولا تزال) تتملك إعجاب أهلها والسائحين والقاصدين إليها بمناظرها البديعة ، وطول شواطئها على البحر المتوسط ، واتساع رقعتها ، واستقامة شوارعها المتقاطعة في زوايا قائمة ، وما فيها من المعاهد والنوادي والملاعب والمنشآت .

وأنشأ جيشا وأسطولاً عزز بهما القوة الحربية التي تركها الإسكندر في مصر ، واتخذ منهما سندًا أو وسيلة لإخضاع مصر لأطماعه الاستعمارية وتحقيق أغراضه في البلدان المجاورة .

منارة الإسكندرية

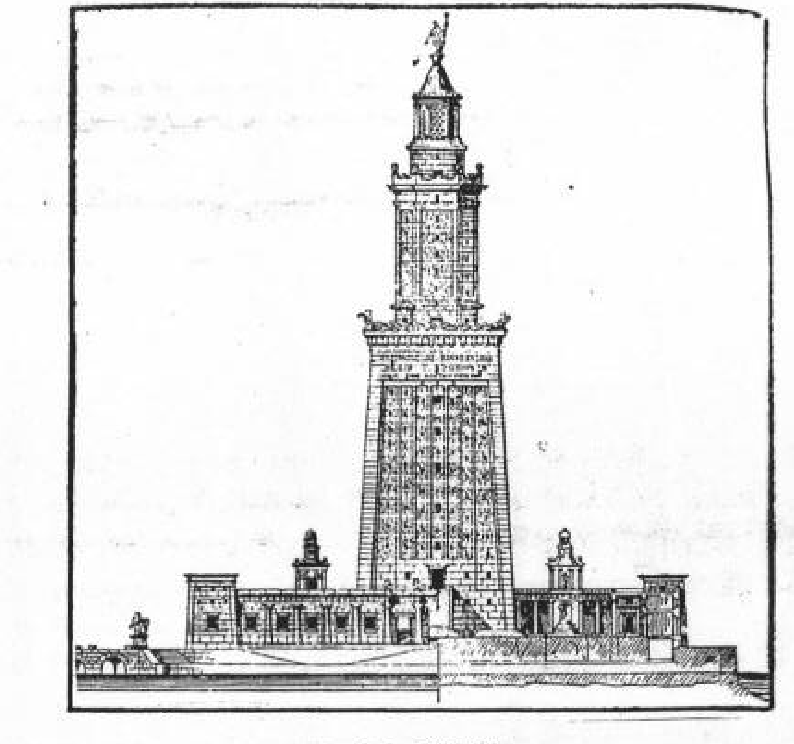
وأقام على صخرة شرقى جزيرة فاروس (المنارة) التي اشتهرت بمنارة الإسكندرية العظيمة (مكانها الآن قلعة قايتباى) ، وهي التي اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة .

وقد أكملها ابنه بطليموس الثاني .

---

(١) وقد يكون السبب في نقله إلى الاسكندرية أن بطليموس الأول اعتزم اتخاذها عاصمة للبلاد بدلا من (منف) ليكون أبعد عن الشعب المصرى وأقرب إلى بلاده (مقدونيا) .

(٢) بيفان Bevan تاريخ اللاجيديين (البطالمة) Histoire des Lagides ص ٣٢٤ وإبراهيم نصحى ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ١ ، ٢٣٣ .



منارة الإسكندرية القديمة
أقامها بطليموس الأول وأكملها ابنه بطليموس الثانى

وازدهرت التجارة الخارجية فى عهد البطالمة الأول ، وصارت الإسكندرية ملتقى القادمين من القارات الثلاث .

وبنى مدرسة الإسكندرية الجامعة (دار الحكمة) ، وكانت تعرف عندهم بالموزيون (موئل ربات الشعر والفن) .

وقد جمع فيها العلوم المعروفة فى ذلك العصر من رياضيات وفلسفة وطب وآداب وطبيعة ومعرفية وفلك وجلب إليها طائفة من علماء الإغريق (اليونانيين) .

وكانت الدراسة فيها باليونانية .

وأنشأ بهذه الجامعة المكتبة الشهيرة التى عرفت بمكتبة الإسكندرية وأتم ابنه بطليموس الثانى عددها وتنظيمها .

وأنشأ مدينة سماها بطلمية Ptolemais حيث تقوم اليوم بلدة (المنشية) بمحافظة سوهاج ، واتجه نشاطه إلى تعميرها لتنافس طيبة عاصمة العالم المتمدن فى مصر الفرعونية .

ولم يكن بطليموس على أخلاق قويمة ، فقد كانت له محظيات كثيرات[1] .

ومن عشيقاته (برنيكى) Berenike التى كانت متزوجة من قبل ، وأحبها وتزوجها هو على زوجة أخرى له ، وهى يوريديكى Eurydike .

وأنجبت له بطليموس الثانى .

فبرنيكى هى الجدة العليا لأسرى البطالمة[2] .

وقيل إن بطليموس الثانى ليس ابنا شرعيا لبطلميوس الأول .

وتوفى بطليموس الأول عام ٢٨٣ ق . م .

وخلفه على الملك بطالمة عديدون تعاقبوا على عرش مصر .

ولم يعرف عنهم فى الجملة سوى أنهم أهل خلاعة ومجون ، وفساد فى الأخلاق والسّيَر .

فبطليموس الثانى (فيلادلف) Philadeiph كان منغمسًا فى الملذات . وكان له عشيقات عديدات من جميع الطبقات . وكن يثرن الدهشة فى العالم بإغراقهن فى البذخ والشهوات[3] .

وكان إلى جانب ذلك مستبدًا طاغيًا ، وكان لزواجه بأخته (أرسينوى) Arsinoè (وكان زواج الأخ بأخته ممنوعًا فى شريعة الإغريق) أثر كبير فى سياسته ، إذ كانت لها السيطرة التامة عليه ، وكانت امرأة لا تتورع عن ارتكاب الجرائم ومنها القتل والاغتيال لكى تنفرد بالسلطة وتستأثر بها[4] .

وبطليموس هذا هو الذى عهد إلى المؤرخ المصرى (مانيتون) أن يضع كتابًا باللغة اليونانية عن تاريخ مصر القديمة ، ففعل ، ولكن الكتاب أحرق ضمن مكتبة الإسكندرية سنة ٤٨ ق . م . ولم يبق منه إلا شذرات نقلها بعض المؤرخين .

وبطليموس الثالث (ايفرجيت) Euvergete هو ابن بطليموس الثانى ، وقد تولى العرش سنة ٢٤٦ ق . م .

وبعد وفاة بطليموس الثالث آل العرش إلى ابنه بطليموس الرابع ، وكان شابًا عابثًا فى الثانية والعشرين من عمره ، شغفًا بالمجون .

---

(١) إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عصر البطالمة جـ ١ ص ٥٣ .
(٢) بيبرجوجيه – مصر البطلمية ص ١٠ المرجع السابق .
(٣) بيبرجوجيه – مصر البطلمية ص ٤٧ المرجع السابق .
(٤) بيبرجوجيه – مصر البطلمية ص ٤٨ المرجع السابق .

وقد اصطفى من أجله رفاقًا من حثالة الإسكندرية أطلق الإسكندريون عليهم اسم (إخوان الأنس) .

وكان عبدًا طيعًا لعشيقته المفضلة أجاتوكليا Agateoclea التي قلبت الدولة كلها رأسًا على عقب ، ولم تقنع هي وأسرتها بالسيطرة على الملك ، بل تغلغل نفوذها في الدولة إلى حد طغى على نفوذه[1] .

ويقول (هارولد بل) عن بطليموس الرابع إنه كان غرا فاجرا متهتكا ، وكان ذليلاً مستضعفًا[2] .

وتعاقب البطالمة على العرش ، وكانت غالبيتهم أهل مجون واستهتار بالأخلاق والفضائل الشخصية والسياسية ، وكانت قصورهم مباءة لأحط أنواع الفساد والرذائل .

وظلوا كذلك حتى انقرض حكمهم بانتحار كليوبترة آخر ملوكهم سنة ٣٠ ق . م .

سياسة البطالمة فى مصر

حكم البطالمة على الرغم من إرادة أهلها ، ولم تكن لهم صلة بها ، اللهم إلا فى أن بطليموس الأول كان كما أسلفنا أحد زملاء الإسكندر فى الحروب ، هذا إلى أنهم اتخذوا سمات الفراعنة ليتمتعوا بما كان للفراعنة من سيطرة مطلقة على البلاد .

ولقد سار البطالمة فى الملك الذى آل إليهم سيرة تختلف عن سيرة الفراعنة ، وسيرة الإسكندر وسياسته ، فلم يحترموا حتى الاستقلال الداخلى الذى اقرّه الإسكندر فى مصر .

التفرقة العنصرية

وإن ما شهده المصريون منهم ، قد دلّ على مقاصدهم من البقاء فيها كانت ولا ريب مقاصد استعمارية بغيضة ، وكانوا يتبعون فى مصر سياسة التفرقة العنصرية .

فقد أخذت هجرة المقدونيين واليونانيين إلى مصر تتفاقم فى عهدهم ، إذ رأوهم يؤلفون دولة يونانية ويجتذبون بنى جلدتهم إلى مصر ، ويرغبونهم فى البقاء فيها بمختلف الوسائل والامتيازات .

وبدأت هجرة هؤلاء المستعمرين إلى مصر فى عهد بطليموس الأول ، واستمرت فى عهد خلفائه من بعده .

(١) بيرجوجيه – المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) هارولد بل Harold Bell الهلينية فى مصر ص ٨٢ . تعريب الأستاذ زكى على .

أراد البطالمة أن يجعلوا من مصر دولة مقدونية لا مصرية ، وأن يتخذوها مستعمرة لهم فيكونون أهم ملوكها وحكامها المستعمرين .

ولم تكن لهم يد على مصر حتى يؤول إليهم حكمها بإرادة أهلها ، ولا علاقة لهم بها من قبل ، ولا لهم أسرة معروفة فيها ، فإن تسميتهم بالبطالمة راجع إلى أن أول ملك منهم كان اسمه بطليموس بن لاجوس .

وحتى لو كانت مصر قد أفادت من الإسكندر إذ حررها من حكم الفرس ، فلم تكن لترضى أن يكون هو ملكًا عليها بدلا من الفرس .

فمن باب أولى لم يكن لبطليموس هذا أى يد عليها ، بل كان اعتلاؤه عرشها اغتصابًا منه .

وقد اتسم حكمه ، وحكم خلفائه من بعده بطابع الغصب والقهر ، وخاصة لأنهم نظروا إلى مصر كأنها مستعمرة مقدونية ولم ينسوا يوما صفتهم اليونانية .

واستمرت اللغة اليونانية لغتهم ، وقد جعلوها اللغة الرسمية للدولة ، وكانوا يجهلون اللغة المصرية ، ولم يحاولوا قط أن يتعلموها ، ولم يتعلمها (العامية منها) سوى (كليوبترة) آخر البطالمة .

ولم يعترفوا باللغة المصرية فى مخاطباتهم أو فى مراسلات الحكومة .

وعلى الرغم من طول المدة التى حكموا فيها مصر والتى بلغت ثلاثة قرون ، فإنهم لم يتركوا لغتهم ولم يتعاملوا بغيرها ، وظلوا مقدونيين يونانيين طوال هذه القرون .

واستأثر الإغريق بالمناصب الرفيعة فى الدواوين وفى القصر الملكة ، ولم يكن نصيب المصريين سوى الوظائف الصغيرة فحسب .

واستعلى البطالمة على المصريين عامة ، واتخذوا من اليهود عملاء لهم وأولياء ، وأغدقوا عليهم المزايا ليضمنوا بقاءهم إلى جانبهم ، وليفسدوا بهم القومية المصرية .

وظل البطالمة يونانيين فى تفكيرهم وشعورهم ولغتهم وفى كل مظاهر حياتهم .

فالمصريون فى عهد البطالمة قد فقدوا استقلالهم ، وأسئ إليهم فى حياتهم الاقتصادية والشخصية .

وعاملهم المقدونيون واليونانيون من أول عهد بطليموس الأول معاملة شعب مغلوب على أمره ، بينما عاملوا بنى جنسهم معاملة السادة ، فكان هذا ولا ريب ضروب الاستعمار .

واعتمد البطالمة على المقدونيين واليونانيين فى حكم البلاد ، وفى تنظيم قوة الدفاع عنها ، وحكموا البلاد باعتبارهم أجانب عنها ، وفتحوا لليونانيين والمقدونيين أبواب الوادى ، ودعوهم للإقامة فيه ، وأجزلوا لهم العطايا والمنح والمزايا ، كل ذلك على حساب الوطنيين .

وبلغ تعصب البطالمة لجنسهم وكراهيتهم للمصريين أن حظر بطليموس الثانى (فيلا دلف ،

على المصريين الوافدين على الإسكندرية أن يطيلوا إقامتهم فيها[1] ، ولما زال هذا الحظر ، تألفت من المصريين بالإسكندرية طبقة من الصناع والعمال وبعض الجنود ، وكانوا يعتبرون عنصرًا أجنبيًا عن المدينة ، ولم يندمجوا فى هيئة المواطنين[2] .

وأنشأ البطالمة جيشًا معظمه من المقدونيين واليونانيين . ولم يجندوا فيه المصريين خوفًا من أن تستثيرهم الروح الحربية ، وتحفزهم إلى المطالبة بحقوقهم واستقلالهم ، وكانت لهم فيه الأعمال الثانوية فقط ، كالنقل والتموين ، وكان البطالمة يستقدمون الجيوش المرتزقة من مقدونيا واليونان ، ويغرونهم بالاقطاعيات الزراعية يمنحونهم إياها ترغيبًا لهم فى البقاء فى مصر .

واستنزفوا ثروة البلاد فى سبيل إشباع أطماعهم وأطماع بنى جلدتهم .

وقصروا أعمال السخرة فى المنافع العامة على المصريين دون المقدونيين واليونانيين ، مع أن مزايا هذه السخرة قد استأثر بها هؤلاء الأجانب المستعمرون .

وزادت أعباء الضرائب على عاتق الأهلين بسبب إسراف البطالمة فى نفقاتهم وأهوائهم ، وكثرة الحملات البرية والبحرية التى شنوها على جيرانهم دون أن يعود منها أى فائدة لمصر ، واستمروا فى سياسة اضطهاد المصريين .

لجأ المصريون فى مقاومة هذا الاضطهاد منذ الساعة الأولى إلى المقاومة السلبية ، أى الإضراب عن العمل . واشترك فى هذا الإضراب الفلاح فى المزارع ، والعامل فى المصانع وفى المناجم والمحاجر ، وكانت الحكومة تقابل هذا الإضراب بالقمع والاضطهاد .

فلجئوا إلى سياسة جديدة فى المقاومة ، وهى هجر المزارع والمصانع ، والاختفاء فى الصحارى والمعابد .

وضعت أسس السياسة الاستعمارية فى عهد بطليموس الأول ، وسار على نهجه خلفاؤه ، وصارت أداة الحكم أجنبية ، وعومل المصريون بالزراية والاضطهاد .

ولم يندمج المصريون فى المقدونيين واليونانيين ، ولم يستطع البطالمة أن يدمجوهم فى جنسهم .

ولئن جنح بعض المصريين إلى مصانعة البطالمة لكى يأمنوا على أنفسهم وينالوا عطف الغاصبين ، فإن جمهرة الشعب قد بقيت بمنأى عن مصانعة الغرباء المستعمرين .

وسنّ البطالمة من النظم والقوانين ما جعل المصريين وخاصة الفلاحين مضطهدين مسلوبة حقوقهم ، مثقلين بالضرائب والالتزامات ، وظهر البطالمة على حقيقتهم ، وهى أنهم غزاة غاصبون ، ومستعمرون مستبدون .

يقول (بيرجوجيه) إن البطالمة احتكروا موارد البلاد الاقتصادية ، وانحصرت القوة

(١) إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عصر البطالمة جـ ٢ ص ٢٩٥ .
(٢) إبراهيم نصحى – المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٠٣ .

الاقتصادية فى يد الملك على حساب الكبراء والكهنة وعلى أساس استعباد الطبقة العامة من الأهلين[1] .

كان الملك البطلمى يعتبر نفسه مالكا لجميع الأراضى ، وكان النظام الاقتصادى المتبع هو الاستبداد الاقتصادى[2] .

وكان الاحتكار الملكى ، علاوة على الأراضى ، يشمل المناجم والمحاجر والملح والنطرون والجعة والشبّة والزيت ومصايد الأسماك ودبغ الجلود والورق والبخور ، والروائح والحمامات والمصارف (والبنوك) ومنسوجات التيل والصوف والقنب ، وبالنسبة للمصرى لم تكن له أية حرية اقتصادية .

وكان الملك البطلمى يعتبر مصر ضيعة له ، ووزير ماليته مدير الضيعة .

وحرص البطالمة على أن يصيغوا هذه الفكرة فى عبارات واضحة ، وأن يبثوا فيها القوة نتيجة اتفاق زعموا أنه عقد بين آلهة مصر ومؤسس أسرة البطالمة ، بأن نقشا هيروغليفيا على جدران معبد (ادفو) ، يروى كيف أن الأراضى المنزرعة فى كل أنحاء مصر من إلفنتين (أسوان) حتى البحر ، قد أهداها الإله حوروس إلى ابنه الملك حوروس الحى (بطليموس) ، ومعها وثائق الملكية وسجل وصفى للممتلكات وعقود الاستيلاء عليها ، وقد خطها جميعًا بيده الإله توت المسجل السماوى[3] .

واحتكر المقدونيون واليونانيون المناصب الممتازة فى الريف والحضر . ولا غرو فالأسرة المالكة الأجنبية فى بلاد يحكمها جهاز من الموظفين لا تشعر بالاستقرار والطمأنينة إلا إذا استندت إلى مجموعة من الموظفين الأجانب[4] .

يقول (هارولد بل Harold I. Bell) فى هذا الصدد : « إن المصريين الذين رحبوا بالأمس بمقدم الإسكندر واعتبروه مخلصًا لهم ، كان لهم بعض العذر فيما خامرهم من شعور ، بأنهم فى عهد البطالمة إنما كانوا يعاملون فى الواقع على أساس أنهم شعب ذليل مقهور ، وكان شعورهم بتلك المذلة والمنزلة الدنيا قد تأكد لديهم بما كانوا عليه من عدم المساواة من الناحيتين : الاجتماعية والاقتصادية ، وكان بعض الكهنة من ذوى المراتب السامية ، ونفر قليل من أفراد المصريين الذين تولوا وظائف هامة فى السلك الإدارى ، يؤلفون نوعًا من الارستقراطية الوطنية ، ولكن الغالبية العظمى من المصريين كانوا ينتمون إلى طبقة منزلتها فى المجتمع أدنى من منزلة المستوطنين من اليونانيين فى مصر ، فكان من المصريين من اتخذوا الحرف والصناعات مهنة لهم ، ومنهم من

(١) بيرجوجيه – مصر البطلمية ص ٦٨ .
(٢) بيرجوجيه – مصر البطلمية ص ٧٦ .
(٣) إبراهيم نصحى – مصر فى عصر البطالمة جـ ١ ص ٤٦٩ من الطبعة الأولى .
(٤) بيرجوجيه – مصر البطلمية ص ٨٥ .

استأجر الأراضى الملكية ، ولو أن بعضهم تسلم حصصاً من الأراضى أو استحوذ على قدر من الأرض الخاصة ، فإن حصصهم وأنصبتهم كانت فى العادة أقل من مثيلاتها لدى اليونانيين ، وفى الحق إنهم كانوا بوجه عام فئة المستأجرين والمستخدمين فهم الأداة المنفذة والطبقة الكادحة والعاملة باليد ، وتقابلها من الناحية الأخرى طبقة بيدها السلطة الإدارية ، ولها الهيمنة والنفوذ ، ولا ريب أن المصريين كانوا يشعرون بما هم عليه من منزلة دنيا ، وكثيرون منهم كانوا يقابلون ما يعدونه من قبيل احتكار اليونانيين لشأنهم بالعدوان والنفور » .

إلى أن قال : « وكان أمراً طبيعياً أن يقابلوا أفعال أولئك اليونانيين بشىء من الأنفة القومية والاحتقار لأساليب وأقدار أولئك المستوطنين المحدثين المتحذلقين ، ولدينا دليل قاطع مشتمل على بعض قطع من الأدب المتأجج بروح الوطنية والمنطوى على بعض النبوءات ، يشير إلى وجود حزب وطنى ناهض كانت تداعبه الأحلام ، ويتطلع إلى اليوم الذى ينتظر فيه طرد الملك الأجنبى البغيض من البلاد » .

إلى أن قال : « ومن بين الحروب الداخلية التى نشبت فى القرنين الثانى والأول قبل البلاد . واستنزفت قوى الملكية اندلعت بضع ثورات وحركات قومية كان الوازع لها حب الوطن ، ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثالث ، ترامت إلى سمعنا أنباء عن قيام اضرابات وطنية » .

وقال أيضاً : « وكان الملك يؤلف بين جميع هذه العناصر المتباينة رباطاً من التبعية المشتركة والخضوع لإرادته ، فهو وحده المصدر الذى يستمد منه القضاء والعدالة ويرجع إليه فى جميع مظاهر السلطة الإدارية ، وكانت مصر ضيعة الملك وكبار الموظفين الإداريين فيما بمثابته أتباعه ورجال دوّاره »(1) .

وفى هذا المعنى يقول بيير جوجيه : « سيرى القارئ أن خلفاء أول البطالمة ينفذون سياسة هيلينية واسعة النطاق تقضى بتنحية العنصر الوطنى عن المناصب الرفيعة ، وإقصائه إلى المكان الذليل ، بل وتغتصب أملاكه المتوارثة لصالح المهاجرين وذرياتهم ، وهذا النظام قد أدى إلى رد فعل عنيف وإلى انقلابات أضعفت أسرة البطالمة »(2) .

وقال جوجيه فى موضع آخر : « إن البطالمة قد أقطعوا الأراضى من شاءوا من رجالهم وجنودهم ، وفى اتباع هذه الوسيلة اضطهاد للمصريين الذى رأوا على طول البلاد أراضى خصبة تنتقل ملكيتها إلى الأجانب ، بل ويجبر المصريون على إخلاء جزء من مساكنهم ليحتلها أولئك الغرباء ، ولقد بدأت هذه السياسة من عهد بطليموس الأول الذى أعطى لجنوده أراضى واسعة »(3) .

(1) هارولد بل – الهيلينية فى مصر – تعريب الأستاذ زكى على ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ .
(2) بيير جوجيه – مصر البطلمية ص ٣٥ .
(3) بيير جوجيه – مصر البطلمية ص ٣٧ .

وحتى أعمال العمران التى قام بها البطالمة كشق الترع وإقامة الجسور واستصلاح الأراضى ، قد أكره فيها المصريون على العمل وقاموا بها على وجه السخرة ، ولم يستفد المصريون من استصلاح الأراضى الزراعية ، فقد أقطعها البطالمة لبنى جلدتهم »(1) .

وقال جوجيه فى موضع آخر : « إن مصر قد أصابها الفقر بسبب الأزمات الاقتصادية فى عهد البطالمة »(2) .

وقد ترتب على سياسة الاضطهاد الاقتصادى التى اتبعها البطالمة ، نقص سكان الريف ، ونقص مساحة الأراضى المنزرعة .

قال الدكتور إبراهيم نصحى فى هذا الصدد : « وقد نتج عن نقص سكان الريف وأد الأطفال الذين كانت الفاقة تدفع الأهالى إليه ، وعن نشاط الإسكندرية الصناعى والتجارى الذى كان يجلب العمال إلى العاصمة ، وعن الحروب والثورات الدموية التى كان يفنى فيها الكثيرون »(3) .

الثورات على البطالمة

لم تستنم الأمة المصرية لحكم البطالمة ، ولافنيت شخصيتها فى الاستعمار المقدونى الإغريقى ، واحتفظت بطابعها وتقاليدها ودياناتها ولغتها القديمة .

وكان الحكم البطلمى يستند إلى القوة ، فإن الحامية البرية والبحرية التى تركها الإسكندر فى مصر قبل أن يغادرها ، قد اتخذ منها بطليموس الأول نواة قوة عسكرية أكبر منها وأعظم ، استخدم فيها المرتزقة والمتطوعين من أبناء مقدونيا وبلاد الإغريق وآسيا .

وكان المصريون محرومين من جيش وطنى من عهد الاحتلال الفارسى ، فلما زال الاحتلال حلّ محله الاحتلال المقدونى الإغريقى ، واستمر المصريون محرومين من جيشهم الوطنى .

وحرص البطالمة فى أوائل عهدهم على حرمان المصريين شرف الاشتراك فى حروبهم ، وقصروا قواتهم المقاتلة على العناصر المقدونية والإغريقية .

وحتى الذين استخدموهم من المصريين كانوا يعهدون إليهم بالشئون الثانوية فى الجيش ، كالنقل والتموين وما إلى ذلك .

فلا غرابة فى أن يكره المصريون حكم البطالمة الذى تكشف عن استعمار ممقوت .

(1) إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عهد البطالمة .
(2) بيير جوجيه – مصر البطلمية ص ١٦٧ .
(3) إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عصر البطالمة جـ ٢ ص ٤٧٧ من الطبعة الأولى .

على أن المصريين مع صبرهم ومصابرتهم ، لم يدعوا فرصة تمر إلا واغتنموها للثورة على المستعمر البغيض .

وبرهنت الحوادث على قوة الحيوية الكامنة فى هذا الشعب ، وصموده أمام العقبات ، وثورته على الاستعمار المرة تلو المرة ، حتى يتحرر منه .

يقول الدكتور إبراهيم نصحى فى هذا الصدد : « لقد ضاق المصريون ذرعًا بالنظام الاقتصادى الجديد منذ عهد ، فيلادلفوس ، فإن وثائق زينون تحدثنا عن وقوع اضطرابات بين المزارعين ، كانت تنتهى بإضرابهم عن العمل وفرارهم إلى المعابد للاحتماء بالآلهة ، ولم تقلّ عن ذلك شأنًا الاضطرابات التى كانت تنشأ بين المشتغلين بالصناعة والتجارة فى كنف النظام الجديد ، ولم يفض ذلك إلى الاضراب عن العمل فحسب ، بل كذلك إلى تهريب السلع وبيعها دون تصريح .

« وقد أدت أيضًا مختلف أنواع الخدمة الجبرية إلى إضرابات واضطرابات هائلة ، ولشدّ ما كانت تقابلها بعقوبات صارمة ، وقد وجد العيون مرتعا خصبًا فى هذه الحالة ، التى لا يمكن تفسيرها بالنقائص الطبيعية في كل نظام جديد لم يألفه الذين كانوا يطبق عليهم ، إن السبب أبعد مدى من ذلك ، لأن النظام لم يكن صارمًا فحسب ، بل كان تطبيقه فى قبضة أجانب اعتبروا أنفسهم أرفع قدرًا وأعظم شأنًا من المصريين ، ولم يتكلموا اللغة المصرية ، بل أرغموا على الأقل بعض المصريين على تعلم لغتهم الأجنبية ، وكانوا لا يعبدون آلهة بل آلهتهم الأجنبية التى أحضروها معهم ، ولا يحيون الحياة التى كان المصريون يألفونها بل حياتهم الخاصة ، وكانوا يرغمون أهالى البلاد على بذل أقصى الجهد فى استغلال المرافق الاقتصادية ، ولم يتحمل المصريون كل ذلك فى سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتنقون نفس المعتقدات الدينية ويتكلمون نفس اللغة ويحيون نفس الحياة ، وإنما فى سبيل خدمة قاهر أجنبى ومن يحيط به من الأجانب الذين منحهم أفضل المناصب وخير الفرص لإثراء أنفسهم ، فظفر الأجانب بالثروة حين حلت الفاقة بالمصريين ، وإذا احتاج مصرى إلى اقتراض نقود أو بذور فإنه كان يقترضها عادة من أحد هؤلاء الأجانب ، وإذا أراد استئجار قطعة أرض فإنه كان يستأجرها عادة منهم ، فلا عجب إذن أدرك المصريون أنهم قد أصبحوا غرباء في بلادهم ، أداة يجب أن تكون طيّعة فى خدمة الأجانب ، ووسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأى سبب ، فقد امتلأت النفوس غضبًا وحقدًا ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين لم ينقصهم القادة ، فإن رجال الدين ، وقد كبّلهم البطالمة بالقيود التى كسرت شوكتهم ، كانوا يحنون إلى استعادة ما كانوا ينعمون به فى الماضى من الكرامة والعزة والنفوذ والثراء ، ولم يؤدّ مضىّ الزمن إلا إلى ازدياد الهوة من الفريقين ، وساعد على ذلك أيضًا صرامة العقاب ، الذى كان يكال للناقمين على سوء الحال ، ولذلك فإن الاضطرابات التى بدأنا نشهدها فى عهد فلادلفوس لم تنقطع فى عهد خلفائه بل ازدادت عنفًا وشدة .

« وإذا كانت أشد ثورات المصريين لم تقع إلا بعد انتصارهم فى موقعة (رفح) ، فإن ذلك يرجع

دون شك إلى أنه كان ينقص المصريين الحافز الذى يعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، ويذكى روح الوطنية الكامن فى صدورهم ، فيخلصوا بلادهم من نير الأجنبى كما تخلص أجدادهم من الهكسوس »[1] .

أول ثورة على البطالمة
فى عهد بطليموس الثالث
ايفرجيت Evergete — الخيّر

إن أول ثورة قام بها المصريون ضد البطالمة كانت فى عهد بطليموس الثالث (إيفرجيت) .

وترجع أسبابها إلى ازدياد روح التذمر والسخط على الحكم البطلمى ، ذلك السخط الذى بدأ فى عهد بطليموس الأول ، ولم يصل إلى حد الثورة ، ولكن كانت له مظاهر خطيرة ، كالتوقف عن العمل بين الزراع والصناع والعمال المصريين بسبب كثرة الضرائب التى كانت الحكومة تفرضها عليهم .

وقد اشتدّ هذا السخط فى عهد بطليموس الثالث ، لازدياد ما فرضه على الشعب من الضرائب والإتاوات بسبب حربه التى شنها على (سلوقس)[2] Seleucus ملك سورية ، فازداد عسف الحكومة وضغطها على المواطنين ، وتفاقمت وسائل القسوة فى تحصيل الضرائب .

وفرض إيجارات مجحفة على الفلاحين ، الذين كانوا يزرعون أرض الملك ، حتى اضطر هؤلاء إلى الهجرة من أماكن إقامتهم وعملهم ، مما أدى إلى إقفار القرى من ساكنيها[3] .

وزاد فى تيار السخط انخفاض منسوب فيضان النيل ، وحلول القحط فى البلاد ، واشتداد الضيق بالأهلين ، فحنقوا على الملك الذى كان يشتط فى القسوة عليهم ويجمع منهم الأموال لينفقها فى حروب لا طائل تحتها ، كما حنقوا على رجال الحكومة لما عانوه من مساوئهم .

نشبت الثورة بين الأهلين حوالى سنة ٢٤٦ ق .م . فى الوقت الذى كان الملك بطليموس الثالث يحارب فى سورية .

فلما بلغته أنباء الثورة أسرع فى العودة لإخمادها بقوة الجيش .

ولم تتعد هذه الثورة أنحاء الدلتا .

وقد أفلح بطليموس الثالث فى إخمادها بالقوة المسلحة .

غير أنها تركت فى نفوس المصريين جراحًا أليمة حفزتهم إلى التربص بالبطالة الظالمين ، ومعاودة الكرة للثورة عليهم .

---

(١) إبراهيم نصحى — تاريخ مصر فى عهد البطالمة — جـ ٢ ص ٧٦٨ طبعة أولى .

(٢) وإليه تنسب كلمة السلوقيين والدولة السلوقية ، كما نسبت كلمة مصر البطلمية إلى البطالمة .

(٣) الدكتور محمد عواد حسين — حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية — طبع سنة ١٩٤٩ ص ١٧ .

معركة رفح سنة ٢١٧ ق .م
والثورة الثانية
فى عهد بطليموس الرابع
فيلوباتور Philopator(أى المحب لأبيه)

كانت سياسة البطالمة الثلاثة الأول إقصاء العنصر المصرى عن الجيش ، وجعله مقصورًا على المقدونيين واليونانيين .

ولما توفى بطليموس الثالث خلفه سنة ٢٢١ ق .م . ابنه بطليموس الرابع (فيلو باتور) ذلك الشاب العابث الذى سبق الحديث عنه واستفاضت أنباء سيرته (ص ٢٠٤) .

فانتهز أنطيو خس Antinochus ملك سورية هذه الفرصة وأعدّ جيشًا لمهاجمة مصر .
وأدرك بطليموس الرابع أن قواته المقدونية واليونانية ليست كفيلة بصد هذا الهجوم .

فاضطر إلى إدخال المصريين فى قواته المسلحة كجنود محاربين ليزداد بهم منعة ، فجند منهم نحو عشرين ألف مقاتل ، سلحهم بأسلحة مقدونية ودربهم وفقًا لفنون الحرب المعروفة فى ذلك العصر .

وفى عام ٢١٧ ق .م بلغ الملك أنطيو خس بجيشه مشارف (رفح) ، والتقى بجيش بطليموس الرابع .

وبعد أنْ انتصر أنطيوخس على الجناح الأيسر الذى يقوده الملك الشاب وفشلت الجنود المقدونية فى صد الجيش السلوقى ، انبرى لهم المصريون الذين امتازوا بشجاعتهم وحسن بلائهم فى القتال ، فهزموا السلوقيين .

وانتهت معركة رفح بنصر مؤزر ناله الجيش البطلمى ، بفضل الفرقة المصرية .

فالنصر الذى أحرزه المصريون فى معركة رفح قد ملأ نفوسهم حماسة وثقة .

وبدأ البطالمة لأول مرة يعاملونهم لوقت محدود معاملة الأنداد بعد أن كانوا ينظرون إليهم كأنهم مقهورون .

يقول هارولد بل فى هذا الصدد : « ومن ذلك الحين أخذت الثورات تنشب من وقت لآخر ، وتقع غالبًا فى الإقليم الطيبى ، ولكن ليس هذا على سبيل الحصر بحال ما ، فهذا الإقليم كان دائمًا الموطن الذى نبتت فيه القومية المصرية »[1] .

ويقول الدكتور إبراهيم نصحى : « إن الثورة التى وقعت فى عهد بطليموس الرابع ، لم تختلف كثيرًا فى طبيعتها عن الثورة التى وقعت فى عهد بطليموس الثالث ، والثورات التى وقعت فى

(١) هارولد ا . بل – الهيلينية فى مصر – تعريب الأستاذ زكى على ص ٨٣ .

عهد البطالمة المتأخرين ، لكن ثورة عهد بطليموس الرابع كانت أخطر من سابقتها لأن الجنود المصريين كانوا عندئذ أفضل تدريبًا وتسليحًا ، ورأوا فى ميدان القتال أثناء موقعة (رفح) أنهم لا يقلون كفاءة ومقدرة عن الإغريق والمقدونيين ، وعندما عاد الجنود المصريون من انتصارهم فى موقعة (رفح) إلى قراهم ، وأخذوا يباشرون حياتهم العادية . ازداد إحساسهم بالألم من مركزهم الوضيع بالنسبة للأجانب ، وحنقوا أكثر مما كانوا يحنقون فى الماضى على الأعباء المتزايدة التى كان النظام الاقتصادى يفرضها عليهم ، فلا عجب إذن أن انتهز رجال الدين المخلصون كل هذه الظروف واستنصروا وطنية المصريين ومشاعرهم الدينية ، فهبوا ثائرين على طغاتهم ، وكل من لاذ بهم ، أو انتصر لهم ، أو تخلف عن ركب الوطنية ، ولا يبعد أن أحد العوامل الهامة التى ألهبت مشاعر المصريين وخاصة فى مصر العليا ، ودفعتهم إلى الثورة ضد البطالمة ، كان بقاء التقاليد الفرعونية فى وادى النيل جنوبى مصر لأنه إذا كان الغزاة المقدونيون والإغريق قد أخضعوا بمصر نفسها فإنهم لم يخضعوا كل دولة الفراعنة القدماء ، أو بعبارة أخرى كل منطقة الحضارة المصرية ، ولا شك فى أنه عندما كان المصريون الوطنيون يرون تقاليدهم القديمة تسود ذلك الإقليم الواقع على الحدود الجنوبية ، كانت صدورهم تتأجج وطنية ، وكانت تبدو لهم بارقة أمل فى إحياء ماضيهم المجيد واسترجاع حريتهم العزيزة ، فيدفعهم كل ذلك إلى البذل والفداء »[1] .

كانت واقعة رفح نقطة تحول كبير فى موقف المصريين تجاه غاصبيهم وبداية الثورات الوطنية التى زلزلت عرش البطالمة ، فثار المصريون فى الوجه البحرى عام ٢١٦ ق .م . يريدون التحرر من البطالمة ، وامتدت الثورة إلى مصر الوسطى ، ثم إلى مصر العليا .

وقد أسفرت هذه الثورة عن استقلال إقليم طيبة عن حكم البطالمة نحو عشرين عامًا (من سنة ٢٠٦ إلى سنة ١٨٦ ق .م) .

وقد أضعفت هذه الجهود سلطان البطالمة عامة ، وانتهى بهم الضعف إلى الارتماء فى أحضان (روما) ، يلتمسون منها المعونة والحماية .

غير أن الحكومة عادت وبسطت سلطانها عليها فى عهد بطليموس الخامس سنة ١٨٦ ق .م . ، ونجحت فى القضاء على هذه الثورة ، واستلزم إخمادها جهودًا عسكرية كبيرة .

كانت هذه الثورة أخطر ثورة قامت ضد البطالمة ، وقد أخمدتها الحكومة وأعدمت زعماءها .

وقد علل الدكتور إبراهيم نصحى اخفاق الثورات عامة على البطالمة بأسباب عدة ، منها أن الثوار لم يكونوا فى قوة البطالمة الحربية التى امتازت بتفوقها فى الأسلحة والعتاد والأموال ، ومنها أن المصريين لم يكونوا على اتحاد تام فى الهدف والغاية ، بل كانوا يصابون أحيانًا بداء الانقسام ، وأن البطالمة استطاعوا أن يجتذبوا إلى صفهم بعض العناصر ليضربوا بها الثورة[2] .

(١) إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عصر البطالمة ٧٧٤/٢ من الطبعة الأولى .
(٢) إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عصر البطالمة – جـ ٢ ص ٧٩٧ من الطبعة الأولى .

ومهما قيل من المآخذ على هذه الثورات ، فحسب المصريين أنهم قاموا بالثورة المرة تلو المرة ، ولم يسكتوا على الحكم الأجنبى ولا استناموا له وأنهم بثوراتهم المتكررة ضد البطالمة قد زلزلوا دولتهم ، حتى انتهت إلى الانحلال والزوال .

الثورة الثالثة
فى عهد بطليموس الخامس
إبيفان Epiphane (الظاهر)

اعتلى بطليموس الخامس عرش مصر سنة ٢٠٣ ق .م . وهو حدث صغير السن ، فتولى الوصاية عليه وصىّ فاسد وهو (أجاتوكليس) Agathoclesأخو الغانية اللعوب (أجاتوكليا) عشيقة بطليموس الرابع التى تقدم الحديث عنها (ص ٢٠٤) ، وقد امتلأ البلاط الملكى بالإسكندرية بالمنكرات والمؤامرات .

واشتد السخط على سيرة الوصى ، واندلعت الثورة على القصر فى الإسكندرية .

ونتج عنها قتل الوصى أجاتوكليس وأخته أجاتوكليا وأمهما ، وعين وصى آخر ، فلم تنقطع الثورة .

وعمّت الثورة الوجه البحرى والوجه القبلى : وكانت أبيدوس (العرابة المدفونة) معقل الثورة فى الصعيد .

فجردت عليها الحكومة البطلمية جيشًا لحصارها ، ولكن أهلها استبسلوا فى الدفاع عنها ، فردوا هذا الجيش عنها .

واستمرت الثورة فى الوجه القبلى حتى عام ١٨٤ - ١٨٣ ق .م . وهو العام الذى قضى فيه على الثورة فى الدلتا عندما استولت قوات بطليموس الخامس على سايس[1] .

وبلغ من وحشية هذا الملك أنه عندما سلم زعماء الثورة بعد أن أمّنهم على حياتهم أعدمهم بطريقة وحشية[2] .

يقول بيير جوجيه فى هذا الصدد : « جاء إشراك المصريين فى القتال ضد أنطيوخوس نتيجة اضطرار بطليموس الرابع إلى الاستعانة بهم ، ولكن هذه الاستعانة جاءت وبالاً عليه ، لأن الوطنيين وقد استثارهم انتصار (رفح) ، لم يعد فى الإمكان أن يتحملوا الخضوع للبطالمة ، وأخذوا يعملون على أن يكون لهم رئيس منهم .

(١) صا الحجر ومكانها الآن بالقرب من كفر الزيات الحالية .

(٢) إبراهيم نصحى - تاريخ مصر فى عصر البطالمة المرجع السابق جـ ١٧٥/١ (من الطبعة الثانية) .

« والثورات التى ملأت عهد بطليموس الرابع (فيلوباتور) ، وبطليموس الخامس (إبيفا) قد أخمدها بطليموس التاسع تحت أسوار مدينة طيبة[1] .

الثورة الرابعة
فى عهد بطليموس السادس
فيلومتور Philometor (المحب لأمه)
وحماية روما للبطالمة

بعد وفاة بطليموس الخامس سنة ١٨٠ ق .م . اعتلى العرش ابنه بطليموس السادس ، وكان هذا أيضا صغير السن لم يتجاوز السابعة من عمره ، ووُضعت الوصاية عليه .

واشتبكت مصر والسلوقيين فى حرب جديدة .

وانتصر الملك السلوقى (انطيوخس الرابع) ، ملك سورية على الملك البطلمى فى بيلوز (الفرما) ، وزحف حتى وصل إلى منف ، واحتال على بطليموس السادس حتى قبض عليه ، فنادى الإسكندريون بأخيه الصغير ملكًا ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم بطليموس الثامن ، وبعد ذلك استأنف انطيوخس الرابع زحفه حتى ضرب الحصار على الإسكندرية ، وقطع اتصالاتها برا بمصر .

فاستصرخ الملك البطلمى بروما لحمايته ، لكن روما لم تستطع التدخل وقتئذ لأنها كانت على وشك دخول الحرب المقدونية الثالثة ، ولم ينقذ مصر فى ذلك الوقت إلا وقوع اضطرابات فى الدولة السلوقية اضطرت انطيوخوس إلى مغادرة مصر ، تاركًا وراءه فيها ملكين : بطليموس الصغير فى الإسكندرية ، وبطليموس السادس فى منف ، معللاً الأمل فى أن الخلاف بين الأخوين سيمهد له فى المستقبل سبيل الاستيلاء على مصر ، ولكن كليوبترة الثانية أخت الملكين استطاعت أن توفق بينهما ، وحكم ثلاثتهم سويا ! وبعد عامين عاود أنطيوخوس غزو مصر ، وعندئذ تدخلت الجمهورية الرومانية ، وقد برزت قوتها فى الميدان ، وأخذت تعمل لحفظ التوازن بين دول الشرق ، ورأت أن أنطيوخوس وقد استمر فى زحفه حتى ضرب الحصار فى الإسكندرية لم يعد من مصلحتها تركه وشأنه ، وكانت روما قد خرجت منتصرة من حربها مع مقدونيا سنة ١٦٨ ق .م . فرأت أن تملى إرادتها على أنطيوخس بطريقة بالغة منتهى القسوة والإذلال .

إذ جاء السفير الرومانى وسلمه رسالة حوت قرار مجلس الشيوخ الرومانى فى هذا الصدد ، فاطلع انطيوخوس على الرسالة ، وأعلن أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه .

(١) بييرجوجيه - المرجع السابق ص ١١٧ - ١١٩ .

فلم يكن من السفير الرومانى إلا أن خط بعصاه دائرة على الرمال حول أنطيوخوس ، وأعلن أن الأمر يقتضى أن يبدى الملك الجواب قبل مبارحته تلك الدائرة .

فأذعن أنطيوخوس وأنفه راغم ، وكظم غيظه ، واضطر للنزول على إرادة روما ، فقررت إظهارًا لقوتها أن تطلب منه الوقوف فى زحفه حتى لا يقوى بفوزه على البطالمة ، وانسحب من مصر .

ومن يومئذ صارت دولة البطالمة تحت الحماية الفعلية للجمهورية الرومانية ، واستغلت روما النزاع الذى دبّ بين أفراد أسرة البطالمة لدعم نفوذها فى مصر .

وكانت أولى حلقات هذه المرحلة النزاع بين بطليموس السادس وأخيه الصغير وشريكه فى الملك .

وقد ألهبت هذه الأحداث المشاعر الوطنية ضد القصر الملكى ، ووجدت هذه المشاعر صداها فى موظف كبير فى القصر يدعى ديونيسيوس بتروسرابيس ، وكان مصريا من أفراد الحاشية الملكية ، فتزعم ثورة جديدة على البطالمة سنة ١٦٥ ق .م .

وسارع ديونيسيوس هذا إلى الاحتشاد فى (الحدرة) ، وقاتلت جموع الثوار قوات الملك بطليموس السادس ، ولكنها ظهرت عليهم وظفرت بهم .

وانتقلت الثورة إلى الوجه القبلى ، فانتصرت عليهم قوات الملك فى أخميم .

وعندما اشتد النزاع بين الأخوين ، تدخلت روما ، لا لتصلح ذات البين بينهما ، ولا لدعم عرش البطالمة ، بل لتزيده ضعفًا على ضعف بتقسيم الدولة بين الأخوين ، فباركت روما عقد اتفاق بينهما سنة ١٦٣ ق .م . تقرر بمقتضاه أن تكون مصر وقبرص من نصيب الأخ الأكبر ، وبرقة من نصيب الأخ الأصغر ! .

وهكذا ظفرت روما بتفكيك عرى الدولة البطلمية ، وصارت الحكم فى المنازعات الداخلية فيها .

الثورة الخامسة
فى عهد بطليموس الثامن

بعد وفاة بطليموس السادس ومقتل طفله بطليموس السابع آل العرش إلى أخيه بطليموس الثامن ، وكانت سيرته من الفساد والقسوة قد أججت نار العداوة ضده ، فاشتعلت الثورة فى طول البلاد وعرضها ، وكانت مزيجًا من النزاع العائلى والثورة الوطنية ، وبعد جهد أخمدها الملك بالقوة والوحشية ، ثم أصدر قرارات عفو سنة ١١٧ ق .م . تدعو إلى تهدئة الحال .

الثورة السادسة
فى عهد بطليموس التاسع والعاشر

ازدادت الأحوال اضطرابًا بعد وفاة بطليموس الثامن ، إذ تجدد النزاع العائلى بين خلفائه ، وكان قد أوصى بأن تخلفه زوجته كليوبترة الثالثة[1] . على أن تشرك معها من تختار من ولديها بطليموس التاسع (الأكبر) والعاشر (إسكندر) .

وكانت كليوبترة تؤثر ابنها بطليموس الإسكندر ، وشاعت الدسائس والمؤامرات فى القصر ، وأكرهها الشعب على اختيار الابن الأكبر شريكا لها ، فقبلت ذلك مرغمة .

ولم يمض عامان حتى تجددت الثورة ، وخاصة فى مصر الوسطى ، وفى الصعيد .

وجرد الملك بطليموس التاسع على الثوار جيشًا حاصرهم فى طيبة (معقل الثورة) ، وظفر بهم وخرب المدينة سنة ٩٥ ق .م . تخريبًا وحشيًا .

وفى هذا الصدد يقول هارولد بل : « كانت مصر طوال فترات طويلة من القرنين الثانى والأول قبل الميلاد تتردى فى هاوية من الحرب الأهلية وتئن من غصصها وويلاتها ، ويبدو أن الإقليم الطيبى كان من وقت لآخر مستقلا بالفعل عن مقر الحكومة بالإسكندرية ، وفى سنة ٨٥ ق .م . استماتت طيبة فى الثورة والعصيان ، مما أدى بها إلى نهاية أليمة بتخريبها والقضاء عليها فعلا ، وكانت عاصمة البلاد العتيدة فى عصور مجد مصر وعظمتها ، تلك هى حال « طيبة ، ذات الأبواب المائة » كما سماها هوميروس ، لأن ما بقى منها منذ ذلك الوقت لا يعدو بضع قرى متناثرة وسط الآثار المخلفة عن سالف عصرها الزاهر »[2] .

بطليموس الثانى عشر
(الزمار)

ولم تنقطع الثورات ضد الحكم البطلمى ، وزاد من أوارها تدخل الدولة الرومانية لحماية من تراه خاضعًا لنفوذها من الملوك البطالمة .

إلى أن اعتلى العرش بطليموس الثانى عشر (أوليتس = الزمّار) ، وقد أطلق عليه الشعب هذا اللقب تعبيرًا عن أبرز صفاته ، إذ كان يجيد العزف على الموسيقى .

وقد جاهر بولائه لروما ، والتمس منها العضد والعون لتثبيت مركزه المتداعى .

وذهب إلى روما فعلاً سنة ٥٨ ق .م . وأطال مكثه هناك عدة سنوات ، وعاد إلى مصر سنة

(١) هى غير كليوبترة السابعة التى اشتهر اسمها فى التاريخ .

(٢) هارولد بل : مصر الهلينية . المرجع السابق . ترجمة الأستاذ زكى على ص ٨٧ .

٥٥ ق . م . بعد أن اشترى ذمم رجال السياسة فى روما ليؤيدوه فى مركزه ، واشتط فى معاملة الأهلين ، واستنزف أموالهم ليسدد ديونه من المرابين الرومان .

وكتب وصيته بأن يخلفه على العرش أكبر أولاده ، وهما كليوبترة الشهيرة (السابعة) مشتركة مع أخيها بطليموس الثالث عشر .

ولما كان هذا الزمار غير مطمئن إلى الشعب المصرى فى تنفيذ وصيته لكراهيته له ، فقد أودع الوصية لدى الجمهورية الرومانية ، وعهد إلى الشعب الرومانى الإشراف على تنفيذها ! .

وكان ذلك اعترافًا منه بحماية روما لمصر .

وتوفى بطليموس الزمار هذا سنة ٥١ ق .م . محتقرًا من الشعب ومن الرومان معًا .

كليوبترة Cleopatre

ترك بطليموس الزمار بنتين : هما كليوبترة Cleopatre وأرسينوى Arsinoé وولدين وهما بطليموس (الثالث عشر) وبطليموس (الرابع عشر) .

وكانت وصيته كما أسلفنا أن تخلفه على العرش كليوبترة وأكبر ولديه (بطليموس الثالث عشر) ، على أن يتزوج أخته الكبرى (كليوبترة) ، ويشتركا معًا فى الحكم .

كانت كليوبترة تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ، وأرسينوى فى السادسة عشرة ، وبطليموس الثالث عشر فى الثالثة عشرة ، والرابع عشر صغير السن[1] .

وقد تطلعت كليوبترة منذ الساعة الأولى إلى الانفراد بالحكم ، ومن هنا نشأ النزاع بينها وبين أخيها ، وكان رجال القصر من ناحيتهم يريدون الاستئثار بالسلطة ، فأوغروا صدر أخيها وضموا إليه جمهرة الإسكندريين .

وفى بداية الأمر لقى بطليموس الثالث عشر عطف الأهلين الذين نقموا من كليوبترة سعيها لاغتصاب الملك من أخيها ، فثاروا عليها ، وخرجت من الإسكندرية ، لا لتستسلم للأمر الواقع ، بل لتدبر الدسائس لتنتزع الملك لنفسها .

وجندت من استطاعت تجنيده من البدو المتاخمين للحدود الشرقية ، وكانت تعرف لغتهم ، وعتزمت دخول مصر ثانية على رأس جيشها ! .

وكان أنصار الملك الصغير قد جمعوا أيضًا ليصدوا كليوبترة فى زحفها .

وفى صيف سنة ٤٨ ق . م . كان الجيشان وجهًا لوجه على مقربة من بيلوز (الفرما) .

---

(١) بيرجوجيه – مصر البطلمية ص ٥٣ .

مصرع بومبى Pompei

وفى غضون ذلك جاء مصر القائد الرومانى الشهير بومبى الذى كان وقتا ما قنصلا عاما فى روما ، وكان خصما ليوليوس قيصر ومزاحمًا له على السلطة .

وكان مجيئه لمصر لاجئًا بعد هزيمته أمام يوليوس قيصر ، وظن أنه سيجد فيها العون ، إذ كان صديقًا لبطليموس الزمار ، وعاونه فى روما على العودة للحكم .

ولكن بومبى لم يكد يدنو بقاربه من الشاطئ بالقرب من بيلوز ، حتى اغتاله صف ضابط رومانى فى خدمة الجيش البطلمى ، فمات قتيلا سنة ٤٨ ق .م .

يوليوس قيصر وكليوبترة

وجاء يوليوس قيصر إلى الإسكندرية سنة ٤٨ ق .م . يتعقب خصمه بومبى ، ومعه قوة من أربعة آلاف مقاتل ، وعلم بنبأ مصرع بومبى ، فأظهر الحزن على خاتمته .

وكان أنصار بطليموس الثالث عشر (ابن الزمار) يظنون أن قيصر سيعود من حيث أتى ، بعد مصرع خصمه ، ولكنه لم يبرح الإسكندرية ، بل بقى فيها كأنه الحاكم بأمره .

واتخذ قصر البطالمة مسكنا له ، وكان ذلك بمثابة اعتبار مصر ولاية رومانية .

وأمر كليوبترة وأخاها بتسريح جيشهما والحضور إلى الإسكندرية للفصل فى النزاع القائم بينهما ، وفقًا لوصية أبيهما الزمار .

وكانت كليوبترة وقتئذ فى أقصى حدود مصر ، فخشيت إن هى وصلت إلى الإسكندرية أن يقتلها رجال البلاط من أنصار أخيها .

فجاءت خفية بطريق البحر ، يصحبها كاتم أسرارها ، ووصلت فى زورق إلى القصر الملكى ، وأدخلها كاتم أسرارها إلى القصر ملفوفة فى سجادة ! .

فلما رآها يوليوس قيصر فى هذا الوضع ، بهت لهذه المفاجأة .

ومن هذه اللحظة وقع الدكتاتور الرومانى العظيم فى غرامها .

وقبلت أن يحكم يوليوس قيصر بينها وبين أخيها ، واستعملت مع قيصر سلاح الفتنة والإغراء لتجذبه إلى صفها .

فاستدعى أخاها للتوفيق بينه وبين أخته ، ولكن الملك الصبى لم يكد يرى أخته حتى استولت عليه عاصفة من الهياج والغضب ، وراح يجرى فى الشوارع ليستصرخ الجمهور .

وقد أعاده جنود قيصر إلى القصر .

وكادت تحدث فتنة بين الجماهير ، لولا أن هدأ قيصر روعها ، وتلا على الجموع وصية

بطليموس الزمار التى تقضى باشتراك الأخوين معًا فى الحكم وبأن ترعى روما تنفيذ هذه الوصية ، وأوضح بذلك حقه فى التدخل فى هذا النزاع .

وهدأت خواطر الناس ظاهرًا ، وتم الوفاق بين كليوبترة وأخيها وفقًا لرغبة قيصر ، وتنفيذًا لوصية أبيهما الزمار .

الحرب فى الإسكندرية
(سنة ٤٨ - ٤٧ ق . م)

على أن (أخيلاس) قائد الجيش البطلمى ، وكان من أنصار الأخ المزاحم لكليوبترة ، أراد لكى يضعضع قوة قيصر ، ويوقع الذعر فى صفوف جنده أن يحاول إخراجه من مصر ، فجاء من بيلوز على رأس جيشه ، وفاجأ يوليوس قيصر فى الإسكندرية ، ولم يكن قيصر مستعدًا لهذه المفاجأة ، إذ لم تكن القوة التى لديه تكفى لصد هذا الهجوم .

على أنه وهو القائد المحنك لم يعدم الوسيلة للدفاع .

فأضرم النار فى أسطول البطالمة الراسى فى الميناء الشرقى ، وتعالى لهيب هذا الحريق وامتد إلى الحىّ المجاور للميناء ، وفيه المكتبة الشهيرة المعروفة بمكتبة الإسكندرية فدمّرها .

قال جوجيه فى هذا الصدد : « وكذلك احترقت المكتبة الكبرى وما تشمله من كتب قيل إنها بلغت ٤٠٠,٠٠٠ كتاب »[١] .

ولما وصل إلى يوليوس قيصر المدد تغلب على الجيش البطلمى وهزمه فى حرب دارت رحاها برًا وبحرًا فى الإسكندرية ، وغرق كثير من أفراد الجيش البطلمى أثناء تقهقرهم ، وكان بطليموس الثالث عشر أحد هؤلاء الغرقى (سنة ٤٧ ق . م .) .

وانفردت كليوبترة بالحكم ، مستندة إلى سلطة يوليوس قيصر ، على أنها تزوجت بأخيها الأصغر (بطليموس الرابع عشر) وكان صبيًّا دون الثامنة عشرة من عمره ، وقيل إن يوليوس قيصر رغب إليها هذا الزواج ، لكى يحترم (ظاهرًا) وصية أبيها الزمار ، إذ أوصى بأن تشترك مع أخ لها فى الحكم وأن تتزوجه .

على أن يوليوس قيصر قد أطال مكثه فى الإسكندرية بدون مقتضٍ . ويبن أنه شغف حبًّا بكليوبترة ، وأراد قضاء أطول مدة ممكنة إلى جوارها . وبقى إلى جانبها قرابة ثلاثة أشهر أخرى قام معها فى خلالها برحلة نيلية إلى أقاصى الصعيد (سنة ٤٧ ق . م .) ورزقت منه بمولود اسمته (قيصرون) أى قيصر الصغير ، تيمنًا باسم أبيه الطبيعى .

(١) بيير جوجيه Pierre Jouguet مصر البطلمية . ص ٢١٢ .

وقد تبعت كليوبترة يوليوس قيصر إلى روما بصحبتها ابنها الرضيع قيصرون وزوجها الصغير بطليموس الرابع عشر ، وأعد لها يوليوس قيصر قصرًا فى روما عاشت فيه زهاء سنتين ، وشهدت موكب النصر الذى أقيم فى روما ليوليوس قيصر ، ومشت فيه أختها الصغرى (أرسينوى) مكبّلة بالسلاسل والأغلال ضمن الأشخاص الكبار الذين حاربوا قيصر وأسرهم وساروا فى ركابه .

وكان لكليوبترة ولا ريب دخل فى مصير أختها ، إذ كانت تغار منها وتكرهها وتعمل على إزاحتها من طريقها .

ولم تقنع كليوبترة بسجن أختها الصغرى أرسينوى ، بل حرضت أنطونيوس فيما بعد على قتلها رغم أنها كانت لاجئة إلى معبد أفسيوس ، فقتلت .

على أن استدعاء قيصر لكليوبترة واستضافته إياها فى قصر له ، جعله موضع التندر لدى الرومان والزراية بهذا المسلك غير القويم ، من الدكتاتور العظيم .

مصرع يوليوس قيصر

وظلت كليوبترة تعيش فى روما عيشة البذخ والترف ، إلى أن لقى يوليوس قيصر مصرعه سنة ٤٤ ق . م .

ويرجع مقتله إلى كراهية فريق من الرومان له ، إذ شاع بينهم أنه يريد أن يحيل الجمهورية إلى ملكية مطلقة ، يكون هو على رأسها ، فانقض عليه بعض زملائه وفى مقدمتهم (بروتس) ، وقتلوه بخناجرهم فى مجلس الشيوخ .

عودة كليوبترة إلى مصر

وبعد أن لقى يوليوس قيصر مصرعه ، تحرج مركز كليوبترة ، فعادت أدراجها إلى مصر ومعها ابنها (قيصرون) وزوجها بطليموس الرابع عشر .

وقد لقى هذا حتفه عقب عودته من روما ، وقيل إن كليوبترة دست له السم فمات فى سن مبكرة ، وانفردت هى بالحكم .

أثار مصرع يوليوس قيصر النزاع الداخلى فى روما ، وقد انتهى هذا النزاع بانتصار أنصار قيصر ، وتقاسم السلطة اثنان من القواد وهما أوكتافيوس Octavius وأنطونيوس Antonius فاختص أولهما بالولايات الغربية للدولة الرومانية وآل إلى أنطونيوس شئون البلاد الشرقية .

كليوبترة وأنطونيوس

وكانت كليوبترة قد لزمت موقفا غير واضح بعد مصرع قيصر ، منتظرة لمن تكون له الغلبة فى هذا الصراع الرهيب .

فلما آل الأمر إلى أوكتافيوس وأنطونيوس ، أرسل هذا من مدينة (طرسوس) بمقاطعة كليكيا بآسيا الصغرى إلى كليوبترة يستدعيها لكي يحاسبها على موقفها السلبي ، وعدم معاونتها لأنصار يوليوس قيصر .

فذهبت إليه سنة ٤١ ق .م . في سفينة فاخرة بدت فيها كأجمل ملكة تحيطها مظاهر الزينة والزخرف وآلات الطرب .

فما أن رآها أنطونيوس ، حتى وقع في شرك حبها . فصفح عنها وذهب معها إلى الإسكندرية حيث عاش وإياها في لهو وعبث .

وبالرغم من أن الأحداث السياسية قد اضطرته إلى البعد عنها طوال أكثر من ثلاث سنوات ، قضاها في الحروب ، فإنه عاد إليها مغرما بها ، واستهان بواجبات منصبه ، وكان في غضون ذلك قد تزوج سنة ٤٠ ق .م . بأوكتافيا أخت أوكتافيوس ، ولكنه عاد إلى علاقته بكليوبترة وتزوج بها سنة ٣٧ ق .م . واعترف بأن قيصرون هو الوارث الشرعي ليوليوس قيصر .

في حين أن أوكتافيوس كان يعتز بهذه الوراثة(١) .

فاشتدت العداوة بينهما ، ولم يكن بدّ من الحرب ليصرع أحدهما الآخر .

معركة أكتيوم البحرية سنة ٣١ ق .م
بين أوكتافيوس وأنطونيوس
وانتحار أنطونيوس ثم انتحار كليوبترة سنة ٣٠ ق .م

كانت معركة أكتيوم البحرية فاصلة في صراع الخصمين ، وفي مصير أنطونيوس ، فقد خرج إليه أوكتافيوس والتقى به في أكتيوم Actium (غربي بلاد اليونان) سنة ٣١ ق .م ، ووضعت كليوبترة جميع قواتها تحت تصرف أنطونيوس .

وقد وقعت بينه وبين أوكتافيوس معركة بحرية في أكتوبر سنة ٣١ ق .م . دارت فيها الدائرة على أنطونيوس .

وفر بعدها مع كليوبترة إلى مصر ، فتبعهما أوكتافيوس ووصل إلى بيلوز (الفرما) واحتلها ، ثم واصل زحفه على الإسكندرية .

وخرج أنطونيوس لملاقاته ، فانتصر عليه أوكتافيوس في المكان الذي أطلق عليه الرومان اسم (نيكوبوليس) أي مدينة النصر بضاحية الرمل ، وتقع تقريبا في الجهة المعروفة الآن ببولكلي (إيزيس) وما حولها(٢) .

(١) أم أوكتافيوس كانت ابنة أخت يوليوس قيصر وكان يوليوس قيصر قد تبنى أوكتافيوس .
(٢) تاريخ الحركة القومية جـ ٢ ص ٢٣٧ من الطبعة الأولى .

وانسحب أنطونيوس إلى الإسكندرية ، واستبدّ به اليأس ، فانتحر سنة ٣٠ ق .م . بأن بقر بطنه بخنجره ، فصرعه الخنجر .

ثم انتحرت كليوبترة من بعده حتى لا يقودها أوكتافيوس إلى روما ويعرضها في موكب انتصاره ، وكان انتحارها بلدغة حية أحضرتها خصيصا لتكون بها نهايتها ، فكان فيها الموت الزؤام .

كليوبترة
آخر البطالمة

إن كليوبترة هي آخر ملوك البطالمة ، وقد كانت سيدة مقدونية يونانية ، ولم تكن فيها قطرة دم مصرية .

تولت العرش وعمرها لا يزيد على ثمانية عشر عاما ، وقد شغلت الفترة الأخيرة من حياة الدولة البطلمية ، بما انتهى بانتحارها وسقوط هذه الدولة .

وكان انتحارها خاتمة محتومة لحياتها ، وحياة الدولة البطلمية .

فقد وضعت لنفسها قاعدة ظنت أنها تستطيع أن تثبت بها عرشها المتداعي وهي أن تأسر كبار الرجال بغرامياتها ، فيذعنون لإغرائها وأهوائها .

ولم تكن الغراميات في أي عصر من العصور وسيلة للدبلوماسية الناجحة التي تنهض بالدول والشعوب .

ومن ثم انتهى دور كليوبترة بالإخفاق والانتحار .

لقد فتنت وقتا ما يوليوس قيصر وهو في أوج سلطانه ، وانتهى الأمر إلى أن لقي مصرعه على يد بروتس وشركائه .

وحين آل أمر الدولة الرومانية إلى أنطونيوس وأوكتافيوس أرادت أن تأسر كليهما واحدًا بعد آخر ، لتضمن لنفسها على العرش .

ولقد أفلحت في السيطرة على أنطونيوس ، فوقع في شراك حبها ، ونسي واجبات منصبه ، وتزوج بأوكتافيا أخت أوكتافيوس ، ولم يمنعه هذا الزواج من أن يعود إلى غرام كليوبترة .

ويقول بعض المؤرخين إن كليوبترة لم تكن أجمل من أوكتافيا ، ولم تكن تفضلها إلا بأنها سيدة لعوب ، تأسر الرجال بعبثها وجاذبيتها وعذوبة حديثها .

ولم تكن ترى في الحب ارتباطًا شريفًا ، بين قلبين متحابين يجمع بينهما الإخلاص والوفاء المتبادلان ، بل كانت ترى فيه مصيدة للرجال ، تأسرهم به واحدًا بعد آخر ، غير ناظرة إلا إلى

وأهوائها .ومثل هذا النوع من المجون هو أبعد ما يكون عن الحب الشريف ، وأقرب إلى الفساد والتدهور والسقوط الأدبى والمعنوى .

من أجل ذلك كانت شؤما على من أحبتهم أو تظاهرت بالحب لهم .

قيل إنها أحبت ابن بومبى خصم يوليوس قيصر ، وأمدته بنجدة بحرية ولكن بومبى آل إلى القتل ، إذ لقى مصرعه على شاطئ بيلوز سنة ٤٨ ق .م . ، وأحبها يوليوس قيصر مصرعه فى روما إذ طعنه بروتوس وشركاؤه طعنات قاتلات فى الوقت الذى كانت كليوبترة معه عيشة الهوى والغرام على ضفاف نهر التيبر .

لقى يوليوس قيصر مصرعه بادرت هى بالرحيل عن روما وعادت أدراجها إلى مصر .

أحبها أنطونيوس أعماه الحب عن واجباته نحو دولته ، وتردى فى هوة الانحدار والسقوط مكانته ومنى بالهزيمة وفى واقعة أكتيوم سنة ٣١ ق .م . وانسحبت كليوبترة من المعركة تقاسم أنطونيوس مرارة الهزيمة ، وعادت إلى مصر ، وعاد إليها هو أيضا ثم لم يلبث أن بتأثير اليأس والإخفاق والهزيمة .

تملكها اليأس ، وعرفت المصير الذى كان ينتظرها لو بقيت على قيد الحياة ، فإنها ولا ريب ستساق أسيرة ذليلة مكبلة بالقيود والأغلال تجتاز شوارع روما فى موكب النصر أوكتافيوس الظافر .

وتذكرت أنها ستلقى المصير الذى لقيته أختها (أرسينوى) حيث سارت مكبلة بالأغلال موكب النصر الذى أقيم ليوليوس قيصر ، فآثرت الموت على هذا المصير ، وانتحرت ٣٠ ق .م .

وانتهى بانتحارها حكم البطالمة فى مصر .

الفصل الرابع عشر

مقاومة مصر للاستعمار الرومانى وعصر الشهداء

صارت مصر ولاية تابعة للدولة الرومانية بعد انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس فى واقعة أكتيوم سنة ٣١ ق .م . ، وانتحار أنطونيوس وكليوبترة سنة ٣٠ ق .م . ودخول أوكتافيوس الإسكندرية ظافرًا (أول أغسطس سنة ٣٠ ق .م) .

واعتمدت الدولة الرومانية على قوتها الحربية لتثبيت مركزها فى مصر ، فأبقت بها حامية من نحو ثلاثين ألف مقاتل كانت كافية لإخماد الثورة فيها .

يقول (هارولد بل) فى هذا الصدد : « كانت إفريقية ومصر الموردين الرئيسيين للغلال إلى الإمبراطورية الرومانية ، أما إفريقية ولاية تابعة لمجلس الشيوخ ، هدأت أحوالها منذ أمد طويل ولم تصبح فى حاجة إلى قوة حربية وأما مصر فنظرًا لقرب عهدها بالغزو الرومانى ، ولشهرتها بالشغب والاضطرابات ، كانت فى حاجة إلى حامية قوية ، فأبقى أوكتافيوس فيها ما لا يقل عن ثلاث فرق مضافا إلى ذلك القدر المقرر لتلك الفرق من القوات المساعدة »[1] .

لم يكن استيلاء الرومان على مصر أمرًا مستغربًا .

فإن دول أوروبا جميعًا قد دانت الدولة الرومانية ، واستقرت سيطرتها على جميع الشعوب التى تحيط بحوض البحر المتوسط ، ولم يبق خارجًا عن سيطرتها سوى بعد الدول فى آسيا والقبائل المتبربرة شمالى الدانوب .

وانفرد أوكتافيوس بادئ الأمر بالسياسة العليا فى الدولة الرومانية ، ولقب (أغسطس – العظيم) وصار الرئيس الأعلى للدولة ، فصارت له سمات الإمبراطور ، وانتهى بذلك عهد الجمهورية الرومانية ، وبدأ عهد الإمبراطورية فى روما والبلاد التى تبعتها .

وتولى ولاة من قبل روما شئون الحكم فى مصر .

وظلت الإسكندرية عاصمة البلاد كما كانت فى عهد البطالمة ، ومقرا للوالى الرومانى ، واستمرت اللغة اليونانية لغة الدولة الرسمية .

(١) هارولد ا . بل – مصر الهلينية – تعريب الأستاذ زكى على ص ٩٢ .

وبلغت أملاك الدولة الرومانية ذروتها فى عهد الإمبراطور تراجان Trajan فكانت تمتد من نهر دجلة شرقًا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن إنجلترا إلى الصحراء الكبرى جنوبا .

ولم يكن حكم الرومان خيرًا من حكم البطالمة ، فلقد جعلوا مصر مستعمرة رومانية ، وعاملت روما الشعب المصرى كأنه شعب مقهور على أمره .

وميز الرومان اليونانيين واليهود على المصريين ، لعلمهم أنهم لا يكترثون إلا لمصالحهم الشخصية ، ولا ينظرون إلى مصر إلا من الزاوية الإستعمارية وبعد وفاة أغسطس تولى الحكم بعده الإمبراطور نيبربوس .

وفى عهده حظر الرومان على المصريين حمل السلاح ، ومن يحمله كان يحكم عليه بالإعدام ، وذلك خوفا من ثورتهم[1] على أن سكان الإسكندرية أظهروا حنقهم على اليهود عملاء الاستعمار الرومانى .

واهتم الرومان بمصر وإستبقائها فى حوزتهم لأنها كانت أعظم مورد للقمح إلى روما .

مظالم الحكم الرومانى

كانت مظالم الحكم الرومانى لا تقل عن مظالم البطالمة ، كلاهما كان يعتبر مصر مستعمرة له ، وكلاهما كان يرهق الشعب ويبتز منه أكثر ما يمكنه من الضرائب .

ولم يكن للعدل ظل من الوجود فى هذا العهد .

وكان الرومان واليونانيون واليهود هم المميزون فى عهد الاستعمار الرومانى أما الشعب المصرى فكان يعانى الاضطهاد والضيق والحرمان .

وساءت الحالة الاقتصادية فى البلاد .

وفى ذلك يقول (هارولد بل) : « وقصة مصر الرومانية على أى حال سجلٌ أليم للاستغلال المنطوى على قصر النظر ، والذى كان مصيره المحتوم أن يؤدى بالبلاد إلى خراب اقتصادى واجتماعى ، وقد أشرت من قبل إلى ما تنطوى عليه النظرية الباطلة التى تقضى باعتبار معاملة أمة من الأمم على أساس أنها مجرد ضيعة تستغل لصالح حكامها وسادتها ، إلى أن قال : « وكان جزء كبير من القمح الذى يقدمه الفلاحون الملكيون على سبيل الإيجار أو يدفعه ملاك الأراضى كضريبة ، وكذلك الضرائب النقدية العديدة ، كل هذا يشحن إلى روما لينتفع به الشعب الرومانى مع ما فى هذا من خسارة جسيمة فادحة بالنسبة لمصر »[2] . إلى أن قال : « وتمسك الرومان بأهداب الفكرة الأساسية ، وهى أن مصر بقرة حلوب ، تدر لبنها لصالح روما وما يعود عليها

(١) فيكتور شابو Victor Chapot – مصر الرومانية L'Égypte Romaine ص ٢٤٨ .

(٢) هارولد بل – مصر الهيلينية ص ١٠٣ .

بالخير ، ولا ريب أن تلك البقرة كانت غنية بلبنها ، ولكن روما حرصت على الإفراط فى استنزاف ذلك اللبن إلى آخر قطرة بانتظام » ، ثم قال : « وحتى قبل القرن الأول الميلادى بدت البوادر المنذرة بالسوء ، فالفيلسوف اليهودى فيلون Philoعندما كان يؤلف كتبه فى عهد كاليجولا Caligula وكلوديوس Claudius قدم صورة فظيعة للأحوال السائدة فى عصره ، فتحدث عن حياة الضرائب الذين لم يكونوا يتورعون عن الاستيلاء على مومياء العاجز عن سداد الضرائب المستحقة عليه ، كى يكرهوا ذوى قرباه على دفع المتأخرات ، كما أشار إلى الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقرباء الذين زج بهم فى غياهب السجون ولاقوا أصناف التعذيب ، كى يعترفوا بمكان الهارب المطلوب ، كما تحدث عن قرى برمتها بل ، ومدن هجرها سكانها ، وفى تاريخ مبكر يرجع إلى عام ٢٠ بعد الميلاد ، بدأنا نسمع عن التجاء دافعى الضرائب إلى الفرار والاعتصام بأحد المعابد ، وفى بردية كتبت فى تاريخ يتراوح بى عام ٥٥ و٦٠م . أبلغ الجباة الموكلون بتحصيل ضريبة الخراج الرأسى من ست قرى بالإقليم الأرسينوينى (الفيوم) ، فى تقرير ضمنوه أن « السكان فى القرى سالفة الذكر ، بعد أن كانوا كثيرين تضاءل عددهم إذ ذاك وانكمشوا حتى أصبحوا قلة من بضعة أفراد ، لأن البعض آثر الفرار بعد أن ضاقت سُبل الرزق فى وجوههم ، والبعض الآخر أدركهم الموت دون أن يتركوا ذرية من بعدهم » ، إلى أن قال : « ويبدو أن الإجراءات التى أخذها تيبريوس بوليوس الإسكندر قد أثمرت وآتت أكلها ، لأنه ليس من قبيل الصدف فى أغلب الظن أن ما بقى من سجلات يرجع تاريخها إلى النصف الثانى من القرن الأول ، اشتملت على بينات أقل من سالفاتها عن وجود اضطراب خطير ، ولكن بدعة فى النظام الإدارى كان قد سبق إدخالها فى مصر وقدر لها أن تكون ذات أثر وخيم ، فالبيروقراطية البطلمية كانت بصفة خاصة محترفة ، تعتمد على التطوع فى الحصول على الموظفين والأيدى العاملة فيها ، وجباية الضرائب تجرى عيها عن طريق طرحها فى مزاد يشترك فيه الملتزمون الذين كانوا يتقدمون بعطاءاتهم بمحض حريتهم ، والمستأجرون الملكيون ، على الرغم مما كان يفرض على حريتهم فى التنقل من قيود ، كانوا يتقدمون بطلباتهم بمحض الاختيار لإبرام عقود الإيجار لهم ، وفى أوقات الأزمات والملمات كانت الحكومة تعمد إلى أدراج أسماء الأشخاص الذى تتوسم فيهم الأهلية والصلاحية ضمن موظفيها ، حتى ولو كان هذا ضد إرادتهم ، كما كانت الحكومة تعمد إلى إكراه الملتزمين فى جباية الضرائب على الاضطلاع بعقودهم وإلى إكراه الفلاحين على قبول عقود الإيجار » .

ثم قال : « وبتطبيق هذا النظام بشدة لا هوادة فيها أدى الأمر إلى القضاء أولا على الفلاحين الموسرين ، ثم على الطبقة الوسطى ذات الغنى واليسار ، على أن الإكراه والإجبار لم يقتصروا على هذا النطاق ، فإن الشروط المعروضة على الفلاحين المستأجرين لأراضى الدومين لم تكن سخية ، كما أن الترضيات والإعفاءات التى كانت تبذل فى أوقات الضنك الاقتصادى والضيق المستحكم كانت مرموقة بالبغض والحقد ، إلى حد أنه أصبح من المستحيل فى بعض الأحيان العثور على من يتقدم للمزايدة فى العطاءات طوعًا واختيارًا ، وفى مثل هذه الأحوال ، كانت الدولة تلجأإلى الإكراه

والإجبار بإحدى وسيلتين إما بضم ما يؤجر من الأرض فى نطاق قرية ما إلى قرية أخرى حيث يقع عبء زراعتها على كاهل القرويين بتوزيعها عليهم عن طريق القرعة ، وإما باللجوء إلى وسيلة يطلق عليها (العبء الإضافى) وبمقتضاها كانت أنصبة من أرض الدومين تقتطع وتلحق بأرض الملكية الخاصة ، حيث يضطر ملاكها أن يزرعوها مع أملاكهم الخاصة ، وبهذه الطريقة كاد أن يؤول الأمر فى النهاية بأرض الدومين إلى أن يعتريها الزوال فى العصر البيزنطى ، بأن تبتلعها الأرض الخاصة التى أصبحت مرتبطة بها ، وفى حالة تطبيق الطريقة الأولى المنطوية على التوزيع كانت الجماعة كلها مسئولة عن زراعة الأرض وبالتالى عن دفع الضرائب (وهذا هو بيت القصيد) ، أما فى حالة تطبيق الطريقة الثانية فكل فرد مسئول عما التزم به ، ولكن ظهرت المسئولية الجماعية باطراد ، على حد قول فيلون ، بمضى الزمن واتخذت طابعاً عاماً : فإذا توارى واحد من دافعى الضريبة المستحقة عليه تجبى من زملائه من أعضاء الجماعة ، وإذا عجز مستأجر عن دفع ما عليه أو هرب مالك للأرض فإن واجب فلاحة هذه الأرض كان يقع على الآخرين ، وفضلا عن ذلك فإن أولئك الذين كان من واجبهم ترشيح شاغلى الوظائف — سواء أكانت مما يدخل فى نطاق الوظائف التى يؤجر عليها شاغلوها أم الوظائف الشرفية — اعتبروا ضامنين ، بل إنهم كانوا أنفسهم مسئولين عما قد ينشأ من عجز بسبب المرشحين من قبلهم ، ولابد أن الفرد أخذ يشعر شيئًا فشيئا على توالى السنين بوقوعه داخل شبكة ضاقت منافذها وأحكمت حلقاتها ، حتى لم تعد تسمح لأحد بالفرار منها »[1] .

وظلت مصر ترزح حكم الرومان سبعة قرون بدأت من سنة ٣٠ ق .م . وانتهت بالفتح العربى عام ٦٤٠ — ٦٤٢ ميلادية على يد عمرو بن العاص .

الثورات على الرومان
الثورة فى منطقة طيبة

لم تكد تمضى بضعة أشهر على الغزو الرومانى حتى نشبت الثورة فى الوجه القبلى .

وكانت (طيبة) معقلها ، كما كانت معقل الثورات فى عهد البطالمة ، ونكل الثائرون بجباة الضرائب من الرومان .

فجردت الحكومة حملة على طيبة بقيادة جالوس الحاكم الرومانى ، وكان أول حاكم على الإسكندرية .

فأخمد الثورة ونكل برجالها ، واستولى على خمس مدن ، منها قفط والأقصر وأسوان ، وتقدم إلى ما وراء الشلال الأول .

(١) هارولد بل : الهيلينية فى مصر . تعريب الأستاذ زكى على ص ١٠٦ .

الثورة فى الشمال الشرقى من الدلتا

وشبت الثورة فى الشمال الشرقى من الدلتا ، بتل المسخوطة ، فأخمدتها القوة .

الثورة فى النوبة

وكان أهل النوبة قد عاونوا ثوار طيبة فى كفاحهم ضد المستعمرين الجدد (الرومان) .

فلما نجح الحاكم الرومانى فى إخماد ثورة طيبة ، زحف جنوبا لإخماد الثورة فى النوبة فيما وراء شلال أسوان ، ولكنه لم يوفق فى إخمادها ، وترك لأهل النوبة استقلالا ذاتيًا ، واعترفوا بالسيادة الرومانية اسما لا فعلا .

ثم قام النوبيون فى نحو سنة ٢٤ ق .م . بثورة جامحة ، وهاجموا الحاميات الرومانية فى صعيد مصر ، فاستعد الرومان لإخماد هذه الثورة وأخمدوها واستولوا على نباتا عاصمة النوبة ، ونهبوها .

وبعد عامين من إخماد هذه الثورة قامت الملكة (كانداكى) وزحفت على الرومان عند قلعة إبريم ، وإذ تعادلت القوتان عُقد صلح بين الرومان والنوبيين ، كان من أهم شروطه إعفاء النوبة من دفع الجزية للرومان ، واستمر السلم لفترة طويلة .

وأقام الرومان الحصون والمعاقل فى بعض بلاد النوبة كالدكة وكلابشة وقرطاسة وإبريم .
ولا تزال آثار هذه الحصون باقية إلى اليوم .

عداء المصريين للرومان واليهود

رأى المصريون من ممالأة الرومان لليهود فى الإسكندرية ما زادهم سخطًا على الاحتلال الرومانى ، وثارت الإسكندرية على اليهود عملاء هذا الاحتلال كما كانوا عملاء الاحتلال البطلمى من قبل .

وفى عهد الإمبراطور تراجان جدد بناء حصن بابلون ليكون المقر الرئيسى للحامية الرومانية .
ولا تزال آثار هذا الحصن قائمة إلى اليوم بمصر القديمة ، وهو الحصن الذى قاوم العرب سنة ٦٤١م ، حين فتحهم لمصر .

ظهور المسيحية فى مصر

إن الاضطهاد الذى وقع على المصريين من الحكم الرومانى كان من أسباب انتشار المسيحية فى مصر .

فقد قام القديس مرقس Saint Marc أحد حوارىّ السيد المسيح إلى الإسكندرية ، وبشر بالمسيحية السمحة ، فاعتنقها الكثيرون .

وكان اعتقاد المصريين القدماء فى البعث بعد الموت ، ومعاناتهم لظلم الرومان ، مما سهل لهم اعتناق المسيحية ، إذ رأوها تبشر بحياة أفضل من الوثنية .

اضطهاد الرومان للمسيحيين فى مصر

حين ظهرت المسيحية فى مصر ، كانت روما لا تزال على الوثنية ، وكذلك أباطرتها ، فحاربوا المسيحيين واضطهدوهم فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، واضطهدوا الأقباط فى مصر .

وحين تولى الإمبراطور دقلديانوس Diocletien عرش روما سنة ٢٨٤ ميلادية شنّ على المسيحيين (الأقباط) اضطهادًا دام نحو عشرين عامًا قاست فيها مصر الشدائد والأهوال ، واستشهد خلالها الألوف من المصريين المسيحيين (الأقباط) .

ودقلديانوس هذا هو المقام له العمود المعروف بعمود السوارى أو ما يسمى خطأ عمود بومبى ، وهو قائم إلى اليوم بالإسكندرية .

اشتهر عهد دقلديانوس باضطهاد المسيحيين (الأقباط) منذ أواخر القرن الثالث بعد الميلاد ، على نحو فاق كل ما أصابهم من قبل .

وسمى عهده (عصر الشهداء) لكثرة من استشهد فيه من المصريين المعتنقين للمسيحية .

وقد جعل الأقباط بداية التقويم القبطى سنة ٢٨٤م . وهى السنة التى بدأ فيها حكم دقلديانوس ، وسمى عهده بحق عصر الشهداء .

وتخليدًا لذكرى أولئك الشهداء جعلوا التقويم يبدأ بالسنة التى بدأ فيها هذا الاضطهاد الشديد .

وقد كان تمسك المصريين المسيحيين (الأقباط) بعقيدتهم ، من ضروب المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الرومانى .

قال المؤرخ المقريزى عن اضطهاد دقلديانوس للأقباط ما يلى : « إنه أوقع بالنصارى فاستباح دماءهم ، وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى . وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وبالغ فى الإسراف فى قتل النصارى » . إلى أن قال : « وكانت واقعته بالنصارى ، هى الشدة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها ، لأنها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفتر يومًا واحدًا يحرق كنائسهم ويعذب رجالهم ويطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل ، يريد بذلك قطع أثر النصارى وإبطال دين النصرانية من الأرض ، فلهذا اتخذوا ابتداء دقلديانوس تاريخًا »[١] .

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ١ ص ٢٦٢ .

هذا . وقد كان لاضطهاد الرومان للمصريين أثره فى ارتياحهم للفتح العربى سنة ٦٤٠–٦٤٢م ، إذ رأوا من عدل العرب وتسامحهم الدينى ما جعلهم يتقبلون هذا الفتح كمنقذ لهم من اضطهاد الرومان .

اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية

وفى عام ٣٢٤ ميلادية أعلن الإمبراطور قسطنطين اعتناقه للمسيحية ، وهو الذى اتخذ بيزنطة (القسطنطينية) ، عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية .

عودة الفرس لاحتلال مصر ثم إجلاؤهم عنها

وفى سنة ٦١٤م ، قبل الفتح العربى لمصر بسنوات ، هاجم الفرس الرومانى فى سورية وفلسطين ، واستولوا على دمشق وبيت المقدس سنة ٦١٥م .

ثم هاجموها فى مصر ، وحاصروا الإسكندرية إلى أن فتحوها سنة ٦١٧م وأخضعوا مصر سنة ٦١٨ ، وبلغوا فى فتوحهم أسوان ، وبقى الفرس نحو عشر سنوات محتلين البلاد[١] .

ثم لم يلبث هرقل إمبراطور الرومان أن أعاد الكرة ، فحارب الفرس وأجلاهم عن مواقعهم فى آسيا الصغرى ، وعن سورية وبيت المقدس ، ثم عن مصر سنة ٦٢٧م .

وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : ﴿غُلبت الرومُ فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغْلبون فى بضع سنين﴾[٢] .

وقد ظهرت دعوة محمد ﷺ ، إذ نزل عليه الوحى سنة ٦٠٩ ميلادية وهاجر من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٢ (أول سنة للتاريخ الهجرى) فى الوقت الذى كان الرومان يحاربون فيه الفرس .

استمرار الاضطهاد الدينى فى مصر بعد اعتناق الرومان للمسيحية

بالرغم من اعتناق أباطرة الرومان للمسيحية ، فقد استمر الاضطهاد للمذاهب المسيحية فى مصر ، عدا مذهب الحكومة .

لقد تمسك المسيحيون المصريون (الأقباط) بمذهبهم المناهض لمذهب الأباطرة ، فكان من شأن ذلك أن أسبغ على الحركة المسيحية فى مصر طابعًا قوميًا ، وأصبح رجال الكنيسة زعماء المصريين فى الحركة الروحية والوطنية معًا .

(١) هذه التواريخ قد حققها بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) بالملحق الثانى منه ص ٤٣٢ .
(٢) سورة الروم : الآيات من ٢ – ٤ .

وجاء مسلك أباطرة الرومان مظهرًا من مظاهر التعصب الدينى ، وجاء دليلاً على أن اعتناقهم المسيحية لم يكن له أثر فى حملهم على التسامح الدينى حتى مع شركائهم فى أصل العقيدة .

وكان التعصب المذهبى شديدًا يفى عهد هرقل آخر أباطرة الرومان الذين حكموا مصر .

فقد سعى هرقل جهده فى توحيد المذاهب المسيحية ، وعقد لذلك مجمعًا فى خلقيدونية[1] ، حضره بطارقة الشام والقسطنطينية ، وأقروا مذهبا مسيحيا موحدا ، وأمر هرقل كل المواطنين فى الشام ومصر أن يتبعوا المذهب الموحد ، فكان من ذلك اضطهاد المسيحيين الأحرار ، وكانت الكنيسة الشرقية من أجل ذلك موضع سخطهم ونقمتهم .

ومن مظاهر الاضطهاد أن عين هرقل سنة ٦٣١ قيرس (المقوقس)[2] بطرقًا للإسكندرية ونائبا عنه بمصر ، وطلب إليه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب المسيحى الموحد ، فأبى الأقباط عليه ذلك .

وكان بنيامين[3] كبير أساقفة الأقباط فى مصر يتولى بطرقة الإسكندرية ، فعارض المذهب الجديد ، فاضطهده قيرس واضطره إلى الهجرة من الإسكندرية ، تفاديًا من اضطهاد ، وظل مختفيا فى أديرة الصعيد ، ولم يظهر إلا بعد الفتح العربى لمصر .

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على الساحل الآسيوى للبوسفور .

(٢) ليس من شك فى أن قيرس هو المقوقس ، وقد برهن جلر على هذه الحقيقة بأدلة مستفيضة ذكرها فى الملحق الثالث من كتابه (فتح العرب مصر) ص ٥٤٢ وما بعدها .

(٣) يسميه ابن عبد الحكم والمقريزى (أبو ميامين) .

الفصل الخامس عشر

الفتح العربى لمصر

(سنة ٦٤٠ - ٦٤٢م)

فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى (الأول للهجرة) . وكان هذا الفتح دورًا من أدوار الوحدة العربية .

ولقد قلنا تفسيرًا لهذه الظاهرة التاريخية ، « وإذ كانت الرسالات الروحية من أركان الحضارة البشرية ، فإن الشرق العربى هو أيضا موطن هذه الرسالات .

« فإبراهيم الخليل (أبو الأنبياء) ، قد نشأ عربيًا فى جنوب العراق منذ نحو ألفى سنة قبل الميلاد ، ودعا إلى التوحيد ، ورحل إلى فلسطين فمصر ، ثم إلى الحجاز ، وبنى الكعبة فى مكة مع ابنه إسماعيل » .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾[1] .

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ . رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2] .

« وفى جبل سيناء كلم الله موسى تكليما .

« وفى فلسطين نشأ السيد المسيح الذى أصابه من اضطهاد الرومان والإسرائيليين ما أصابه ، وعلى يده ظهرت المسيحية السمحة ، الداعية إلى الإخاء والسلام ، لا إلى البغى والعدوان .

« وفى ظلال البيت الحرام نشأ محمد ﷺ ، ونزل عليه الوحى سنة ٦٠٩م ، ودعا إلى رسالة الإسلام ، رسالة التوحيد والإيمان ، فتصدى له قومه وحاربوه ، وهاجر إلى المدينة فى السنة الأولى للهجرة (٦٢٢م) وبهجرته يبدأ التاريخ الهجرى .

« وفى السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠م) ، سار لفتح مكة بعد أن نقض أهلها عهد الحديبية ، فتم له فتحها ، وكان لهذا الفتح أثره وفضله فى توحيد كلمة العرب .

« وقد انتشر الإسلام أول ما انتشر بين سكان الجزيرة العربية ، ولما توفى الرسول (محمد

(١) سورة آل عمران (٩٦ - ٩٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٢٧) .

ﷺ) فى السنة الحادية عشرة من الهجرة (٦٣٢م) ، خلفه أبوبكر الصدّيق أول الخلفاء الراشدين ، فوحّد كلمة العرب فى شبه الجزيرة واستخلص هذه الوحدة من أيدى المتقضين عليها من المرتدّين ، واتجه إلى توحيد كلمة العرب عامة ، فأنفذ إلى العراق سنة ١٢هـ (٦٣٤م) جيشًا عهد بقيادته إلى قائد من خيرة قواده ، وهو خالد بن الوليد ، فاستخلص العراق من أيدى الفرس فى حرب خاطفة ، جعلت اسمه فى مصاف عظماء القواد فى التاريخ ، وأنفذ جيوشًا أخرى إلى بلاد الشام ، وكانت تحت حكم الروم البيزنطيين (الرومان) ، وأمر خالد بن الوليد أن يسير إلى الشام ليقود هذه الجيوش ، فانتقل من العراق إلى الشام ، وقاد الجيوش العربية ، وهزم الروم البيزنطيين فى واقعة (أجنادين) بين بيت المقدس وغزة (سنة ٦٣٤م – ١٣هـ) .

« وفى أعقاب هذه الواقعة زحف الجيش البيزنطى على مواقع الجيش العربى ، فالتحم الجيشان فى واقعة (اليرموك) شرقى نهر الأردن ، وانتصر الجيش العربى بقيادة خالد بن الوليد انتصارًا مبينا (أول سبتمبر سنة ٦٣٤م) ، وبهذه المعركة الحاسمة قضى على دولة البيزنطيين فى الشام .

« ولما توفى أبو بكر الصديق قبيل واقعة (اليرموك) ، تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب ، وفى عهده تم فتح العراق على يد قائد عربى محنك هو سعد بن أبى وقاص الذى هزم الفرس فى معركة (القادسية) بالعراق .

« وكانت معركة القادسية فاصلة لصالح العرب فى العراق ، كما كانت واقعة اليرموك فى الشام .

« وأنفذ عمرو بن العاص إلى مصر وكانت تحكم البيزنطيين أيضًا ، فاستخلصها من أيدى البيزنطيين سنة ٦٤٠ – ٦٤٢م ، وفتح برقة سنة ٦٤٣م ، واستقبلت الشعوب دخول العرب هذه البلاد لا كغزاة فاتحين ، بل كمنقذين لهم من اضطهاد الفرس والروم البيزنطيين ، وخاصة لأن هذه الشعوب بحكم موقعها أقرب إلى العرب نسبيًا وأصولا وروابط اقتصادية وثقافية وروحية ، بل كان معظمهم عربا من قبل ، فلا غرو أن انضموا إلى الوحدة العربية راضين مختارين ، وصاروا جزءا من الدولة العربية ، وقد زاد فى تعلقهم بها ما رأوه من عدل الخلفاء الراشدين وولاتهم ، ومساواتهم بين الناس ورفقهم بالأهلين »[1] .

ماذا كانت عليه حال مصر قبل الفتح العربى

لكى نتفهم كنه الفتح العربى ، يحسن بنا أن نتعرف حالة مصر قبل هذا الفتح ، فإنها ولا شك تطالعنا بحقيقته وغايته ، وأنه كان إنقاذا لها من الاضطهاد الدينى وفساد الحكم الرومانى . فالرومان كانوا يعتبرون مصر مستعمرة لهم يستغلون خيراتها ، ويغتصبون أموالها ، وكان

(١) الوحدة العربية فى خلال العصور – من كتاب (ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢) ص ٣٣٣ .

نوابهم فيها يعاملون الأهلين معاملة جائرة ، لا عدل فيها ولا إنصاف ، وحكام البلاد من رواد الاستعمار يرهقون الأهلين بالضرائب الفادحة لكى يملئوا خزائن الأباطرة الرومان ويشبعوا أهواءهم ، والاضطهاد الدينى يعصف بحرية العقيدة ويزيد النفوس سخطًا ومرارة ، فنواب الرومان يعملون على إجبار الأهلين على اعتناق المذهب الرسمى المسيحى للدولة ، ولا يقبلون منهم أن يمارسوا عقيدتهم فى حرية واختيار ، وكان من آثار هذا الاضطهاد أن حورب الأسقف (بنيامين) بطريق الإسكندرية ، لأنه رفض الإذعان لهذا الاضطهاد واضطره قيرس (المقوقس نائب هرقل) كما سلف القول ، إلى الهجرة من الإسكندرية والاختفاء بأديرة الصعيد عدة سنوات ، ولم يظهر إلا بعد الفتح العربى الذى أطلق الحرية الدينية من عقالها .

يقول ديهل Diehl فى كتاب (مصر المسيحية والبيزنطية) يصف هذه الحالة[1] :

« فى أوائل القرن السادس للميلاد كانت الحالة فى مصر خطيرة ، ففداحة الضرائب التى فرضها الرومان قد أفقرت البلاد ، وأوجدت سخطًا شديدًا بين الأهلين ، واقترنت الأزمة الاقتصادية بأزمة اجتماعية ، وكانت الرشوة وفساد الحكام تزيد من هذا السخط ، وقد سعى الإمبراطور جوستنيان Justinien فى القسطنطينية لإصلاح هذه الحال ، ودمغ الإدارة فى مصر بالفساد » .

وقال عن الحالة فيها : « إن الفوضى قد تفاقمت لدرجة أنه لم يكن معروفًا فى القسطنطينية ما يجرى هناك ، وقد انتشر الفقر فى مصر وازداد السخط على الحكم البيزنطى ، فصارت البلاد فى حالة انتقاض على هذا الحكم تشبه الثورة » .

وفى أواخر عهد الحكم البيزنطى كانت الضرائب الباهظة ترهق الشعب ، وكانت الطبقات الفقيرة من الفلاحين تسام الخسف من هذه المعاملة ، وموظفو الحكومة يظلمونهم ويتساهلون مع الأغنياء .

وفى هذا الصدد يقول (ألفريد بتلر AlfredButler) فى كتابه (الفتح العربى لمصر) : « وفى الحق لم يكن فى بلاد الدولة الرومانية ما هو أشقى حالاً من مصر ، فقد سعى « جستنيان » جهده ليجبر الأقباط الذين ليسوا على مذهب الدولة « الأرثذكسى » فيدخلهم فى ذلك المذهب ، ولكن امرأته (تيودورا) ، عملت من جانب فأفسدت بعض سعيه ، إذ كانت تعطف على مذهب هؤلاء الأقباط عطفًا ظاهرًا ، على أن ذلك العطف ما عتم أن قضى عليه الإمبراطور جستينيان وعفى أثره ، ومن ثم عاد الكفاح الشديد الذى ثار قديمًا بين طائفتى (الملكانيين[2]) والمونوفيسيين (اليعاقبة وهم عامة أهل مصر) وصار أشدّ سعيرًا ، ولم يكن عند أقباط مصر هم أكبر منه يملأ قلوبهم ويملك عليهم آمالهم ، فلم يكن عجبًا أن يُسمع صليل السلاح بين حين وآخر فى مدينة

(١) ديهل Diehl مصر المسيحية والبيزنطية L'Égypt Chrétienne et Byzantine – ص ٤٥٤ و٥٢١ .
(٢) نسبة إلى الملك أو الإمبراطور البيزنطى .

الإسكندرية نفسها (العاصمة) ، ولم يكن عجبًا أن تضطرب الأحوال فى مصر السفلى فتصبح ميدانًا للشغب ، تثور بها فتن بين الطوائف. توشك أن تكون حربا أهلية ، ولم يكن عجبًا أن يكون هذا فى بلاد أصبح الحكام فيها لا همّ لهم إلا أن يجمعوا المال لخزائن الملك البيزنطى وحاشيته ، وأن تكون لمذهبهم الدينى اليد العليا بين أهل البلاد ، فصار الحكم على أيديهم أداة لا تؤدى إلا إلى الظلم ونشر الشقاء ، فالحق هو أن بلاد مصر إذ ذاك كانت جميعها تضطرم بنار الثورة ورغبة الخروج ، لا يحجبها إلا غطاء شفاف من الرماد »(١) .

وقال بتلر فى موضع آخر :

« أرسل الإمبراطور هرقل إلى نيقتاس يثبته فى حكم الإسكندرية ، وإن شئت قلت إنه جعله نائبا عن الملك فى مصر ، فكان همّ (نيقتاس) أن يعيد للحكم المدنى الرومانى نظامه ، وأن يعيد للجيش الرومانى كيانه ، وكان هذان أداتى الدولة الرومانية تحتفظ بها بملك مصر ، وكان الحكم المدنى والجيش كلاهما فى يد السادة الحاكمين ، ليس فيهما أحد من أقباط مصر أهل البلاد »(٢) .

وقال أيضًا : « إن حكومة مصر – فى عهد الرومان – لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية وترقية حالة الناس والعلم بهم فى الحياة ، أو تهذيب نفوسهم ، أو إصلاح أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ، ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم »(٣) .

وكان فى يد الحكام عاصمة البلاد الإغريقية (الإسكندرية) كما كان فى يدهم العاصمة المصرية القديمة (منف) ، وحصنها العظيم (حصن بابلون) الرومانى على الشاطئ الشرقى من النيل ، وكذلك كانوا يملكون مدائن عدة حصينة يلى بعضها بعضًا بين أسوان فى الجنوب والفرما فى الشمال ، وكان جند الحكومة وجُباة ضرائبها ينتشرون بين تلك المدائن يظهرون هيبة السلطان ويجمعون الأموال ، على حين كان تجار الروم واليهود يحلون حيث شاءوا تحميهم جنود الربط ، ينافسون الأقباط فى التجارة منافسة شديدة(٤) .

فالحالة فى مصر كانت تمهيدًا للفتح العربى وتفسيرا له .

(١) ألفريد بتلر – فتح العرب لمصر – تعريب محمد فريد أبو حديد ص ٣ .
(٢) ألفريد بتلر – فتح العرب لمصر – المرجع السابق ص ٣٩ .
(٣) ألفريد بتلر – المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٤) ألفريد بتلر – فتح العرب لمصر – المرجع السابق ص ٤ .

المقوقس

وقد عين هرقل سنة ٦٣١م الأسقف قيرس (المقوقس) وهو رومانى من أصل يونانى نائبا عنه فى مصر ، وبطرقًا ملكيًا للإسكندرية عاصمة البلاد وقتئذ .

وجاء المقوقس الإسكندرية فى تلك السنة ، واضطهد الأقباط لإجبارهم على اتباع مذهب الحكومة الدينى ، وكان من مظاهر هذا الاضطهاد هجرة البطرق بنيامين من الإسكندرية قبل فتح العرب لمصر بسنين كما سلف القول .

يقول ألفريد فى هذا الصدد :

« لا يذكر فى ذلك العصر كله فى أثناء الاضطهاد إلا شيء واحد ، وهو أن الزمان كانوا يخيرون الناس بين قبول مذهب خلقيدونية بنصه ، وبين الجلد أو الموت ، ولم يكن فى عقول مؤرخى الأقباط إلا هذا الاعتقاد يدونونه فى دواوينهم ، فيلوح من ذلك أن قيرس أحس بإخفاقه فى سعيه من مبدأ الأمر ، وكان يود أن يحمل الأقباط على المذهب الذى تقرر مهما تكلف فى سبيل ذلك ، فلم يعبأ بعد بما أدخله الإمبراطور على هذا المذهب من التهذيب ، بل كان يعرض على الناس أحد أمرين لا تعقيد فيهما ، وهما قبول الدخول فى الجماعة أو الاضطهاد .

« وكانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد قيرس (المقوقس) ، يصرفها كيف شاء ، وكان جيش الرومان مرة أخرى يملك مصر ، فكانت طرق الإسكندرية البراقة تتجاوب جوانبها بأصداء الكتائب البيزنطية إذ تسير فيها ، وعادت جنود الروم إلى الأسوار العظيمة أسوار المدينة وآطامها ووضعت عليها آلات حربها ، وبعثت المسالح إلى مدينة الفرما (بيلوز) وهى ثغر الطريق الآتية من فلسطين إلى مصر ، وإلى بلاد مصر السفلى مثل أتريب ونقيوس ، وكذلك إلى الحصن العظيم حصن (بابلون) بقرب منف ، ومن ثم عاد سلطان الروم فانتشر على بلاد الفيوم ووادى النيل ، حتى بلغ الحدود من الجنوب عند أسوان فى أسفل الجنادل ، وكانت كل تلك الجنود والكتائب عند أمر (قيرس) ماثلة لإنفاذ أمره إذا ما دعاها ، ولم يتحرك الأقباط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم إلى البلاد ، ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثا يحمدونه ويفرحون من أجله ، فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس إلى حكم الروم ، قد رُفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب ، إذ بينما كان غزاة الفرس بعد أن استقر بهم الأمر فى البلاد لا يحولون على الأقل بين الأقباط وبين التدين بما يشاءون من الدين ، جاء (قيرس) المقوقس فعول على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينتزعها من أيديهم » .

الاضطهاد الأعظم

« وابتدأ الاضطهاد الأعظم عند ذلك ، ويتفق المؤرخون جميعًا على أنه بقى مدة عشر سنوات ، أى أنه بقى كل مدة ولاية قيرس رياسة الدين ، فإن أكبر الظن أن مجمع الإسكندرية كان فى شهر أكتوبر من سنة ٦٣١م ، وقد بدأ عهد الاضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين ، ولا يشك أحد فى فظاعة ذلك الاضطهاد وشناعته ، فقد جاء كتاب (ساويرس) : « لقد كانت هذه السنين هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر ، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم ، لكى يحولهم على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب (خلقيدونية) ، فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم ، وقد جاء فى ترجمة حياة البطريق القبطى (إسحق) ، وكانت كتابتها سنة ٦٩٥م أنه فى شبابه ، لقى قسا اسمه يوسف كان ممن شهروا بين يدى (قيرس) وجلد جلدًا كثيرًا ، لأنه شهد شهادة الحق ، وكذلك كان أخو (بنيامين) ممن عذبوا ، ثم قتل غرقا ، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق « حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض » ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل ، وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس (خلقيدونية) ، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مدة ، فرموا به فى البحر فمات غرقًا »[1] .

التفكير فى فتح مصر

كان التفكير فى الفتح العربى لمصر أثناء الفتح العربى فى فلسطين .

فحين كانت (بيت المقدس) على وشك التسليم للعرب ، طلب أهلها بلسان البطريق (صفرنيوس) ، أن يصالحهم عمر بن الخطاب على ما صالح عليه دمشق ، والمدن الأخرى التى تم للعرب فتحها ، وأن يأتى الخليفة بنفسه ليكتب لهم عهد الصلح ، فرضى عمر بن الخطاب بهذا الشرط تقديرًا لمكانة بيت المقدس . وكتب إلى قواد جنده أن يوافوه بالجابية[2] .

وهناك فى السنة ١٧ هجرية (٦٣٩ ميلادية) ، جاءه وفد من أهل بيت المقدس فصالحهم وأمنهم .

ثم ذهب إلى بيت المقدس ، فاستقبله أهل المدينة المقدسة بالبشر والارتياح وصلى فى مكان قريب من الصخرة المقدسة ، وهو المكان الذى أقيم فيه المسجد الأقصى فيما بعد .

(١) ألفريد بتلر . فتح العرب لمصر ص ١٦٢ .

(٢) فى معجم البلدان لياقوت الحموى أن الجابية قرية من أعمال دمشق . وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع جـ ٣ ص ٣٣ .

وفى (الجابية) عرض عمرو بن العاص على عمر بن الخطاب ، فكرة فتح مصر ، وكان من قبل يعرضها عليه ، فتردد عمر فى قبول الفكرة ، إذ خشى عواقب تشتيت قوة العرب فى حين كانت جيوشهم تقاتل الرومان والفرس .

فلم يزل عمرو بن العاص يحسّن إليه فتح مصر حتى اقتنع بالفكرة ، على أنه استمهله حتى يعود إلى المدينة ويكتب إليه .

عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص من خيرة قواد العرب ، ومن أكثرهم خبرة وحكمة ومقدرة فى الحرب والسياسة كان راجح العقل ، نافذ البصيرة ، بعيد الهمة ، ومن أشجع العرب ، وأبعدهم نظرًا ، ومن أبلغهم عبارة ، وأفصحهم لسانا ، وكان أحد قواد الفتح العربى فى سورية وفلسطين .

وقد مارس التجارة فى صباه ، فساعدته هذه المهنة على الاتصال بمختلف الأجناس والشعوب ، وكان لها أثرها فى اتساع أفقه وازدياد خبرته بالشئون السياسية والاجتماعية .

ومن البلاد التى زارها من قبل التجارة الشام ومصر والحبشة واليمن . وزار الإسكندرية حين مجيئه إلى مصر .

ولعله قد شاهد وهو فى مصر مبلغ ظلم الرومان للمصريين ، واضطهادهم فى عقائدهم الدينية ، وإكراههم على اتباع مذهب الحكومة الرسمى (الملكانى) ، وعرف سخط المصريين على هذا الظلم ، ومايؤدى إليه من ضعف مقاومة الزمان لم يجىء فاتحا لمصر ، منقذا لها من ظلم الرومان .

عهد عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص قيادة الجيش لفتح مصر ، وكان فى الخامسة والأربعين من عمره .

ولم يكن هذا الجيش يزيد فى بداية الأمر على أربعة آلاف مقاتل من الفرسان .

فسار عمرو بهذا الجيش فى جوف الليل من فلسطين قاصدًا مصر ، ولم يشعر به أحد .

تردد عمر بن الخطاب

على أن عمر بن الخطاب قد تردد بعد عودته إلى المدينة ، إذ كان جماعة من ذوى الرأى والمكانة ، وفى مقدمتهم عثمان بن عفان يرون غزو مصر مخاطرة لا تؤمن عواقبها .

فبعث عمر من المدينة كتابا إلى عمرو بن العاص يقول فيه : « فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف . وإن كنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »[1] .

(١) ابن عبد الحكم — فتوح مصر وأخبارها ص ٥١ .

ودفع بالكتاب إلى رسول يحمله إلى عمرو بن العاص .

أدرك عمرو الكتاب وهو بعد فى (رفح) التى لم تكن وقتئذ معدودة من أرض مصر ، فخشى إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر .

فلم يأخذ الكتاب من الرسول . ودافعه وسار فى طريقه حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش .

فسأل عنها ، فقيل له إنها من مصر .

فدعا بالكتاب ، وقرأه ، وقال لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ . قالوا : بلى . قال : فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه .

وقائع الفتح العربى

استولى عمرو بن العاص على رفح فى طريقه إلى مصر .

فتح العريش دون قتال
(١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م)

ثم بلغ العريش ، ولم يكن بها قوة من الرومان للدفاع عنها ، ففتحها دون عناء ، وكان ذلك فى ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م ، (١٠ ذى الحجة سنة ١٨هـ) يوم عيد الأضحى .

فتح الفرما (بيلوز)
(٢ يناير سنة ٦٤٠م)

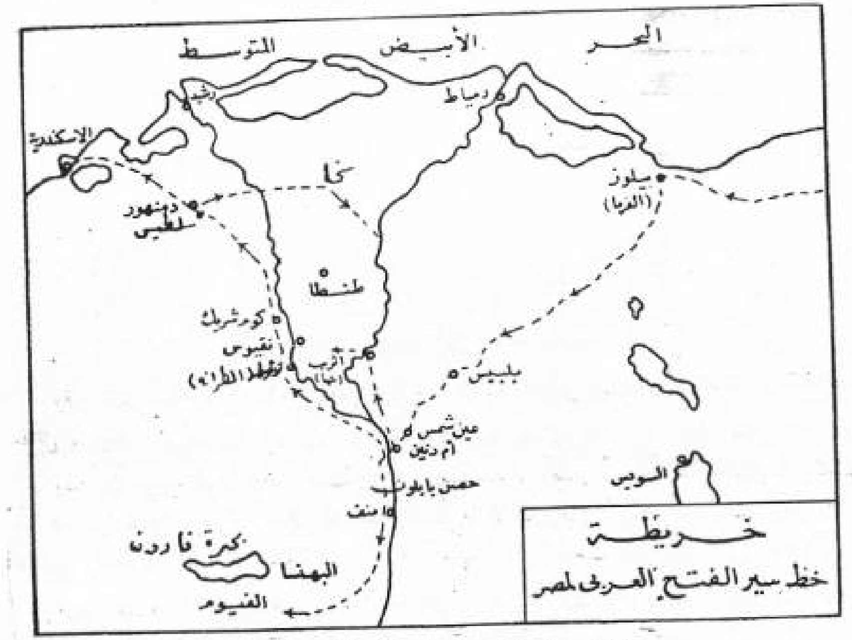
وبلغ الفرما (بيلوز)[١] فى يناير سنة ٦٤٠م ، وكانت بلدة محصنة ، وفيها قوة من الرومان دافعت عنها ، فهزمها العرب ، وفتحوا البلدة بعد أن حاصروها نحو شهر ، وكان استيلاؤهم عليها فى أول المحرم سنة ١٩هـ ، (٢ يناير سنة ٦٤٠م)[٢] .

واقعة بلبيس
(سنة ٦٤٠م)

واستمر العرب فى زحفهم « لا يدافعون إلا بالأمر الخفيف » كتعبير ابن عبد الحكم[٣] ،

(١) شرقى بورسعيد الحالية ، والفرما هو الاسم العربى .
(٢) فى التوفيقات الإلهامية للواء محمد مختار باشا أن أول المحرم سنة ١٩هـ يوافق ٢ يناير سنة ٦٤٠م .
(٣) ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ص ٥٤ .

حتى بلغوا بلبيس ، وكانت بها حامية كبيرة من الرومان يقودهم أريطيون Ariteon[١] ، فقاوموا العرب مقاومة شديدة ، وظلت ممتنعة نحو شهر ، وحدثت فيها واقعة كان النصر فيها حليف العرب ، وهزم فيها الرومان وكان ذلك سنة ٦٤٠م (١٩هـ) .



خريطة الفتح العربى لمصر (سنة ٦٤٠ - ٦٤٢م)

معركة أم دنين

ثم هبطوا قرية أم دنين على شاطئ النيل[٢] ، وكانت بلدة محصنة وتقع فى الشمال من حصن بابلون ، وهو الحصن المنيع للرومان ، ويجاورها مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة .

فقاوم الرومان العرب فى أم دنين قدر ما استطاعوا ، ولكن العرب هزموهم ، واستولوا على أم دنين بعد مقتلة كبيرة .

(١) يسميه المؤرخون العرب الأرطبون . وكان قائدًا للرومان فى بيت المقدس وفر منها إلى مصر قبل تسليمها للعرب .
(٢) موقعها الآن فى حى الأزبكية بالقاهرة فى المكان الذى به جامع المقس المعروف بجامع أولاد عنان . وأم دنين هى التى صارت المقس فى عهد الفاطميين (انظر موقعها على الخريطة ص ٢٦٠) .

وتراجع الرومان إلى حصن بابلون يمتنعون به ، وكان موقعه شرقى النيل وتصل إليه السفن .

وأدرك عمرو بن العاص من مقاومة الرومان فى أم دنين أن فتح حصن بابلون ليس أمرًا يسيرًا ، ولا يكفيه الجيش الذى تحت قيادته ، فأرسل إلى عمر بن الخطاب يستعجل المدد[1] ، قبل فتح أم دنين .

فتح الفيوم

وفى انتظار المدد ، أرسل يفتح بعض قرى إقليم الفيوم (مايو سنة ٦٤٠م) .

ولما تم لعمرو بن العاص فتح هذه القرى عمد إلى حصار حصن بابلون ، فرآه ممتنعا عليه لكثرة تحصيناته ، وعلو أسواره ووفرة من فيه من جنود الرومان .

وصول المدد إلى العرب

وفى شهر يونية سنة ٦٤٠م ، وصل أول مدد أرسله عمر بن الخطاب ، وعدته أربعة آلاف مقاتل .

ولما أبطأ فتح حصن بابلون كتب إلى عمر يستمده ، فأمده بأربعة آلاف آخرين ، وكتب إليه عمر بن الخطاب يقول : « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد »[2] .

فصار عدة جيش العرب اثنى عشر ألفا ، وقال له عمر فى كتابه : « اعلم أن معك اثنى عشر ألفًا ، ولن تُغلب اثنا عشر ألفا من قلّة » .

وكان الزبير بن العوام هو الأمير على هذا المدد ، وهو ابن عمة الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه ، وأحد رجال الشورى الستة .

واقعة عين شمس
(يولية سنة ٦٤٠م)

بعد أن تلقى عمرو بن العاص المدد ، اتخذ عين شمس وقتًا ما مركزًا لقيادته ، وشرع يستعد لمعركة عين شمس ، وكان جيش الرومان بقيادة تيودور القائد العام .

فعول تيودور على أن يسير بعشرين ألفًا من جنوده ، ليزحزح بهم جند العرب عن عين شمس .

(١) ابن عبد الحكم – فتوح مصر وأخبارها – ص ٥٤ .

(٢) ابن عبد الحكم – فتوح مصر وأخبارها ص ٥٦ . وفى رواية أخرى أن الرابع خارجة بن حذافة .

فارتاح عمرو لهذه الحركة ، إذ رأى فيها فرصة سانحة ليشتبك بالرومان فى العراء ، بخلاف ما إذا كانوا ممتنعين فى حصن بابلون .

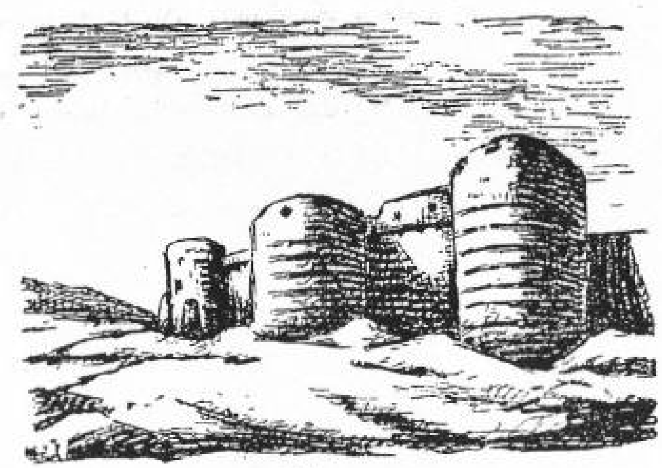
فزحف تيودور على عين شمس ، فوضع عمرو كمينًا فى موضع خفى من الجبل الأحمر (شرقى العباسية الآن) ، وآخر على النيل ، قريبًا من أم دنين ، ولاقى تيودور بالفريق الأكبر من الجيش ، ونشب القتال (يولية سنة ٦٤٠م) فى منتصف المسافة بين الجيشين تقريبا (فى حى العباسية الآن) ، وأيقن الفريقان أن على النجاح فى هذا الميدان يتوقف مصير مصر .

فحمى وطيس القتال ، ولما بلغ أشده خرجت قوة من العرب من الجبل ، وانقضّت كالصاعقة على الرومان ، فاختل نظامهم ، وتراجعوا إلى الغرب نحو أم دنين ، فقابلتهم قوة أخرى من العرب ، وأصبحوا بذلك محصورين بين جيوش العرب الثلاثة التى سحقتهم سحقًا ، فلم يبق منهم سوى جزء يسير سار بعضهم إلى النيل ، وذهب البعض الآخر إلى حصن بابلون .

حصار حصن بابلون واقتحامه
(سنة ٦٤٠ – ٦٤١م)

كان هذا الحصن قديما ، بناه الفرس بعد غزو مصر ، وسموه باسم عاصمة دولتهم (بابلون) ، ثم جدّده (تراجان) إمبراطور الرومان ، فأقام أسواره الضخمة ، وزاد فى بنائه .

وموقعه شرقى النيل (بمصر القديمة – قصر الشمع الآن) ، وكان من أمنع حصون الرومان ، وفيه جيش قوى منهم .



حصن بابلون
الذى حاصره العرب سبعة أشهر وفتحوه فى أبريل سنة ٦٤١م

بدأ عمرو بن العاص فى حصار حصن بابلون منذ سبتمبر سنة ٦٤٠م ، فى زمن فيضان النيل ، وأخذ يضيق عليه الخناق ، وكان قيرس (المقوقس) نائب هرقل بداخل الحصن مع الحامية الرومانية ، وقائد الحصن يسميه مؤرخو العرب (الأعيرج)[١] ، ولعله تحريف عن اسم (جورج) ، وعدد الحامية الرومانية من خمسة آلاف إلى ستة آلاف مقاتل ، ولديه معدات القتال متوافرة .

وكان تيودور Theodore القائد العام للرومان داخل الحصن أيضًا ، يتولى القيادة العليا للدفاع عنه .

المفاوضات بين عمرو بن العاص والمقوقس

كان قيرس (المقوقس) برغم أنه من الرومان ، يميل إلى الصلح مع العرب ، لشعوره بضعف مركز قومه (الرومان) ، وما رآه من توالى هزائمهم أمام العرب فى الشام وفلسطين ، فخرج ليلة من الحصن وذهب إلى جزيرة الروضة .

وأرسل إلى عمرو وفدًا برئاسة أسقف بابلون ، لمقابلته واستطلاع رأيه فى الصلح .

فقابل الرسل عمرا وقالوا له : « إنكم قوم قد ولجتم بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم (الرومان) ، وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ورجائكم[٢] » .

فلم يبعث عمرو بجواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال العرب ، إذ أبيح لهم أن يسيروا فى المعسكر العربى ويروا ما فيه .

ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال فيه : « ليس بينى وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث : إما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »[٣] .

ففرح المقوقس (قيرس) لعودة الرسل سالمين ، وسألهم عما شاهدوه فى العرب فقالوا : « رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى

(١) ابن عبد الحكم . المرجع السابق ص ٥٣ .
(٢) ابن عبد الحكم – المرجع السابق – ص ٥٩ .
(٣) ابن عبد الحكم – المرجع السابق – ص ٦٠ .

الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم »[١] .

وقد رأى قيرس (المقوقس) خطورة الموقف إذا استؤنف القتال ، فإن العرب وهذه حالهم من الإيمان والشجاعة لا سبيل إلى ردهم عن قصدهم .

فمالت نفسه إلى الصلح ، ورأى العرب تحصرهم حينذاك مياه النيل قبل أن يهبط الفيضان ، ثم إذا هبط يتحسن موقفهم ويستطيعون السير أينما شاءوا .

فأرسل إلى عمرو أن يبعث إليه جماعة من ذوى الرأى ليتفاوض معهم على ما عساه أن يكون صلحًا .

فبعث عمرو بعشرة رجال أحدهم (عبادة بن الصامت) ، وكان أسود شديد السواد ، وأمره أن يكون المتكلم فى الوفد ، وألا يجيب الرومان إلى شىء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .

فركب العرب السفن إلى جزيرة الروضة ، فلما دخل عبادة بن الصامت على قيرس (المقوقس) ، هابه لسواده وفرط طوله وقال : « نحّوا عنى هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمنى » .

فقال العرب جميعًا : « إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا ، وهو سيّدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه . وقد أمّره الأمير . وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله » .

فدهش المقوقس من هذا الجواب ، لأن الرومان قد اعتادوا على التفرقة العنصرية ، ودهش من أن العرب لا يفرقون بين الأسود والأبيض .

فتكلم عبادة وقال : « إن فيمن خلفت من أصحاب ألف رجل أسود ، كلهم أشد سوادًا منى ، وإنى بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعًا ، وكذلك أصحابى ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ، ولا طلب للاستكثار منها لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدّ بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، وإنما النعيم والرخاء فى الآخرة » .

فقال المقوقس لعبادة بن الصامت : « أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ،

(١) ابن عبد الحكم – المرجع السابق – ص ٦٠ .

ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به »[1] .

فقال عبادة : « يا هذا لا تغرنَّ نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم : فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ، ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، وإن كان ما قلتم حقًا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالكم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا أقدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما من شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين ، إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بناء ، وأنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2] . وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحدناهم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وإنما همنا ما أمامنا ، فانظر الذى تريده فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال . فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك بالباطل ، بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا » .

فلما وصل الحوار إلى هذا الحد ، أراد قيرس (المقوقس) أن يستنزل عبادة بن الصامت عن شىء أو يجعله يقبل شيئًا مما عرضه عليه ، فلم يقدر على شىء ، بل وقع قوله على آذان صماء لما يقول . وقال عبادة يرد عليه بعد أن نفد صبره ورفع يديه إلى السماء : « لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم » .

الهدنة

فاجتمع المقوقس بأصحابه . فاختلفوا رأيا ، وكان رأى المقوقس الإذعان وقبول الجزية ، وكان الجند يرون المقاومة وعلى رأسهم جورج (الأعيرج) ،

ثم طلب الرومان أن يهادنهم العرب شهرا ليردوا فيه رأيهم ، فأجابهم عمرو جوابًا قاطعًا إذ قال لهم إنه لن يمهلهم أكثر من ثلاثة أيام .

(1) ابن عبد الحكم – المرجع السابق – ص ٦١ .

(2) سورة البقرة الآية (٢٤٩) .

استئناف القتال

فما انتهت أيام الهدنة الثلاثة حتى أخذ الرومان فى الحصن يستعدون للحرب ، وخرجوا إلى العرب فوق أسوار الحصن ، فأخذوا جند العرب على غرة ، غير أن العرب قابلوا الحرب بالحرب ووقع قتال شديد بين الرومان والعرب ارتد الرومان على أثره إلى الحصن .

فعاود المقوقس الحديث عن الصلح ، ورأى أن يعيد الاتصال بعمرو بن العاص فى شأنه ، فعرض عليه أن يختار الجزية ، على أن يبعث المقوقس برأيه إلى الإمبراطور هرقل بالقسطنطينية (استانبول) ، وأن يبقى الجنود من الطرفين فى مواقعهم حتى يرد الرد من هرقل .

وكانت هذه هدنة قد يطول أمدها .

فسار المقوقس بطريق النيل إلى الإسكندرية ، ومن هناك بعث برأيه إلى هرقل .

فرفض هرقل الصلح ، وأرسل يستدعى المقوقس ، ولعل ذلك كان فى منتصف نوفمبر سنة ٦٤٠م .

سار المقوقس إلى القسطنطينية (استانبول) ،وأصر على رأيه فى وجوب الصلح مع العرب ، فغضب عليه هرقل ، ونفاه من مصر طريدًا .

وجاء الرد إلى مصر قرب نهاية سنة ٦٤٠م ، وانتهت الهدنة ، وعاد القتال بين العرب والرومان ، وهبطت مياه الفيضان وغاض الماء الذى كان يملأ الخندق المحيط بالحصن ، فضعف مركز الرومان ، واستمر القتال بينهم وبين العرب .

وفاة هرقل
(فبراير سنة ٦٤١م)

وكان حُماة الحصن ينتظرون أن يصلهم المدد من القسطنطينية ، فلم يجدوا أثرًا له .

ورأوا أن القدر قد خيب آمالهم ، إذ بلغهم أثناء الحصار نبأة وفاة هرقل إمبراطور الرومان ، فخارت لذلك نفوسهم .

وكان وفاة هرقل فى فبراير سنة ٦٤١م . (٢٠ هـ) ، أى قبل فتح حصن بابلون بشهرين .

فتح الحصن عنوة
(إبريل سنة ٦٤١م)

وبقى الحصن بعد ذلك شهرًا لا يسلّم ، فلما أبطأ الفتح ، تقدم الزبير بن العوام ، ووهب الله نفسه ، واعتزم أن يقتحم الحصن اقتحامًا .

فجاء إلى الحصن تحت جنح الليل ومعه جماعة من خيرة رجاله الفدائيين ، وكان الخندق

قد جف ماؤه وطم جزء منه ، فاتفق معهم على أنه سيضع سلما على السور ويصعد عليه إلى أعلى الحصن ، وواعدهم أن يتبعوه إذا سمعوا تكبيره .

ولما وصل البطل العربى إلى أعلى السور أخذ يكبر وسيفه فى يده .

وتحامل الرومان عليه من داخل الحصن ، غير أن السهام أمطرتهم من العرب من الخارج .

واستطاع أصحاب الزبير أن يصلوا فوق السلم إلى الحصن ويطئوا أسواره بأقدامهم ، وتحامل الناس على السلم ، فنهاهم عمرو بن العاص خوفًا من أن ينكسر[1] .

فعندئذ أدرك المقوقس أن العرب قد اقتحموا الحصن ، ولم يعد من سبيل إلى ردّهم عنه ، فعرض على عمرو أن يسلم الحصن على أن يأمن من كانوا به من الجند على أنفسهم .

فقبل عمرو هذا العرض ، على أن يخرج الرومان من الحصن فى ثلاثة أيام ، ويتركوا ما به من الذخائر وآلات الحرب .

واستولى العرب على الحصن وما فيه فى أبريل سنة ٦٤١م ، (ربيع الثانى سنة ٢٠ هـ) .

فكأنه استمر يقاوم الحصار سبعة أشهر .

فتح سقوط حصن بابلون أمام العرب طريق الإسكندرية ، وطريق الوجه القبلى .

فبدءوا بالزحف على الإسكندرية عاصمة البلاد وقتئذ ، وسار عمر وبجيشه على الشاطئ الغربى للنيل .

فى طريق الزحف على الإسكندرية

كانت أول مدينة فتحها العرب فى زحفهم على الإسكندرية هى ترنوط[2] بالشاطئ الغربى للنيل ، وأول ما التقوا بالرومان فيها ، فهزمهم العرب .

ثم استأنفو السير إلى نقيوس[3] ، وكانت حصنا منيعا ، ففتحوها (مايو سنة ٦٤١م) .

ثم عاد عمرو إلى الشاطئ الغربى للنيل ، وتابع الزحف إلى الإسكندرية .

وقاومهم الرومان فى كوم شريك ، فهزمهم العرب ، وقاوموهم أيضًا فى (سلطيس) جنوبى دمنهور فهزموهم .

---

(١) ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ص ٨٥ .

(٢) واسمها أيضًا (الطرانة) ، مركز كوم حمادة بحيرة (انظر موقعها على الخريطة ص ٢٦٠) .

(٣) فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا (جـ ٨ ص ١٥) أنها إبشادى الحالية (مركز تلا) وفى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد بك رمزى (البلاد المندرسة) ص ٤٦٤ أنها زالت وحل محلها الكوم الأثرى الكائن بالجهة البحرية من (زاوية رزين) بمركز منوف (انظر موقعها على الخريطة ص ٢٦٠) .

ثم صمد لهم تيودور فى الكريون ، وكانت آخر سلسلة من الحصون التى بين بابلون والإسكندرية وجرت ، بها موقعة كبيرة ارتد على أثرها الرومان إلى الإسكندرية .

وبعد الاستيلاء على الكريون انفتح الطريق إلى الإسكندرية .

حصار الإسكندرية وفتحها

(٦٤١ - ٦٤٢م)

بلغ العرب الإسكندرية ، وكانت قوة الرومان فيها أكبر من قوتهم فى حصن بابلون .

هذا إلى ما كانت عليه الإسكندرية من المنعة ، وأسوارها من الضخامة ، وحصونها وأبراجها من القوة .

وكان يساعدهم فيها أن عددهم كان وفيرًا ، وكانوا على اتصال بالبحر ، بخلاف ما كان عليه حماة حصن بابلون .

وكان بها من الجند نحو خمسين ألفًا[1] ، يقودهم الجنرال تيودور القائد العام .

بدأ حصار الإسكندرية فى يونية سنة ٦٤١م ، وأخذ عمرو حين قدم الإسكندرية يحمل على أسوارها ، فلم ينل منها منالا .

ورمت مجانيق الرومان من فوق الأسوار على جنده بوابل من الحجارة الضخمة ، فارتدوا مبتعدين عن مدى رميها ، وانتظروا حتى يخرج إليهم الرومان من خلف الأسوار ، فلم يخرجوا .

ولم يكن الحصار محكما على الإسكندرية كما كان الشأن فى حصن بابلون ، فإن البحر كان يمدها بالحرية والمئونة .

ولم يكن للعرب سفن تهاجم الإسكندرية من جهة البحر .

واستمر حصار الإسكندرية أربعة عشر شهرًا .

وفى سيتمبر سنة ٦٤١م ، عاد المقوقس إلى الإسكندرية ، وكان الأمر بنفيه من مصر صار كأن لم يكن بعد وفاة هرقل .

واستمسك برأيه السابق فى أن الخير فى مصالحة العرب .

تسليم الإسكندرية

(نوفمبر سنة ٦٤١م)

وفى نوفمبر سنة ٦٤١م ، عقد الصلح بين عمرو والمقوقس على تسليم المدينة ، ومن شروطه

---

(١) الفريد بتلر : فتح العرب لمصر ص ٢٥٥ .

عقد هدنة نحو أحد عشر شهرًا ، تنتهى فى شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وأن يبقى العرب فى مواقعهم مدة هذه الهدنة ، ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية ، وأن يكف الرومان عن القتال ، وأن يجلو الجنود الرومان عن الإسكندرية بأسلحتهم ومتاعهم وأموالهم(١) ، وكان جلاء آخر فوج منهم فى سبتمبر سنة ٦٤٢ .

وبفتح الإسكندرية وجلاء الرومان عنها دانت البلاد للفتح العربى وأذعن الصعيد للعرب دون قتال .

فتح بعض المدن والقرى

منذ واقعة عين شمس وجّه عمرو بن العاص كتائب من الجند لفتح البلاد المجاورة ففتحت اتريب (بنها) ومنوف .

وفى أثناء الزحف على الإسكندرية ، وحصارها فصلت كتائب أخرى وسارت إلى سخا وفتحتها .

ووجه عمرو بن العاص كتائب أخرى إلى إخناو بلهيب والبرلس ودمياط وتانيس (صان الحجر) وتونه ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير ، فأخضعوها ، ولم تحدث مقاومات فى معظم هذه البلاد إلا من الحاميات الرومانية .

وكان على دمياط أمير اسمه (الهاموك) ، يقال : إنه من أخوال المقوقس ، استعد لقتال العرب ، فلما جاءه المقداد بن الأسود قاتله وقتل ابنه ، فانهزم وعاد إلى دمياط ، واستشار قومه فنصحه رجل حكيم بمصالحة العرب ، فلم يأخذ بنصيحته .

وسميت بلدة شطا باسم شطا بن الهاموك (وهو ابن آخر للهاموك) ، انضم إلى العرب وعاونهم ، وقتل شهيدًا فى معركة دارت لفتح تانيس .

واستمرت المقاومة فى المنزلة إلى ما بعد فتح الإسكندرية .

فتح برقة

(سنة ٦٤٣م)

بعد أن استقر مركز عمرو بن العاص فى الإسكندرية ، وجلا الرومان عنها زحف على برقة سنة ٦٤٣م (٢٢ هـ) وكانت من بلاد الدولة الرومانية ، وكانت تسمى بنطابوليس Pentapolis ومن مدنها الشهيرة (بنى غازى) ، وصالح أهلها على الجزية .

(١) توفى المقوقس فى مارس سنة ٦٤٢ .

وفتح طرابلس فى ذات السنة ، ثم استأذن الخليفة عمر بن الخطاب أن يستمر فى زحفه غربا . فنهاه عن ذلك ، وأمره بالوقف عند هذا الحد .

محاولة الرومان استرداد الإسكندرية وفشلهم

(سنة ٦٤٥م)

عاودت الرومان المطامع فى استرداد الإسكندرية ، إذ قد نمى إلى قسطانز إمبراطور الرومان أن قوة العرب قد تضعضعت فيها .

فأنفذ عمارة بحرية كبيرة قصدت الإسكندرية ، وكانت سيادة البحر لاتزال ملكا للرومان .

فنزلت الحملة إلى الإسكندرية سنة ٦٤٥م (٢٥ هـ) ، يقودها الجنرال منويل .

ولكن عمرو بن العاص هزم الرومان ،وفتح المدينة مرة أخرى ، وهدم أسوارها .

مسألة حريق مكتبة الإسكندرية ونفيه عن العرب

لاكت ألسنة بعض المؤلفين الإفرنج مسألة حريق مكتبة الإسكندرية ، إذ زعموا أنها أحرقت فى أوائل الفتح العربى ، ونسبوا إلى عمر بن الخطاب أنه أمر عمرو بن العاص بإحراقها ، فأحرقها .

وتلك لعمرى تهمة لا تثبت أمام التحقيق العلمى ، ولا يلبث أو يبين بطلانها بقليل من البحث المجرد عن الهوى .

أول ما وردت هذه القصة فى كتاب لأبى الحسن القفطى عن (تاريخ الحكماء) ، ونقلها عنه أبو الفرج بن العبرى فى كتابه (مختصر تاريخ الدول) ، وكلاهما عاش فى القرن الثالث عشر للميلاد أى بعد أن مضى أكثر من خمسة قرون على الفتح العربى لمصر ووقائعه .

فانقضاء هذه القرون الطويلة قبل اختراع هذه القصة يجعلها ولاشك بعيدة عن الثقة ، إذ لو كان لها ظل من الحق لورد ذكرها على لسان شاهد عيان من المؤرخين المعاصرين للفتح العربى ، أو ممن نقلوا عنهم فى أعقاب هذا الفتح مباشرة .

وخلاصة هذه القصة كما أوردها أبو الفرج بن العبرى أنه كان فى وقت الفتح العربى رجل اسمه (حنا النحوى) ، من أهل الإسكندرية ومن قسوس الأقباط ، وأخرج من عمله لما نسب إليه من زيغ فى عقيدته ، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة ، وأن هذا الرجل أدرك الفتح العربى للإسكندرية ، واتصل بعمرو بن العاص ، فلقى عنده حظة ، فلما آنس الرجل من عمرو

هذا الإقبال قال له يومًا : « لقد رأيت المدينة كلها ، وختمت على ما فيها من التحف ، ولست أطلب إليك شيئًا مما تنتفع به بل شيئًا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » .

فقال له عمرو : « ماذا تعنى بقولك » . فقال : « أعنى بقولى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة » فقال له عمرو : « إن ذلك أمر ليس لى أن أقطع فيه برأى دون إذن الخليفة » .

ثم أرسل كتابا إلى عمر بن الخطاب يسأله رأيه ، فأجابه عمر قائلا : « وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا إرب لنا فيه ، وأحرقها » .

فلما جاء هذا الكتاب إلى عمرو بن العاص أمر بالكتب فوزعها على حمامات الإسكندرية فأحرقوها فى ستة أشهر .

ثم قال المؤلف بعد أن روى هذه القصة : « فاسمع وتعجب » .

ولم يذكر أبو الحسن ، ولا أبو الفرج المصدر الذى أخذا عنه هذه القصة ، مع انقضاء أكثر من خمسة قرون على فتح الإسكندرية .

ويمنع من تصديقها أنها لم ترد إطلاقا فى أى كتاب وضع فى خلال هذه القرون الخمسة .

ولو أنها وقعت لما فات أصحابها أن يدونوها ، وولد حوالى زمن الفتح العربى مثل (حنا النقيوسى) ، المؤرخ المصرى ، الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السابع للميلاد ، ووضع كتابه بعد الفتح العربى بنحو خمسين عاما ، وسعيد بن البطريق (أوتيخوس) ، الذى عاش فى القرن التاسع ، وتحدث عن الفتح العربى ، وكلاهما مسيحى .

ولم يشر إليه قدماء المؤرخين ،كابن عبد الحكم والبلاذرى ، والطبرى والكندى ، واليعقوبى ، على أهمية هذا الأمر وخطره .

على أن المؤرخين السابقين على فتح العربى بعدة قرون ،يذكرون أن حريق مكتبة الإسكندرية حدث فى سنة ٤٨ قبل الميلاد ، حين حضر (يوليوس قيصر) فى ذلك العام إلى الإسكندرية .

فقد ذكر المؤرخ اليونانى بلوتارك Plutarque فى كتابه عن (قيصر) أن يوليوس قيصر ، حين بوغت بمهاجمته فى الإسكندرية ، وأحرق أسطول البطالمة فى الميناء الشرقى المجاور للحىّ الذى كانت فيه المكتبة ، فامتدت النيران إلى ذلك الحى ، والتهمت المكتبة بما فيها من الكتب .

وأيده فى ذلك سينيك Senéque وديوكاسيوس Dio Cassius .

أى أن المكتبة أحرقت قبل الفتح العربى بستة قرون .

وفى ذلك كله يقول المؤرخ الإنجليزى ألفريد بتلر : « ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجملنا

فيمايلى أدلة حجتنا ، فإن قصدنا أن نبين حقيقة أمر مكتبة الإسكندرية ، ومقدار نصيب إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب ، وقد بينا فيما سلف الأمور الآتية :

١ – أن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التى نذكرها .

٢ – أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها ، فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

٣ – أن الرجل الذى تذكر القصة أنه أكبر عامل فيها (حنا النحوى) مات قبل غزو العرب بزمن طويل .

٤ – أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين : الأولى مكتبة المتحف (دار العلم – الموزيون) ، وهذه ضاعت فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر ، وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل الفتح العربى ، وأما الثانية وهى مكتبة السرابيوم فإما أن تكون قد نقلت من المعبد عام ٣٩١م ، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت ، فتكون على أى حال قد اختفت قبل الفتح العربى بقرنين ونصف قرن .

٥ – أن كتّاب القرنين الخامس والسادس للميلاد ، لا يذكرون شيئًا عن وجودها وكذلك كتّاب أوائل القرن السابع .

٦ – أن هذه المكتبة لو كانت لاتزال باقية عندما عقد قيرس (المقوقس) صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية ، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب ، وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب فى المدينة ، وقدر ذلك أحد عشر شهرا .

٧ – لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت ،أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح العربى مثل (حنا النقيوسى) ، ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفا عنه .

« ولا يمكن أن يبقى شك فى الأمر بعد ذلك ، فإن الأدلة قاطعة وهى تبرر ما ذهب إليه (رينودو) من الشك فى قصة أبى الفرج ، وما ذهب إليه (جبون) من عدم تصديقها ، ولابد لنا أن نقول إن رواية أبى الفرج لا تعدو أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ، ليس لها أساس فى التاريخ[1] .

وقال بتلر فى هامش ص ٣٧٠ : « لم نقصد فى هذا الأمر سوى إثبات الحقيقة ، ولم نقصد الدفاع عن العرب ، وليس الدفاع بضرورى ، ولو كان ضروريًا لما تعذر أن نجد شيئًا يليق الاعتذار به عن ذلك ، فلاشك أن العرب عُنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع

(١) ألفريد بتلر – فتح العرب لمصر – تعريب محمد فريد أبو حديد ص ٣٦٨ .

في أيديهم، وعُنوا بحفظها وترجموا منها في كثير من الأحوال، وفي الحق إنهم أقاموا مثلا يجدر بفاتحي هذه الأيام (يريد المستعمرين الأوروبيين) أن يحذوا حذوه، فقد نقل سديّو Sedillot في كتابه (تاريخ العرب) أن الفرنسيين عندما فتحوا مدينة (قسطنطينة)، في شمال إفريقية أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم، كأنهم من صميم الهمج، ووجد الإنجليز عند فتح مدينة (مجدلة) مكتبة كبرى من الكتب الحبشية، فحملوها معهم، ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها في كنيسة على جانب الطريق، إذ وجدوا في حملها عناء لم يقووا على احتماله، ولقد كان اختيارهم للكتب التي أبقوا عليها خبطا وسيرا مع الصدفة، ولكن قيمة الكتب التي أنقذت وحفظت تدلنا على فداحة الخسارة التي لحقت العلم بضياع ما ترك منها، فقد كانت النسخة الخطية من كتاب (حنا النقيوسي)، التي حفظت بالمتحف البريطاني إحدى تلك الكنوز التي أنقذت بهذه الطريقة الاتفاقية ».

هذا . ومن العلماء المحققين الذين نفوا هذه الفرية عن العرب جستاف لبون، وارنست رنان، وجبون، ورينوود، وسديو، ويقول سديو : إن هذه القصة وضعها كتاب معادون للعرب والإسلام إبان الحروب الصليبية .

عمرو بن العاص يتولى شئون مصر

بعد أن تمّ لعمرو بن العاص فتح الإسكندرية تحول إلى الفسطاط التي أنشئت بعد الفتح، ومن هناك تولى شئون مصر بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان بدء ولايته سنة ٢٩هـ قبل فتح الإسكندرية .

فكان خير وال لشئونها، وعُرف بالحكمة والعدل ولين الجانب وإطلاقه الحرية الدينية للمواطنين، والسعي في إقامة أعمال العمران التي عادت على البلاد بالخير، وأحبه أهل مصر لما رأوا فيه احترام حرية العقيدة الدينية وتخفيف وطأة الضرائب ومن السماحة بعد الغلظة التي كانوا يشهدونها من الولاة الرومان .

وظل يتولى شئون مصر حتى ولي الخلافة عثمان بن عفان . سنة ٢٤هـ فعزله سنة ٢٦هـ، وولى بدله عبدالله بن سعد بن أبي سرح .

وكان ولاية عمرو بن العاص على مصر نحو خمس سنوات .

ثم وليها في زمن معاوية .

إعادة البطريق بنيامين

ومن أعماله التي أكسبته حب المواطنين، تأمينه البطريق (بنيامين) ،فقد كتب أمانًا له ورده

إلى كرسي البطريركي، وأعاد له سلطته بوصفه بطريقا للأقباط بعد أن ظل مبعدًا عن منصبه أكثر من عشر سنوات، ودخل بنيامين الإسكندرية دخول الظافر .

ولقي من عمرو الحفاوة والتقدير حتى قال عنه لأصحابه : « إني لم أر يوما في بلد من البلاد التي فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين » .

وعادت لبنيامين زعامته الدينية بين الأقباط .

قال بتلر في هذا الصدد :

« وقد كان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكندرية وأبنائها رنة طرب في قلوب أهل مصر جميعًا ،فعاد جل العامة إلى زعيمهم القديم والفرح يملؤهم ،ونادى البطريق (بنيامين) المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة (الملكاني) أن ارجعوا إلى سابق عهدكم وملتكم، فعاد بعضهم يذرفون الدمع السخين ندمًا ولكن قيل إن واحدًا منهم أبى يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن تعرف عنه الردة الأولى، ولعل الكثيرين كانوا مثله في هذا، ومهما يكن من الأمر فقد نما أمر الأقباط وزاد أتباع ملتهم، وكان هم بنيامين في أول الأمر أن يقدح فكره ليلاً ونهارًا في أمر رعيته، وإرجاع من ضل منهم في أيام هرقل »(١) .

وظل في منصب البطريق حتى وفاته سنة ٦٦٢

وصف مصر
بقلم عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص من أبلغ كتّاب العرب، وقد وصف مصر في كتاب بعث به إلى عمر بن الخطاب، إذ طلب الخليفة ذلك منه، قال : « ورد إليّ كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تُربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات، ميمون الروحات، تجري فيه الزيادة والنقصان، كجري الشمس والقمر له أوان، تمده عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا عجّ عجاجه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في خفاف القوارب، وصغار المراكب، فإذا تكامل في زيادته، نكص على عقبيه، كأول ما بدأ في جريته، وطمى في ذروته، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه، يبذرون الحب ،ويرجون الثمار من الرب ،حتى إذا أشرق وأشرف، وسقاه من فوقه الندى، وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، وإذا هي زبرجدة خضراء، فتعالى الله الفعال لما يشاء، والذي يصلح هذه البلاد ،

(١) ألفريد بتلر . فتح العرب لمصر ص ٣٨٥ .

وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، أن لا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، ولا يُستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل » .

عمرو بن العاص
يؤيد تحديد النسل

كان عمرو بن العاص بعيد النظر ، واسع الأفق ، يعالج المسائل الاجتماعية بحكمة وحصافة ، فمن خطبة له يوم الجمعة يحث الناس على القصد والاعتدال ، ويرغبهم عن كثرة العيال ، ويؤيد تحديد النسل ، قال :

« يا معشر الناس ، إياكم وخلالا أربعًا ، فإنها تدعو إلى النّصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى الذلة بعد العزة ، إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال »[1] .

انشاء الفسطاط عاصمة مصر

أراد عمرو بن العاص أن يسكن الإسكندرية ، ويتخذها عاصمة البلاد ، إذ رأى أن بيوتها مشيدة ، وأنها الأجدر بأن تظل الصدد : « مساكن قد كفيناها » .

فكتب إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه فى ذلك ، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بينى وبين المسلمين ماء » . قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل ، فكتب إلى عمرو : « إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا فى صيف » .

ولم يكن للعرب قوة بحرية فى ذلك الحين ، ولذلك خشى الخليفة عمر بن الخطاب أن يحول البحر بين أجزاء الدولة العربية .

فأنشأ عمرو مدينة الفسطاط[2] فى السهل الذى يلى حصن بابلون ، بينه وبين جبل المقطم ، واتخذها عمرو بن العاص عاصمة البلاد ومقر الحكم .

وتقوم فى الضفة المقابلة للنيل ، على بعد أميال جنوبا ، مدينة (منف) العظيمة ، عاصمة مصر القديمة .

(1) ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧٣ .

(2) فى « المصباح المنير » أن كل مدينة جامعة فسطاط . وفى معجم البلدان (جـ ٦ ص ٣٨) أن الفسطاط أيضا مجمع أهل الكورة .

وكان الشروع فى تخطيط الفسطاط سنة ٢١هـ (٦٤٢م) ، بعد هزيمة الرومان فى الإسكندرية .

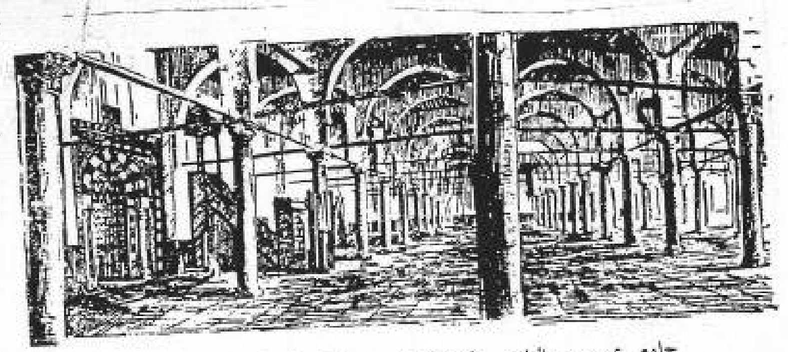
تحديد الفسطاط

حدد الأستاذ يوسف أحمد فى كتابه (الفسطاط) ، بأنها تقع فى المنطقة التى حول جامع عمرو ، والتى تمتد شرقا إلى سفح جبل المقطم ، وشمالا إلى جهة (مسجد أبو السعود) ، وغربًا حتى النيل ، وجنوبا حتى ساحل أثر النبى (وتعرف الآن بمصر القديمة) .

جامع عمرو بن العاص

شرع عمرو بن العاص فى بناء المسجد الذى عرف باسمه منذ عودته من فتح الإسكندرية . وبدأ فى بنائه سنة ٢١هـ (٦٤٢م) بعد تخطيط الفسطاط .

وكان يسمى الجامع العتيق ، أو جامع الفتح ، أو تاج الجوامع ، وهو أقدم جامع أنشئ فى مصر ويقع شمالى حصن بابلون (قصر الشمع) .



جامع عمرو بن العاص بالفسطاط (مصر القديمة) قبل إصلاحه وتوسيعه
أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ (٦٤٢م)

وكان طوله فى بداية عهده خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ذراعا (٢٩ × ١٧ مترا) ، وله ستة أبواب .

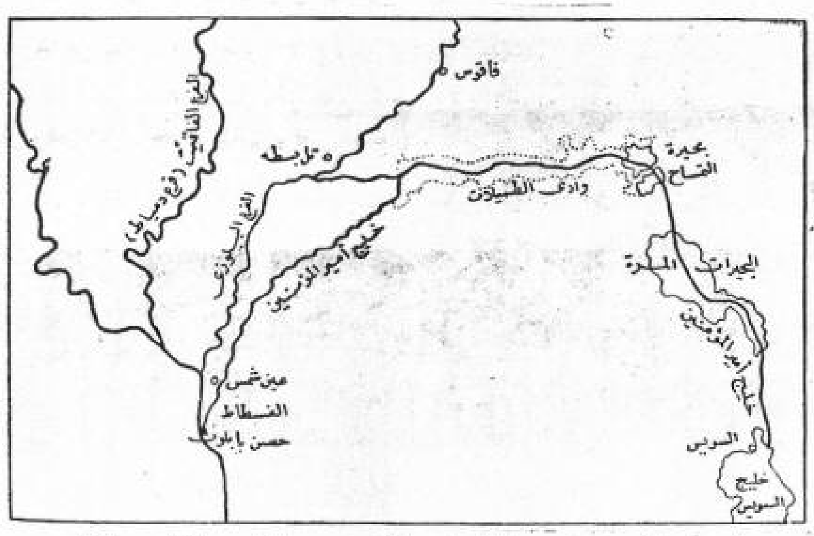
وكانت تقام فيه الصلوات ، وتلقى فيه الدروس الدينية ، فصار مع الزمن معهدا علميا ودراسيا لمختلف طبقات الشعب ، هذا إلى أنه كان مقرا لمجالس القضاء ، ومكانا لبيت المال .

خليج أمير المؤمنين

إن أهم أعمال العمران التى قام بها عمرو بن العاص بعد أن استقر له الأمر فى مصر ، إنشاء مدينة الفسطاط ، وجامع عمرو بن العاص ، وحفر خليج أمير المؤمنين[1] ، الذى يصل النيل بالبحر الأحمر ، وييسر المواصلات المائية بين مصر وثغور شبه الجزيرة العربية .

وكان هذا الخليج يبتدئ من شمال حصن بابلون ، ويمر بمدينة عين شمس ثم يسير فى وادى الطميلات حتى بحيرة التمساح ، ومن جنوب هذه البحيرة يتابع جريانه خلال البحيرات المرة حتى يبلغ السويس .

وكان إنشاء هذه القناة سنة ٢٣هـ (٦٤٣م) ويبلغ طولها نحو ستين ميلا ، وكانت تسمى من قبل خليج سنوسرت الثالث ، ثم خليج نيخاو . ثم خليج تراجان ، ثم ردمت على توالى السنين ، واحتفرها عمرو بن العاص (انظر الخريطة ص ٢٨٤) .



خليج أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) . احتفره عمرو بن العاص سنة ٢٣ هـ (٦٤٣م)

وسبب حفر خليج أمير المؤمنين ما نقله المقريزى عن ابن عبد الحكم ، أن أهل (المدينة) أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة[2] .

---

(١) الخليج لغة هو القناة أو الترعة .

(٢) عام الرمادة سنة ١٨ هـ (٦٣٩ – ٦٤٠ م) وسمى الرمادة لأن الريح كانت تسفى ترابا كالرماد ، وأصاب الناس بالحجاز قحط عظيم .

فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يقول : « أما بعد فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك من أهلك ، أن أهلك أنا ومن معى . فياغوثاه ثم ياغوثاه » . فكتب إليه عمرو بن العاص يقول : « يا لبيك ثم يا لبيك . قد بعثت إليك بعير (قافلة) أولها عندك وآخرها عندى » .

وجاء عمرو إلى حيث قابل عمر بن الخطاب ، بعد أن وصلت العير إلى الحجاز ، ووسع بها الخليفة على الناس ، فاقترح عليه الخليفة أن يحفر قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر لتيسير نقل المئونة والتجارة إلى الحجاز .

صدع عمرو بالأمر ، فأنشأ سنة ٦٤٣م (٢٣ هـ) القناة التى سميت خليج أمير المؤمنين ، وتبدأ من الفسطاط وتسير فى نفس التخطيط الذى كان لقناة الفراعنة الأقدمين ، أى قناة سنوسرت الثالث التى عُرفت بقناة نيخاو ، ثم ردمت ، وجددها الإمبراطور الرومانى تراجان . ثم ردمت . فلم يأت الحول حتى أتم عمرو بن العاص حفر هذا الخليج .

وفاة عمرو بن العاص

استمر عمرو بن العاص على ولاية مصر ، حتى ولى الخلافة عثمان بن عفان . فعزله عنها سنة ٢٦هـ (٦٤٦م) ، وولاها عبد الله بن سعد بن أبى السرح (وهو أخو عثمان فى الرضاعة) ، وكانت ولاية عمرو بن العاص على مصر نحو خمس سنوات .

ثم تولاها ثانية فى خلافة معاوية سنة ٣٨هـ (٦٥٨م) حتى وفاته .

وتوفى فى ولايته الثانية فى نحو السبعين من عمره .

وكانت وفاته فى ديسمبر ٦٦٣م (٤٣هـ) ، فى خلافة معاوية ، ودفن بسفح المقطم ، ولم يعرف قبره على وجه التحقيق .

وقيل إنه مدفون مع عقبة بن عامر بمسجده القائم إلى اليوم .

بماذا قوبل الفتح العربى

إن أول حقيقة يجب أن نضعها نصب أعيننا فى هذا البحث أن الحرب فى الفتح العربى لم تكن موجهة ضد المصريين ، بل ضد الروم (الرومان) المغتصبين لمصر .

والحقيقة الثانية أن العرب لم يسيئوا إلى المصريين قط .

وقد تكون معاملة العرب الحسنة للمصريين راجعة إلى أنهم كانوا فى ذاتهم أهل مروءة ونجدة ، وخاصة حين هذّب الإسلام نفوسهم .

هذا إلى ما اتصف به عمرو بن العاص من حبه للعدل والرفق بالأهلين ، وما كان يوصيه به عمر بن الخطاب من حسن معاملتهم ، اعتبر ذلك فى الكتاب الذى بعث به إليه وقال فيه :

« واعلم يا عمرو أن الله يراك ويرى عملك فإنه قال تبارك وتعالى فى كتابه : ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾[1] يريد أن يقتدى به ، وإن معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله ﷺ بهم وأوصى بالقبط فقال : « استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا »[2] ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم . وقد قال ﷺ : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » ، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصمًا ، فإن من خاصمه خصمه ، والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الأمة ، وآنست من نفسى ضعفًا وانتشرت رعيتى ورقّ عظمى ، فأسأل الله أن يقبضنى إليه غير مفرط ، والله إنى لأخشى لو مات جملٌ بأقصى عملك ضياعا أن أسأل عنه يوم القيامة » .

ولقد رأى المصريون من إنسانية العرب ، وتسامحهم ما جعلهم يثقون بهم ويطمئنون إليهم ، وجاء توكيدا لقول الرسول ﷺ : إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا فإنه لهم ذمة ورحمًا »[3] .

والأمثلة على إنسانية العرب عديدة ، وقد وجد أهل العراق وفلسطين والشام مثل هذه الإنسانية .

فمن ذلك أنه فى أوائل الفتح العربى حين فتح عمرو بن العاص (بلبيس) كانت بها ابنة المقوقس (أرمالوسة) ، وقد نقل المقريزى عن الواقدى أن المقوقس زوجهاالقسطنطين بن هرقل ، فأكرمها عمرو وأرسلها معززة مكرمة ومعها جميع مالها حتى التقت بأبيها .

فسر المقوقس من هذه المروءة ، وكان لها ولا ريب أثر كبير فى نفسه .

ولما أزمع عمرو الزحف على الإسكندرية بعد فتح حصن بابلون أمر الجند أن ينزعوا خيمته (الفسطاط) ، فوجد فى أعلاها عش يمامة باضت عليها فأمر عمرو أن تترك خيمة القائد مكانها ، وقال فى هذا الصدد : « لقد تحرّم هذا اليمام منا بمتحرم ، فأقروا هذا الفسطاط فى موضعه حتى يفرخ ويطير » .

وعين على الفسطاط (الخيمة) حارسًا يمنع تلك اليمامة أن يمسها أحد بأذى .

فإذا كانت الإنسانية قد بلغت هذا الحد وشملت الطير الذى اتخذ خيمة القائد العام عشًا له ، فإن هذا المثل جدير بأن يكسب العرب محبة المصريين وتقديرهم .

وبعد أن دانت البلاد للفتح العربى ، وجلا الرومان عنها رأى المصريون عمرو بن العاص يمنع الاضطهاد الدينى ، ويعلن ألا إكراه فى الدين وأن حرية العقيدة مبدأ مقدس .

---

(١) سورة الفرقان : الآية (٧٤) .

(٢) ابن عبد الحكم – فتوح مصر وأخبارها – ص ٢ .

(٣) سئل ابن إسحق : وما الرحم الذى ذكره رسول الله ﷺ فقال كانت هاجر أم إسماعيل منهم .

فأدرك المصريون الفارق الجوهرى بين عهد الرومان وعهد العرب .

كما شاهدوا عمرو بن العاص يخفف عنهم وطأة الضرائب ، ويساوى بين الناس فى أدائها ، لا فرق بين كبير وصغير ، وقوى وضعيف ، ومسلم وكتابى .

وشاهد المصريون من تسامح العرب الدينى ، ما ذكرهم بالشدائد التى لاقوها من أباطرة الرومان ، سواء منهم من كانوا على الوثنية أو بعد اعتناقهم المسيحية ، فقد اضطهدوا المصريين المسيحيين اضطهادًا دينيًا .

وحتى بعد أن اعتنقوا المسيحية اضطهدوا المصريين لإكراههم على اتباع مذهبهم الرسمى ، بل خرب هؤلاء وأولئك كثيرًا من الآثار المصرية القديمة .

فلما جاء العرب رعوا حرية العقيدة واحترموها ، كما احترموا آثار الفراعنة ولم يمسوها بسوء ، ولم يفعلوا مثلما فعل الرومان أو الفرس أو الآشوريون .

فلا غرو أن أقبل المصريون وقساوستهم على عهد العرب مبتهجين .

وكان من نتائج الحرية الدينية التى أقرها العرب أن انتهى كثير من المصريين على توالى السنين إلى قبول الإسلام ، فدخلوا فيه أفواجًا .

ولم يكن دخولهم فيه كرهًا أو عن ضغط واضطهاد ، فإن المبدأ الذى اتبعه العرب هو حرية العقيدة .

وفى ذلك يقول مؤرخ أجنبى منصف ، وهو ألفريد بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) : « إن بعض الأقباط أخذوا عند ذلك يختارون الإسلام ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية ، فقد رأى هؤلاء أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، ويساويهم بالفاتحين فى شرف محلهم ويجعلهم إخوانهم فى كل شىء ، يسهم لهم فى الفَىْء ، ولا يفرض عليهم الجزية ، فكان فى ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول فى الإسلام ولاسيما وقد طحن المقوقس عقيدتهم طحنًا وحطم يقينهم باضطهاده »[1] .

وقال فى موضع آخر : « ليس من العدل أن يقول قائل إن كل من أسلم من الأقباط إنما كان يقصد الدنيا وزينتها ، فإنه مما لا شك فيه أن كثيرًا منه أسلم لما كان يطمع فيه مساواة بالمسلمين الفاتحين ، حتى يكون له ما لهم ، وينجو من دفع الجزية ، ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية ، وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصانة قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ونسيت ذلك فى ثوراتها وحروبها التى كانت تنشب بين شيعها وأحزابها ، ومنذ بدا ذلك حوّلا العقلاء ، لجئوا إلى الإسلام ، فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته »[2] .

---

(١) ألفريد بتلر – فتح العرب لمصر – المرجع السابق ص ٢٤٣ .

(٢) ألفريد بتلر – المرجع السابق ص ٣٨٥ .

وقال لمناسبة الصلح الذى عقد على تسليم الإسكندرية للعرب :

« ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذى حمل أهل الإسكندرية على قبول ذلك الصلح ، والمبادرة إلى الرضا عن قيرس (المقوقس) ، بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه ، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق فى انصرافهم عن دولتهم (دولة الرومان) ، وصدوفهم عنها ورضائهم بالإذعان لحكم الإسلام ، وليس ثمت إلا رأى واحد فوق ما سبق لنا ذكره : نفسر به ما كان منهم ، ذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان ، وكرهوا فساد الحكم الذى أثقل كواهلهم مدة أربعين عامًا ، وقالوا فى أنفسهم : لعلنا نجد فى حكم المسلمين استقرارًا واطمئنانًا نأمن فيه على ديننا فلا نكره فيه ، وعلى أموالنا فلا نتحمل من الخراج والجزية إلا قدرًا نطيقه ، ولعل أكثر ما حملهم على الرضا بحكم العرب رفع ما كان يبهظهم من الضرائب ، فقد كان الرومان يجبون من مصر أموالا يتعذر علينا أن نعرف مقدارها ، ولكنها كانت بلا شك كثيرة الأنواع ثقيلة الوطأة ، شديدة الأذى ، فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض ، ومهما يكن من مقدارها فقد كانت لها فضيلة البساطة ، وكانت ثابتة المقدار ومحدودة القصد ، وكانت أقل فى جملتها مما كان يجبيه الرومان[1] .

هذا ، وإن ما شاهده المصريون أو استذكروه من مظالم البطالمة ، ثم مظالم الرومان ، ومن قبلهم ظلم الفرس والآشوريين ، قد أثار بصائرهم وزاد من وعيهم ، وجعلهم يعتقدون بحق أن الحكم الأجنبى ، لا يمكن الاطمئنان إليه ، فلقد رأوا الإسكندر بادئ الأمر ، منقذًا لهم من ظلم الفرس ، ثم ما لبث خلفاؤه البطالمة أن اتخذوا مصر مستعمرة لهم ، ثم رأوا من ظلم الرومان شرا مما رأوا من البطالمة .

فهذه التجارب التى استمرت عدة قرون جعلتهم يفكرون فى ألا بد لهم من اتجاه جديد فى الروابط الدولية ، يجعلهم آمنين على حياتهم وعقائدهم ومستقبلهم واستقلالهم .

فاعتزموا ، وقد ساءت ظنونهم فى المجموعة الأوروبية ، أن ينضموا إلى الكتلة العربية الشرقية ، إذ وجدوا فيها العدل والإنسانية ، والفضائل القومية ، فانضمت مصر إلى المجموعة العربية .

وفى الحق إن المستعمرين من الإغريق والرومان أو الأعاجم من الشرقيين ، قد برهنوا على أنهم أقوام قساة القلوب ، غلاظ الأكباد ، لم تعرف الإنسانية إلى قلوبهم سبيلا ، وهذا ما جعل المصريين ينظرون إلى الفتح العربى كمنقذ لهم من ظلم الرومان واليونانيين ، ومن قبلهم ظلم الأعاجم من الشرقيين ، كالفرس والآشوريين .

قد لا يكون هذا الاتجاه نتيجة تمحيص وتحقيق ، بل هو إلهام للشعوب فى الساعات الفاصلة

(١) ألفريد بتلر – فتح العرب لمصر – المرجع السابق – ص ٢٩٢ .

فى تاريخها ، وخاصة فى ظروف الانتقال ، وهو بالنسبة لمصر دليل على ما فطر عليه الشعب المصرى من إرهاف للحس ، وحسن تبصّر فى الأمور ، فالشعب المصرى بماضيه فى الحياة القومية والحضارة المجيدة ، قد أحس أنه أقرب للعرب جوارًا وصلات روحية وثقافية ، فاتجهت نفسه بفطرته السليمة إلى أن يكون جزءًا من الكتلة العربية ، بدلا من الكتلة الأوروبية أو الشرقية الأعجمية .

أضف إلى ذلك ما كان من تأثير عامل اللغة فى هذا التطور ، فإن انتشار اللغة العربية فى مصر على تعاقب السنين قد مهد لجعل المصريين عربًا ، لأن اللغة هى ولا ريب من أقوى الروابط بين الامم والجماعات ، بل هى من أركان القوميات .

وزاد فى تأثير لغة الضاد أن اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) ، قد تراجعت وتقلصت قبل الفتح العربى بعدة قرون ، وحل محلها اللغة الديموتيقية أى اللغة العامية ، لغة الجمهور ، وجاء البطالمة ، وأحلوا محل اللسانين لغتهم اليونانية ، وجعلوها لغة الدولة الرسمية ، وظلوا كذلك ثلاثة قرون متوالية ، وجاء الرومان من بعدهم فأبقوا على اللغة اليونانية ، واتخذوها أيضا لغة الحكومة ولغة التعامل فى مصر ، فلما جاء الفتح العربى ، وجدت اللغة العربية أن المجال ممهد لانتشارها بين المصريين .

ولقد تم هذا الانتقال فى يسر وسهولة ، إذ كان وليد الفطرة والحس المرهف .

وهذا ما جعل الشعب المصرى يتطور من ناحية اللغة والثقافة والتفكير إلى حيث صارت مصر مع الزمن الدولة العربية الكبرى ، قاعدة العروبة وعلمها الخفاق ، ومصدر الإشعاع العربى للبلدان القريبة والبعيدة .

مصادر التاريخ المصرى القديم ومراجع البحث

١ – الآثار المصرية القديمة

إن الآثار المصرية ، كالأهرام والمعابد والمقابر والمسلات ، وما تحويه من الصور والتماثيل والنقوش والكتابات ، وما تتضمنه أيضًا أوراق البردى ، هى أول مصدر لتاريخ مصر القديمة .

هذا ، وأنا لم أرجع إلى هذه المصادر الأصلية ، لأن دراستها واستخلاص الحقائق منها يختص به علماء الآثار المبرزون الذين الذين اكتشفوا محتوياتها على تعاقب السنين .

حقًا إننى زرت الآثار المصرية زيارة علمية سنة ١٩٣٤ ، لمناسبة قضية المثّال محمود مختار التى ترافعت عنه فيها ضد وزارة الأشغال ، فقد ندبت المحكمة المسيو شارل نيراس مدير الفنون الجميلة بوزارة المعارف العمومية وقتئذ ، لمعاينة محاجر أسوان ، وصحبته فى هذه الرحلة ، وكان يمثل الحكومة فى المعاينة الأستاذ عبد الرحيم غنيم نائب قلم قضايا الحكومة فى ذلك الحين ، (رئيس محكمة استئناف القاهرة فيما بعد والمحامى الآن) ، ومندوبين عن وزارة الأشغال .

وقد زرنا مناطق الآثار فى الأقصر والكرنك وطيبة وأدفو وجزيرة أسوان ، وشرح لنا المسيو شارل نيراس الآثار القديمة شرحًا علميًا ، ومكثنا فى هذه الزيارة عدة أيام .

واستوفينا هذه الآثار بحثًا وتمحيصًا .

وفى سنة ١٩٦٣ زرتُ معابد النوبة ، وخاصة معبدى (أبو سمبل) ، وكنت برفقة نخبة من أعضاء لجنة التاريخ والآثار بمجلس الآداب والفنون ، وهم : الدكتور أحمد فخرى ، والدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، والأستاذ حسن عبد الوهاب . والدكتور جمال محرز ، وكان يصاحبنا أيضا الأديب يوسف الشارونى والأستاذ محمد أحمد على سكرتير اللجنة ، وشاهدنا عظمة الفن والتاريخ فى هذه المعابد ، وشرح لنا الدكتور أحمد فخرى دقائقها وروائعها .

على أنى لم أجعل اعتمادى على مشاهداتى ، بل رجعت إلى ما كتبه العلماء عنه .

قوائم الملوك فى الآثار القديمة

٢ – حجر بالرمو

وهناك الحجر المعروف بحجر (بالرمو) ، وقد نسب إلى هذا البلد لأن الجزء الأكبر منه موجود إلى الآن فى متحف بالرمو بجزيرة صقلية ، وبقيته بمتحف القاهرة ، وفيه أسماء الملوك من قبل حكم الأسرات إلى الأسرة الخامسة ، وقد نقش هذا الحجر فى عهد الأسرة الخامسة .

٣ – قائمة الكرنك

ومن الآثار القديمة التى ظلت مصدرا لتاريخ المصرى القديم القائمة المعروفة بقائمة الكرنك ، نقش عليها أسماء الملوك ، وقد أمر بنقشها عاهل مصر العظيم تحوتمس الثالث ، وهذه القائمة منقوش عليها أسماء الملوك على جدران حجرة يطلق عليها حجرة الأجداد .

٤ و ٥ - قائمة العرابة المدفونة (أيدوس) وقائمة سقارة

وهناك قائمة العرابة المدفونة وقائمة سقارة .

ويرجع تاريخ الأولى إلى عهد سيتى الأول ، من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، فقد أراد أن يخلد ذكرى أجداده فنقش أسماءهم فى إحدى قاعات معبده بالعرابة المدفونة ، وبدأ بالملك مينا ، وهى محفوظة بمتحف القاهرة .

وترجع الثانية إلى عهد رمسيس الثانى ، وهو موجودة بمتحف القاهرة .

٦ – بردية تورين

وعدا هذه القوائم المنقوشة على الأحجار توجد وثيقة أخرى يطلق عليها اسم (بردية تورين) ، وهى تشمل أسماء الملوك إلى الأسرة التاسعة عشرة .

ومما يؤسف له أن هذه البردية قد مزقت قطعًا عدة ، ولم يتمكن العلماء من وضع كثير من قطعها فى مكانها الأصلى .

المتاحف

ومن المصادر الهامة لتاريخ مصر القديمة المتاحف فى مصر والخارج ، فهى تزخر بآثار مصر القديمة ومظاهر حضارتها .

كتابات المؤرخين القدماء الذين كتبوا عن مصر فى العهود القديمة أو القريبة منها

ثم تأتى الكتب التى وضعها المؤرخون أو الرحالة القدماء الذين عاصروا مصر القديمة ، أو كانوا قريبين من عصرها ، فكتاباتهم ومشاهداتهم تعتبر من المصادر الأصلية الثانوية لتاريخ مصر القديمة نذكر منهم :

هيكاته Hecatus الملطى ، نسبة إلى ملطية إحدى مدن اليونان بآسيا الصغرى . وقد زار مصر

- جون ويلسن John Wilson الحضارة المصرية The Burden of Egypt تعريب الدكتور أحمد فخرى .
- أدلف أرمان Erman مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة . تعريب الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال .
- دريتون وفانديه Diroton et Vendier شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الثانى مصر .

Les Peuples de L'Orient méditéranéen

- هنرى حجوتييه ، الوجيز فى تاريخ مصر ، الجزء الثانى (مصر الفرعونية) .

H. F Gautier-Percis de L'histoire de Égypte pharoanique

- بوزنر – التسلط الفارسى الأول على مصر .

Posner-La premiere dominatisu perse en Egypte

- ويجول – تاريخ الفراعنة . Weiggall-History of the pharaons
- فلندرس بترى – تاريخ مصر . Flinders Petrie-A History of Egypt
- شامبليون فيجاك – مصر القديمة . L'Egypte ancienne- Champollion-Figeac
- شامبليون الشاب – مصر تحت حكم الفراعنة .

Chompollion le Jeune-L'Egypte sous Les pharaons

- عبد المنعم أبو بكر – مراكب الشمس .
- عبد المنعم أبو بكر – إخناتون .
- أدوارد – أهرام مصر . Edrwards-The Pyramids of Egypt
  تعريب مصطفى أحمد عثمان .
- تاريخ العالم – نشره بالإنجليزية السيرجون هامرتن .
  تعريب إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية .
  ظهر من التعريب حتى الآن خمسة أجزاء .
- وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، لنخبة من العلماء .
- جاستون ماسبرو – تاريخ المشرق ، شعوب الشرق القديم .

Maspero- Histoire ancienne des peuples de L'Orient

- إسكندر شارف Alexander Sharff تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى إنشاء مدينة الإسكندرية ، تعريب الدكتور عبد المنعم أبو بكر .
- عمر ممدوح مصطفى – أصول تاريخ القانون .

عن عهد البطالمة والرومان

- إبراهيم نصحى – تاريخ مصر فى عصر البطالمة فى جزءين .
- بيير جوجيه – مصر البطلمية . Pierre Jouguet-L'Égypte ptolémaique
- بوشيه لكترك – تاريخ اللاجيدين (البطالمة[1]) – فى جزءين وهو من أهم المراجع فى تاريخ البطالمة .

Bouche Lecterq-Histoire des Lagides

- بيفان – تاريخ اللاجيدين فى جزءين . Bevan-Histoire des Lagides
- محمد عواد حسين – حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية .
- فيكتور شابو – مصر الرومانية . Victor Chapot-L'Égypte Romaine
- ديهل – مصر المسيحية والبيزنطية . Diehl-L'Égypte Chrétienne et byzantine
- هارولد بل – H. Bell الهلينية فى مصر – تعريب الأستاذ زكى على .
- ميلن – تاريخ مصر تحت الحكم الرومانى .

Milne-History of Egypt under roman rule

- أدوار جيبون – اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية .

Gibbon-Decline and Fall of the Roman Empire

عن الفتح العربى لمصر

- ابن عبد الحكم – فتوح مصر وأخبارها .
- البلاذرى – فتوح البلدان .
- الطبرى – تاريخ الأمم والملوك – ١٣ جزءا .
- ابن الأثير – الكامل فى التاريخ – ١٢ جزءا .
- المقريزى – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – أربعة أجزاء .
- أبو الفداء – المختصر فى أخبار البشر – أربعة أجزاء .
- ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – ١١ جزءا .
- السيوطى – حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
- القلقشندى – صبح الأعشى فى صناعة الإنشا – ٤ أجزاء .

(١) نسبة إلى لاجوس أبى بطليموس الأول .

- جوستاف لبون – تمدن العرب . Gustave le Bon-La Civilisation des Arabes
- حسن إبراهيم حسن – عمرو بن العاص .
- رفيق العظم – أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة ، الجزء الثالث .
- بتلر – فتح العرب لمصر – تعريب محمد فريد أبو حديد .
Butler- The Arab conquest of Egypt
- محمد حسين هيكل – الفاروق عمر .
- ستانلى لين بول – تاريخ مصر فى العصور الوسطى .
A History of Egypt in the Middle A Ages
- ستانلى لين بول – سيرة القاهرة ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين .
Story of Cairo
- سديو – تاريخ العرب . Sedillot-Hist. Générale des Arabes
- ياقوت الحموى – معجم البلدان – ١٢ جزءا .
- على مبارك – الخطط التوفيقية – فى عشرين جزءا .
- محمد رمزى – القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ .

فهرس الكتاب

الفصل الرابع

ثورة الشعب على الهكسوس

الفصل الخامس

الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة

إلى الأسرة الثلاثين

الفصل السادس

أوج المجد . مصر فى عهد تحوتمس الثالث

الفصل السابع

إخناتون وثورته الدينية

الفصل الثامن

رمسيس الثانى . وحروبه الدفاعية

الفصل الرابع عشر

مقاومة مصر للاستعمار الرومانى وعصر الشهداء

الفصل الخامس عشر

الفتح العربى لمصر

فهرس الصور والخرائط

صفحة

صفحة

للمؤلف

– **حقوق الشعب** : كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ ، يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية ، وحقوق الإنسان ، فى قالب محاضرات لتعليم الشعب حقوقه .

– **نقابات التعاون الزراعية** : كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته ونظمه فى أوروبا . والثمرات التى عادت منه على البلاد الأوروبية ، وتناولنا فيه نشأة التعاون فى مصر ، وتاريخه ونظامه ونقاباته ومنشآته ومزاياه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية ، طبع سنة ١٩١٤ .

– **كتاب الجمعيات الوطنية** : يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها ، والمقارنة بينها ، طبع سنة ١٩٢٢ .

– **تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر** :

• **الجزء الأول** : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث . وبيان الدور الأول من أدوارها ، وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد .

• **الجزء الثانى** : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية ومن جلاء الفرنسيين إلى ارتقاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب .

– **عصر محمد على** : يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على .

– **عصر إسماعيل** :

• **الجزء الأول** : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل .

• **الجزء الثانى** : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل .

– **الثورة العرابية** : والاحتلال الإنجليزى .

– **مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال** : تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ .

– **مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية** : تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٣ إلى سنة ١٩٠٨ .

– **محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية** : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ .

– **ثورة سنة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١** :

ـ **الجزء الأول** : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) . وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

ـ **الجزء الثانى** : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ، ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية ، ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

– **مذكراتى (١٨٨٩ – ١٩٥١)** : خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

– **شعراء الوطنية فى مصر** : تراجمهم ، وشعرهم الوطنى ، والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم .

– **أربعة عشر عامًا فى البرلمان** : مجموعة أعمالى وأقوالى فى البرلمان ،فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥ ، وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ .

– **مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢** : الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ ، حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ ، وزارات الموظفين ، أسباب الثورة ، فاروق يمهد للثورة .

– **ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢** : تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٩ .

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٥٦٧٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5661-7

١/٨٩/٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

To: